كيف نميز بين
الحق والباطل في زمن الفتن؟

الكتـــــــاب	كيف نميز بين الحق والباطل في زمن الفتن؟ / يمنى مصطفى
المـــــــؤلف	مصطفى، يمنى
النـــــــوع	ديني
تصميم الغلاف	جيهان متولي
إخــراج داخلي	بثينة عزام
الطبـــــــعة	الأولى/ القاهرة ٢٠١١
عدد الصفحات	٢٠٠ صفحة
المقـــــــاس	١٧×٢٤
تدمـــــــك	
	١ – ديني

صرح للنشر والتوزيع

فكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ) برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني	darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني	www.dar-sarh.com
رقـــــم الإيداع	٢٠١٠/٢٤٣٥٣
الترقيم الـــدولي	978 - 977- 6382 - 56 - 5

ديوي ٣٢٣.٤٠١

كيف نميّز بين
الحق والباطل في زمن الفتن؟

بقلم

يمنى مصطفى





مقدمة

البحث عن الحق هو منتهى الغايات، بل إن البحث عن الحق بمعناه الأكبر يكاد يتلخّص في غاية وجود الإنسان على هذه الأرض.. وإن معرفة الله -حق معرفته- تجعل الإنسان يطلب الحق في كل أمرٍ من أمور حياته، في علمه وعمله، في أهله وماله؛ وكلّما عُرِض له أمر في هذه الحياة كان الحق مبتغاه، وما أسماها من غاية.. وكي يرى الإنسان الحق يلزمه أن يكون نقيَّ السريرة، يقظ الضمير، سليم النفس.. فإن كان البحث عن الحق مضنيًا في بدايته؛ فإن جزاءه سكينة يورثها الله قلوب من ابتغوا الحق في هذه الحياة الدنيا، وسعوا له سعيه.. وأما الباطل فيترك الإنسان في حالة من التململ، وعدم الرضا، والخوف، والاضطراب، فيحسب الواحد منا -إن كان على باطل- كأن كل صيحة عليه.. وفي الحق تكون الصدور رحبة، والقلوب مشرقة، والوجوه مستبشرة؛ وفي الباطل تكون الصدور ضيّقة، والقلوب مسودة، والوجوه مغبرة.. فأي الصورتين تبغي؟ راحةً، ونقاءً ولو لم تجن الكثير من عرض الدينا؟ أم ضيقًا، واضطرابًا ومعيشة ضنكًا ولو كانت لديك أموال الدنيا؟ وإن التمييز بين الحق والباطل هو الصراع الأبدي الذي يمر به كل إنسان مهما زادت، أو نقصت درجة أخلاقه، فقبل أن يقرر الإنسان تَبَنِّي رأي معين، أو اتخاذ قرار ما؛ فإنه يوازن بين كفّتي الحق والباطل، وحتمًا سَتُرَجَّح كفة أحدهما دون الآخر، والمحك هنا هو لماذا رجحت كفة واحد دون الآخر؟ ألأنه الأصح أخلاقيًّا، والموافق للعقيدة؟ أم لأنه الأقرب لمصلحة الفرد (من موافقة لعرف الأهل والعشيرة، أو تجنب لبطش ولي متسلط) حتى وإن كان يعلم داخليًّا أنه على باطل؟ أم أنه الأقرب لمصلحته، وقد وجد الإنسان له علّة قانونية، أو دينية ارتاحت لها نفسه، وبررت له ما بدا مريبًا للوهلة الأولى؟

ولكن الشيء المدهش حقًّا أن هذا الصراع الذي يمرّ به البشر عادة قد لايكونون بحاجة إليه حين يعلم الواحد منا أن قوانين الكون، وتجارب الأفراد تثبت بها لا يدع مجالًا للشك أن اتباع الصواب بغير هوى يعود دومًا بالنفع على الفرد حتى وإن كانت الحسابات المباشرة لاتشير إلى ذلك، وحتى وإن كان ما هو واضح للعيان أن اتباع الصواب سيعود بالضرر السريع على الفرد.. ولكن حقيقة الأمر أن الأمور بعواقبها، وأن اتباع الصواب دومًا لايضيع صاحبه سواء من وجهة النظر الإنسانية، أو البراجماتية البحتة.. انظروا إلى قول (ورنر ايرهارد الباحث المستقل)، و(مايكل جنسن البروفيسور بجامعة هارفارد)، وهما -للعلم- باحثان في أكثر المجالات سعيًا للنفع الربحي ألا وهو مجال إدارة الأعمال، في بحثهما المثير عن (النزاهة): «إن تعريف النزاهة على أنها احترام الفرد لكلمته يعطي مجالًا واضحًا، وفعّالًا لفرصة الأداء الفائق، ومزية التنافس على كل من الصعيدين الشخصي، والتنظيمي»؛ أي أن النزاهة هي أن يُصَدِّق فعل الشخص قوله، وهو نوع من احترام الحق سيعود في النهاية بالنفع على الفرد، بل سيجعله يتفوق على غيره في الأداء لا العكس كما قد يظن البعض إلا أننا كثيرًا ما ننسى هذه الحقيقة، حتى وإن خَبِرَتْها فطرتُنا، ووعتها ضمائرنا، بسبب حجم المتداخلات، والضغوط بحياتنا، وبسبب زمن صار يعج بالفتن، إلا أنهم استعاضوا عن كلمة (الفتن) بتسمية أنيقة ألا وهي (العولمة)، حيث تذوب فيه الهُوِيَّات، والثقافات، والأقنعة لخدمة هوية واحدة، وثقافة واحدة ألا وهي ثقافة القوة، وهيمنة رأس المال؛ ولو فكرنا في الأمر -إن كانت هناك قوة واحدة عالمية تحركها أياد خفية هي التي طرحت هذا الفكر العولمي- فلأي غرض طُرِح هذا الفكر، وأية دولة وثقافة سيخدم؟ هذه القوة ذاتها بالطبع.. وهكذا صار الحق في نفوسنا كأنه صورة في الذاكرة، غائمة مضببة، نعلم يقينًا أنها موجودة إلا أننا لانكاد نراها، أو نضع أيدينا عليها بسبب حواسنا المشغولة بشاشات التلفاز، وصفحات المجلات، وما تملأ به عقولنا هذه

المصادر الإعلامية من حشو الآرآء التي لا تخلو من أغراض.. ويُذكَر أن عمر بن الخطاب كان بابًا في وجه هذه الفتن، وبموته كُسر هذا الباب، فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كنا جلوسًا عند عمر ﷺ فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟

قلت: أنا؛ كما قاله.. قال: إنك عليه -أو عليها- لجريء، قلت: فتنة الرجل في أهله وماله، وولده، وجاره تكفرها الصلاة، والصوم، والصدقة، والأمر، والنهي، قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قلت: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك، وبينها بابًا مغلقًا، قال: أيُكسر أم يُفتح؟

قلت: يُكسر، قال إذن لا يغلق أبدًا، قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما أن دون الغد الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، قال: شقيق -الراوي عن حذيفة- فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمَرْنا مسروقًا فسأله؛ فقال: الباب عمر. (أخرجه الإمام البخاري في صحيحه).

وعن قدامة بن مظعون أن رسول الله ﷺ أشار إلى عمر فقال: «لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين ظهرانيكم» (أخرجه الطبراني والبزّار).

وها قد استُشهِد عمر، وفُتحت أبواب الفتن؛ بل إنها في ازدياد مطرد مع بزوغ شمس كل صباح.. وها نحن في زمن قد علا فيه صوت الباطل، وكثرت أبواقه، وخَفَت فيه صوت الحق، وقلَّ مناصروه، وصار من هم قابضون عليه قلة، يقولون الحق -إن قالوه- على استحياء، وعيونهم تدور بين مستمعيهم في تربُّص، من منهم يستمع ويسجل عليهم ما يقولون كي يكون علّة في يد سلطة تبطش بهم، أو تخرجهم من بلادهم، ثم لا تلبث هذه العيون أن تنتقل إلى الأبواب بين الفينة والفينة متوجّسة ممن قد يقتحمها عليهم كي يلقيهم في غياهب سجن، أو حبس انفرادي.. صار أناس شرفاء يخافون أن يمكثوا في المسجد بعد

الصلاة دقائق، أو في غير أوقات الصلاة، وإلا عُدُّوا تنظيمًا سريًّا.. صارتِ المساجد أفخاخًا، والصحبة الصالحة تنظيمًا.. وصار كل صديق عدو محتمل.. مُنعتِ التجمعات؛ فقتلوا في الناس القدرة على الوحدة، ومن ثم القوة في الحق.. صار من هم على حق متشرذمين، ممزقين شرّ ممزق، يحسب الواحد منهم (و هم كثر) أنه وحيد، فتارة يكون على يقين من الحق إلا أنه يخاف البطش، وتارة أخرى يشكّ في أنه على حق في الأساس، فكيف يكون مُحقًّا والعالم من حوله مخطئ! وهذه هي معضلة الحق في زمن الفتن، ذلك الزمن الذي يصير القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، فهو يقاسي ضغط السلطة السياسية من جهة، والدينية (الفاسدة) من جهة أخرى، وضغط أهله والعُرف من جهة ثالثة.. ويبقى في هذا كلّه صوت ضميره الوازع، وعقله المدرك كنبضات قلب واهن في جسد مريض، إلا أنه مازال ينبض، والحق هو نبضه ما ثبت عليه الشخص، فإن تركه مات وإن بقي جسده يأكل، ويشرب، وينام.

وإذا ما سألنا أنفسنا لماذا كان عمر رضي الله عنه بابًا في وجه الفتن؟ فالإجابة على ذلك معروفة، وهي لأنه كان قويًّا في الحق حتى أنه سُمي بـ(الفاروق) لأنه فرَّق بين الحق والباطل، وليس ذلك لطبع فيه فحسب، بل لحرص منه على استقصاء الحق، والضرب على يد الباطل أينما وجد؛ لذلك علينا أن نلتمس في الفاروق أسوة حسنة في حرصنا على الحق، وطلبنا إياه، وأن نحاذر فيما نسمع، وما نقبل من أخبار، وما نتبنَّى من آراء.. فإذا ما فعلنا؛ سد كل واحد منا ثغرة في هذا الباب فصرنا كالسور المنيع بوجه الفتن كما كان صحابة رسول الله ﷺ.

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إن على الحق نورًا، والحق أبلج، والباطل لجلج».. والهدف من هذا الكتاب هو البحث عن معيار نحتكم إليه بغير هوى، نقيس به أي الأمور صواب، وأيها باطل؟ أو أيها باطل يتخفى في ثنايا الحق؟ يقول الإمام علي رضي الله عنه، وكرم الله وجهه: «لا يُعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله».. وهناك أمور كثيرة، وتفاصيل تتداخل

في تقييمنا، وإن صرفها والتركيز على النقطة موضع التساؤل قد يكون صعبًا حين لا نملك قواعد واضحة نتبعها كي نصل إلى برّ الأمان ونتبع الحق.. والهدف من هذا الكتاب هو تأصيل هذه القواعد، وتطهير نفوسنا مما علق بها من غشاوات قد تحول دون رؤية الحق.

أين الحق؟

لقد علمت أنه سيطرق بابي يومًا باحثًا عن الإجابة.. وانتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر لعلمي أنه إن احتمل بعض الوقت، فلن يحتمل كل الوقت.. كنت أقاوم يوميًا رغبتي في أن أسأله عما به، وأن أتطفّل على عالمه الخاص الذي كثيرًا ما كانت تحجبه نظرته الجادة المتأملة.. ولكني مؤخرًا وجدت هذه النظرة الهادئة قد بدأت تتلاشى من فوق وجهه شيئًا فشيئًا لتحل محلها نظرة يشوبها القلق والاضطراب..

عوَّدتُه منذ صغره أن يأتيني بعد أن تضيق به السُّبل، ويستنفد كل الحيل، فلا تنجده معلوماته التي مازالت محدودة، ولا تكشفها له بعد بصيرته الشابة.. وحينها أتدبر معه، فإما أن أضيف إليه معلومة، أو أساعده على أن يري الأمور بمنظورٍ آخر.. ولكنه على غير العادة لم يأتِ إليَّ من فوره هذه المرة، وكأنه يحمل حملًا ثقيلًا يخاف ألا أستطيع تحمله إن أفضى به إليَّ..

لم أعهده أبدًا هكذا، كان دومًا قادرًا على التأقلم مع كافة ما يسمع أو يرى، والتوصّل إلى طريقة إيجابية للتصرّف حيال كل ما يعرض له من أخبار أمته على العموم، وبلاده على وجهٍ أخص، المهم في الأمر أنه كان لديه القدرة على الفهم، والاستيعاب، والتصالح مع النفس بما يمكنه أن يأوي إلى فراشه يوميًا مرتاح الضمير أنه فعل كل ما بوسعه... إلا أنه هذه المرة يبدو وكأنه قد فوجئ بأمرٍ لم يعهده بل لم يتوقعه، شيء هز عالمه وبنيانه، شيء يهدد كل ما حاولت أن أغرسه في ولدي من ثبات، وإيمان..

طرق الباب، ففتحت له، دخل الغرفة وهو لايزال على صمته المقلق.. تناول أقرب مقعد إليه، وجلس عليه شاردًا.. تعجبت من أمره، وانتظرت أن يبدأ الحديث، إلا أنه بدا تائهًا وكأنَّه لا يدري من أين يبدأ.. أواه يا ولدي، أي حمل ثقيل تحمل؟

بدأ يتمتم بما أظنه: «أمي، أنا لا أدري...»

كانت هذه أول كلمات تخرج من فِيهه بعد طول صمت دام ما يقارب الأسبوع، اللهم إلا من سلامه عليَّ، وعلى والده..

«لا تدري ماذا يا ولدي؟»

فرك جبهته وكأنه يطرد ألمًا برأسه، ثم قال: «لم أعد قادرًا على التمييز، لقد اختلطت عليَّ الأمور، واختلَّتِ الموازين..» ثم خفض صوته، والتفت إلى النافذة، وعاد كأنه يحدِّث نفسه.

«هل يعقل أن يكون العالم كله مخطئًا، وأنا وحدي على صواب، هل يعقل أن يكون العالم أعمى، وأنا وحدي الذي أرى؟!» ثم التفت إليَّ وكأنه تذكر فجأة أنه يحدثني: «لماذا تبدو الأمور بديهية لي، ثم لا أفتأ أرى أمورًا أخرى تقلب موازين ما اعتبرته يومًا من المسلمات؟».

اعتراني الصمت لوهلة، وأندهشت من فيض الهموم التي أفضي إليَّ بها، ثم حاولت أن أتماسك كي لايستشعر توتري: «هوّن عليك يا ولدي، دعنا نبدأ من البداية، ما الذي يدفعك إلى هذه التساؤلات؟».

«لقد بَدَأَتْ منذ أن بدأتُ أدرك يا أماه.. إن عقلي كان قد طور قدرة على التكيف، والتعايش، وفي بعض الأحيان -للأسف- على التجاهل، ولكنني الآن لم أعد قادرًا على التعايش مع ما أرى، وأسمع.. إني أحس بالاختناق، وكأنه لم يعُد هناك هواء نظيف أستنشقه، وكأن نيران الباطل قضت على كل ما تبقى من نسائم الحق..»

صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه اللاهثة، ثم أضاف وهو مطرق الرأس، وكأنه خجل من اعترافه بالضعف لأول مرة: «إن قلبي مثقل..».

عدت بذاكرتي إلى أحداث الأسابيع الماضية والتي لم أربط بينها وبين ضيق ولدي إلا بعد ما رأيت منه الآن.. بدأت حين عاد يومًا من جامعته حانقًا غير مصدق لسذاجة زملائه حيال ما يتبنون من آراء بشأن القضايا التي يختلط فيها عالم الأعمال بالسياسة؛ فتخرج روايات

عدة رسمية لتطمئن العامة أن كل شيء على ما يرام، فما من فساد، أو خيانة، وأن الأمر لا يعدو شائعات مغرضة أطلقها بعض المتطلعين للمال أو السلطة.. كان غير مصدق لحجم اللبس في عقولهم بين الحق والباطل، ولم يكن يتوقع أن هناك -بالفعل- من يصدق هذه الروايات الرسمية التي أقل ما توصف به هو السذاجة لكل من يفكر في الأمر.. كان يظن أنه أمر بديهي أن يعلم الناس أن الرواية الرسمية ليست بالضرورة الرواية الحقيقيّة.. كان يعتقد أن الجميع يعلمون أن هناك نوايا غير خالصة وأيادٍ خفية..

وخلال الأسبوع الماضي لم يفتأ يقلب بين المحطات الفضائية والمحلية متعجبًا من مواقف حكومته، وغير مصدق لحجم الظلم الذي يقدر عليه البشر حكامًا ومحكومين تجاه بعضهم البعض، وتجاه إخوانهم من العرب والمسلمين؛ حتى اختفت الابتسامة البشوش من فوق وجهه ليحل محلها تجهم وانقباض.. واليوم ألقى إليَّ بـ(القنبلة) حين قال: «وما أدراني أنني على حق!».

هزتني هذه العبارة بشدة، واعتصر قلبي حزن شديد أنه قد بلغ الأمر بالباطل، والمروجين له أن هزوا عالم من هم على حق.. أضعفاء نحن حتى نشك في الحق؟!

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) خطرت فورًا هذه الآية ببالي، وكأن الله يثبتني.. أخذتُ نفسًا عميقًا كي أرتّب أفكاري، وعلمت أني مقدمة على أخطر محادثة بيني وبين ولدي، محادثة قد يترتب عليها سلامة نفسه، وفكره، وربما ثبات إيمانه..استعنت بالله، وأخذت بيده قائلة: «دعنا نبدأ من البداية..»

«أمّاه.. لقد رأيت الباطل سائدًا، واتباعه يسير.. لماذا يجب على من يقول الحق أن يقاوم دومًا، لماذا لا أستريح؟

لماذا الحق، إن كان الجهل والباطل يضمنان لي حياة هانئة؟!

لماذا الصراع والمواجهة، إن كان بإمكاني أن أطأطئ الرأس، وأبتلع قولة الحق كي أعيش في سلام؟!».

لماذا نتبع الحق؟

قبل أن نبحث في أسباب سعينا للحق، نبدأ بتعريف المعنى المقصود من الحق في هذا الكتاب: إن كلمة الحق تأتي على معان عدة؛ فكلمة الحق لغةً: (هي اسم من أسماء الله تعالى، وقيل هي صفة من صفاته، وهو سبحانه الموجود الحق الثابت وجوده وإلٰهيته).

والحق : ضدّ الباطل.

والحق : هو الواجب المؤكّد الثابت.

وحقوق الله سبحانه: هي مايجب علينا نحوه سبحانه.

وحقَّ الأَمرُ، حقًّا، وحقوقًا : صح وثبت وصدق.

وتحقق عنده الخبر؛ أي صحّ وثبت.

كما تأتي كلمة الحق اصطلاحًا على معان عدة؛ أشهرها أنها (اختصاص يخوّل الشرعُ صاحبه بموجبه سلطة له أو تكليفًا عليه)، والمعنى الذي يعنينا في هذا البحث هو المعنى الأول، ألا وهو الصدق وثبوت الصحة؛ وقبل أن نشمّر عن سواعدنا استعدادًا لرحلة البحث، علينا أن نسائل أنفسنا أولًا؛ لماذا نبحث؟ ولماذا هذا الثقل للحق في نفوسنا حتى كانت معركة الحق والباطل تكاد تكون هي أم المعارك التي يخوضها كل منا بمرحلةٍ ما في حياته، حتى أن نتيجة هذه المعركة ستلخص في النهاية قيمة هذا الإنسان عند نفسه، وعند الله؟

الحق يوافق الفطرة

إن اتباع الحق أمر لا يحتاج أن يتكلّفه الإنسان، فنفس الإنسان بطبيعتها تأنس إلى الحق، وإن كان شاقًّا؛ وتعاف الباطل، وإن كان سهلًا، والدليل على ذلك قول الله -تعالى- في كتابه الحكيم: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس: ٧ - ٨).

فالله ﷻ خلقنا بفطرة تميز بين الحق والباطل، لذلك ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (الشمس: ٩ - ١٠).. ويؤكد هذا المعني الدكتور (راتب النابلسي) في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة: «الإنسان إذا فعل شيئًا مخالفًا لفطرته يتألّم، وإذا خرج عن قواعد فطرته يشعر بالضيق.. إن (الإنسان) فطرته وحدها كفيلة بتنبيهه إذا انحرف، هذه هي الفطرة.. لذلك: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾ (الشمس: ٨) أي هذه النفس، لأنها فُطرت فِطرةً عالية جدًّا، إذا هي انحرفت تشعر بانحرافها، وتضيق بهذا، وإذا اتقت الله عزّ وجل، وكانت وقّافة عند الأمر والنهي مطيعةً له ترتاح وتسعد، وهذا معنى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ (الشمس: ٨)».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الهدية: «وَالقَلبُ خَلْقٌ يـُحِبُّ الحَقَّ، وَيُرِيدُهُ، وَيَطْلُبُهُ.. فَلَمَّا عَرَضَتْ لَهُ إِرَادَةُ الشَّرِّ؛ طَلَبَ دَفْعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ الْقَلْبُ كَمَا يَفْسُدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِنْ الدَّغَلِ»...وهكذا فلو استجاب الإنسان لفطرته؛ لوجد أن طلب الحق أصيل فيها، وما غشاوة القلب إلا شوائب خلفتها سنون من عدم التدبر، وهذا ما يبينه العقاد في قوله: «وما من أحد يهتدي بعقله لا يسعه أن يري الصواب وأن يكف عن الخطأ».

ليس الظن كالحق

يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس: ٣٦)، والظن المقصود هو التوهّم بغير سند من الواقع، فكيف يغنيك الظن عن الحقيقة؟!.. وبماذا تستفيد إن عشت في فقّاعة من عالمٍ افتراضي اختلقته لنفسك لتحافظ على ما تظنّه سلامك النفسي؟ ما يجديك إن وقفت أمام الله واعتذرت بأنك أخطأت الظن؟، وما يفعل الظن حينها؟ إن الظن سلبي ضعيف لم يتطلب منك مجهودًا، ولم يسبب لك صراعًا.. إن الظن هو أسرع اعتقاد نسارع إلى تبنيه كي

نحافظ على سلامة عالمنا الواهي إن كان قائمًا على خطيئة، أو به غبن للآخرين.. أما الحق فإيجابي، ويتطلّب بحثًا ومجهودًا، وهو قوي له علامات واضحة، وتبنِّيه غالبًا ما يأتي بعد صراع؛ إمّا نفسي، وإما مع الباطل ذاته في أي من صوره.. ففكّر معي هل يستويان؟ أيستوي إنسان بحث عن الحق، وقاسى لأجله الشك، والممانعة من الباطل، مع آخر آثر طريق السلامة وألا يصارع التيار السائد، وتبنى لأجل ذلك الرأي المتداول، أو الأقرب إلى مصلحته، ونفعه لا الصواب؟

الحق غريب

يقول الشيخ الدكتور حمد بن إبراهيم العثمان: « صفة الحق الغربة»(٧).. وغربة الحق ليست غربة وحشة كغربة الأوطان، ولكنها (غربة الروح والفكر) (٥.. ولعلها حقيقة كونية أنه حيثما وُجِد الحق؛ وُجِد الصراع مع الباطل، وفي كثير من الأحيان لن تجد الحق رائجًا، ولا سائدًا بين الناس، لذلك كثيرًا ما يكون تبني الحق في بادئ الأمر شاقًّا لأن فيه مخالفة لعرف ألفه الناس، وشذوذ عن رأيهم السائد مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، وقوله: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام: ١١٦)، ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٦).. يقول الإمام عليّ ﷺ: «ما ترك لي الحق صاحبًا» وكأن اتباع الحق دومًا يأتي باختبار الثبات من المولى عز وجل، وكأن الله يحدِّث الواحد منا –ولله المثل الأعلى– بـ: «أما وقد اخترت الحق، أتثبت إن تركك أصحابك وعشيرتك؟ أتثبت إذا ما تحملت لأجله الأذى؟...إلخ

وقد يتساءل المرء لماذا أتبع الحق إذا كانت نتيجته غربة الروح؟ والإجابة على ذلك أنها غربة ينأى بها الفرد عن الباطل واتباعه، يستبدل فيها وحشة الباطل بأنس الله.. يقول العقاد:

«لا معنى للدين، ولا للخلق إذا جاز للناس أن يخشوا ضررًا يصيب أجسامهم، ولا يخشوا ضررًا يصيبهم في أرواحهم، وضمائرهم»، وما قيمة موافقة الناس في الحاضر إن كنت تعلم أن الأمر في نهايته سيقتصر عليك أنت وربك، وحينها لن يغني عنك الظن شيئًا..

طلب الحق واجب

إن الواحد منا مطالب -كإنسان عاقل- بطلب العلم، والتفكُّر للوصول إلى الحقيقة..

بل إن الله يبلغنا في كتابه العزيز أن التفكر هو سبيل الوصول إلى الحق في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)، ثم انظر كيف يثني الله على عباده المتفكرين في قوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان: ٢٠).

وجاء في الأثر «أن تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»، وقيل لإبراهيم بن أدهم: «إنك تطيل الفكر»؛ فقال «الفكر مخ العبادة».. بل إنَّ عقل الإنسان هو ما يميزه عن سائر المخلوقات في قدرته على التفكر، والتدبُّر، وربط الأحداث، ثم الاستنباط؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠)..

بل جُعل العقل مناط التكليف؛ ولذلك قال ﷺ: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ؛ عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ». (رواه البزَّارُ).. والتفكر هو

رياضة وغذاء العقل، فكيف يُعقل أن يترك الواحد منا التفكر كسلًا، أو تواكلًا... إنه بذلك يكون قد تنازل عن إنسانيته، وما كان الإنسان إنسانًا إلا بعقله، فكيف يُعَطِّلُه؟!

وإن الإنسان المسلم مطالب بالبحث عن الحق والعلم به، لذلك كان أول أمر من الله لمحمد ﷺ هو (اقرأ).. وعن معاذ بن جبل أنه قال: «تعلّموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قُربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتص آثارهم، ويقتدي بأفعالهم، وينتهي إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة.. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء».

وهناك أمثلة أخرى غير معدودة عن ضرورة البحث عن الحق، ألا يكفي أنه كان من شروط بيعة العقبة الثانية بين الرسول والمسلمين من المدينة «أن يقولوا كلمة الحق أينما كانوا، وألا يخافوا في الله لومة لائم».. إذن، **فاتباع الحق هو أمر عقدي منصوص عليه في القرآن، وتشهد به السنة، وتؤكده..**

ويقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (خلق المسلم) مؤكدًا على أهمية إعمال العقل في استنباط الحق: «إن حقائق هذا الدين – من أصول وفروع – ليست طقوسًا تنقل بالوراثة، أو تعاويذ تشيع بالإيحاء، وتنتشر بالإبهام؛ كلَّا إنها حقائق تستخرج من كتاب حكيم، ومن سنة

واعية، وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة، بل لا بد من أمة تتوافر فيها الأفهام الذكية، والأساليب العالية، والآداب الكريمة»، ثم يستطرد مؤكدًا على توصية الدين الإسلامي باتباع الحق وحده، والبحث عنه مهما خفي، واستنكار الظنون العائمة، والنهي عن الجري وراءها، ووضع رقابة محكمة على السمع، والبصر، والفؤاد؛ إن هذا كفيل بإيجاد مجتمع بعيد عن الخرافات، والأوهام، والمساخر.. مجتمع لا يفيض بالشعوذة، ولا تشيع فيه الأراجيف، والتُّرهات، ولا تحكمه تقاليد غامضة ما أنزل الله بها من سلطان.. إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقرًّا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصيفة».

النهي عن التقليد الأعمى

يصف الشيخ حمد بن إبراهيم العثمان -في كتابه القيِّم (الصوارف عن الحق)- التقليد كأحد أسباب البعد عن الحق، ويذكر أن المقلِّد سماه السلف بـ(الإمَّعة).. ويقول ابن حزم: «المقلِّد راضٍ أن يُغبَن عقله».. ويقول شيخ الإسلام: «فإن التقليد لايورِّث إلا بلادة»، ويقول الشيخ عبد القادر بن بدران الدمشقي: «التقليد يبعد عن الحق، ويروج الباطل»..

و هذا هو حال الجُهَّال الذين رضوا أن يعطِّلوا عقولهم، وأن يستلهموا آراءهم من أفواه الآخرين دون تفنيد..انظر كيف وصف الله هؤلاء ممن يستخفهم الباطل فلا يثبتون على الحق، وصفهم بالفسق في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٤)، ويقول ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية: «فاستجهل قومه (فأطاعوه) لخفة أحلامهم، وقلة عقولهم، وقيل: استخف قومه؛ أي وجدهم خفاف العقول».. ويقول عباس محمود العقاد في معرض حديثه عن موانع التفكير - ومنها التقليد الأعمى-: «والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، ولا يقبل منه أن يلغي عقله

خنوعًا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يُرضي العقل والدين، ولا يقبل منه أن يلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء، وطغيان الأشداء».. والتقليد المقصود هنا هو التقليد الأعمى الذي يلغي الإنسان فيه عقله طلبًا لراحة العقل على حساب ضميره، ولكن لا مانع من أن يرى الإنسان الحق فيعرفه، ويقلده، فلقد قام على الأقل باختياره طوعًا دون الباطل، ومثل ذلك أن يقلد الناس بعضهم بعضًا في تجارب، ومشاريع الخير مثلًا.

الإنسان مُجازى بجهله

للأسف هناك اعتقاد سائد بين الكثير من الناس بأن الله لا يجازينا بجهلنا، وهذا صحيح إذا كان الإنسان بالفعل قد بحث، ولكنه لم يجد إلى العلم سبيلًا.. لكن هذا لا ينطبق في حالة أن يكون الجهل اختياريًّا؛ أي أن يختار الإنسان ألا يعلم كي يعيش في نعمة التغافل كما يصفه الشافعي:

ذو العقلِ يشقى في النَّعيمِ بعقلِهِ   وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنْعَمُ.

وقد أنكر العلماء هذا النوع من الجهل، وأكدوا على معاقبة الله لصاحبه، فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «إن هذا العذر لا يكون عذرًا إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصَّر فيه؛ لم يكن معذورًا».

و قد يقول البعض، وبماذا يضير الناس جهلي؟ وأنا إنسان عادي، و لست سياسيًّا معروفًا، أو حتى معلمًا للأجيال، فيكفيني أن أسمع لرأي هذا وذاك، ثم أتخذ من هذه الآراء ما يريح عقلي، وهذا لا مانع منه إن كنت سليم الفطرة، لديك علم كافٍ، وقدرة سليمة على الحكم؛ أما إن لم يكن لك أي رصيد من هذا، فأنت مجازًى بعدم بحثك عن الحق، وتبنيك له.. قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله –: «وأما القادر على التعلم المفرِّطُ فيه، والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي، فهذا الذي ليس بمعذور».

كما أن الإنسان ليس بالجزيرة المنعزلة، فكلٌ لديه عائلته، وأطفاله، وجيرانه، ودائرة أصدقائه، وزملائه في العمل.. كل هؤلاء يقعون في دائرة تأثير وتأثُّر، كل واحد منا مهما كان ضئيلًا، وكل هؤلاء يتبادلون الكلام والآراء، فإن تداول الواحد منا رأيه المقصور غير المدروس، أو علمه المبتسر في هذا الموضوع أو ذاك، وكان ذا صوت مسموع؛ ألَا يكون قد سبّب ضررًا كبيرًا؟! كما أن الواحد منا بقوله رأيًا غير صائب يكون قد تجنى واجترأ على مجموعة من البشر لا يملكون ردًّا لظلمه هم بهذا القول، بل مما قد يزيد الطين بلّة أنه ربما يكون قد ساعد آخرين ممن يثقون برأيه على أن يتبنّوا مثل هذا الموقف.. يقول الله ﷻ فيمن أغلقوا أذهانهم عن التفكير، والاستنباط، والبحث عن الحقائق: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١).

جزاء اتباع الحق في الدنيا والآخرة

وكذلك إذا قلنا إن اتباع الحق عاقبته في الآخرة فقط، فهذا ليس بالصحيح.. يقول ابن حزم: «إن أفضل نعم الله على العبد أن يطبّعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره».. فعلى الرغم من أن الجزاء الأعظم يكون في الآخرة، إلا أن اتباع الحق لا يخلو من نفحاتٍ في حياة المؤمن؛ أوّلها وأشدها أثرًا هي السكينة التي يجعلها الله في قلبه إن اتبع الحق، وهذه السكينة أمرٌ ليس بالهيِّن، فبها يخرجنا الله من ظلمات التخبط في سبل الباطل، ولا ينالها إلا ذو حظٍّ عظيم.. يقول الله ﷻ في سورة الفتح: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾(الفتح: ٤)، ويقول ﷻ: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ١٨)، وهكذا نرى أن السكينة هي الجزاء العظيم لمن عرف الحق بقلبه فاتبعه بجوارحه، ثم انظروا إلى حال من يرفض الحق، وكيف يجعل الله صدره ضيقًا كمن يصعد إلى ارتفاع عالٍ فينقص في صدره الأكسجين كما

يشير الوصف القرآني الرائع ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

أليس الله بواعد المؤمنين السكينة والاطمئنان بتقواهم لله في كل فعل في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢ – ٣).. وتقوى الله هي تحرّي الحق والصواب في كل قول، وفعل، وخاطرة، فإن فعلت فقد يسّر الله لك السبل، وكفل لك رزقك؛ فأورثك السكينة والطمأنينة؛ ويؤكّد ذلك الشيخ محمود مشوح في معرض تفسيره لسورة (ق) حيث يصف حال أهل الحق بأنهم: «يملكون سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وسلامة التفكير حتى في أدق الظروف، وأحلك الأوقات، كما يملكون هدوء الأعصاب، ويملكون القدرة على التحكّم، والضبط في مسالكهم، وأقوالهم، يملكون القدرة على أن يكونوا أولئك الناس المتوازنين عقليًّا، ونفسيًّا، وعصبيًّا، وأخلاقيًّا، وليس مهمًّا بعد أن يكون هؤلاء قلة كالشعرة البيضاء في جسم الثور الأسود هذا غير مهم، المهم أن حجة الله على العالمين ناهضة وقائمة بهؤلاء الناس الذين حصّلوا من الكمال الإنساني، وأماراته ما تتقاصر عنه همم القاصرين، والقاعدين، والمتكاسلين».

يُذكر أن «الحسن البصري» كان بمجلس أحد القضاة فجاءه أمرٌ من «يزيد» لو أطاعه؛ لأغضب الله عز وجل، فوقع القاضي في حيرة من أمره، أيطيع «يزيد»، ويغضب الله؟ أم يعصيه، ويخاطر بعزله عن منصبه؟ فسأل «الحسن البصري»، فقال له: «إن الله يمنعك من «يزيد»، ولكن «يزيد» لايمنعك من الله» فإن كان الله معك فمن عليك؟!

بل وليس الأمر كذلك فحسب، فلمن لايستطيعون أن يقيسوا الحياة إلا بالآلة الحاسبة؛ فإني أقول -أيضًا-: إن اتباع الحق يعود بالنفع المادي الملموس على الإنسان على المدى البعيد،

وهذا قانون كوني قرآني يتضح من قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١)، وهذا تأكيد من الله على أنه لا توفيق لمن ظلم باتباعه الباطل.. وهذا الكلام ليس عقائديًا فحسب، بل هو ما أثبتته آخر النظريات في علم الإدراة، والأموال.. يقول (مايكل جنسن) أستاذ علم الإدارة بجامعة هارفارد: «إن النزاهة تمثل فرصة مضمونة للأداء المتفوق الذي يمثل بدوره عاملًا مهمًّا للإنتاج».

وهذه هي الحقيقة التي يقرّها القرآن الكريم في انتصار الحق دومًا، وكيف أن الباطل لابقاء له، وإن طال عليه الأمد: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

وعلى الجانب الآخر انظر إلى حال أهل الباطل كيف يتخبّطون؟ يقول الشيخ محمود مشوح في وصف أرباب الباطل: «إن قدرتهم على التحكم في أعصابهم معدومة، ولذلك هم دائمًا متوترو الأعصاب، قابلون للثورة، والفوران، والاندفاع الأعمى غير المصلح، إنهم كذلك لايملكون تلك النفوس البريئة السليمة المعتدلة، إنهم يرزحون تحت مجموعات من العُقد النفسية، والأمراض النفسية، فهم أناس تتلوّن الدنيا بما فيها في أعينهم تبعًا لهذه الأمراض، والعقد التي تعمل داخل نفوسهم؛ إنهم من جهة أخرى لايملكون المنهج الأخلاقي الذي نستطيع أن نطمئن إليه.. إن المنهج الأخلاقي المتوازن نتيجة طبيعية للأخذ بأهداف الحق، أما أرباب الباطل فلا أخلاق لهم».. ونرى هذا الوصف جليًّا إذا ما تأمّلنا في وجوه البعض ممن عادوا الإسلام، وأعلنوا الحرب ضده لأجل عرض الدنيا، وتحقيق

أجنداتهم الخاصة أمثال (نوني درويش)، و(وليد شعيبات)، والذين داروا في بلاد الغرب يشوِّهون صورة الإسلام، ويلقون لأجل ذلك الحفاوة من أعدائه.. انظر كيف أن باطلهم ضعيف، وحججهم واهية؛ فلا يجدون ما يؤيد آراءهم سوى أن يخرجوا الأمور من سياقها، ويستغلوا جهل الآخرين بهذا السياق ليمرروا هذا الباطل، والمحزن في الأمر أننا في بلادنا لدينا كل المصادر، وكل السياق المفقود في بلاد الغرب، ولكننا لا نجد ردًا عليهم إلا أن نضرب كفًّا بكف.. كل هذا لأننا ركنّا إلى الدّعة، وضننا على هذا الدين حتى بالبحث والمعرفة؛ فصار هؤلاء أقوياء بباطلهم، ونحن ضعفاء بحقنا.. ولكن لحكمة الله، فباطلهم - وإن بدا هائجًا- فإنه في النهاية لا أصل له، وما إن يظهر الحق؛ فلا يلبث أن يدمغه فيصير الباطل زبدًا رابيًا يحتمله السيل؛ ولذلك تجد من كان على باطل دومًا ذا صوت عالٍ، وعروق نافرة، ويأتي بحركات عصبية أثناء حديثه -إلا إذا كان مدرَّبًا على التحكم في نفسه-، وذلك يحدث لسبب بسيط وهو أن هذا الإنسان قد أيقن في اللاوعي أن حجته ضعيفة فعوَّض عن هذا لا إراديًّا بعلو الصوت، والغضب خوفًا من أن يكشف الناس ضعف حجته..

إذن فالذي يتبع الحق مُؤيد من الله، وقوانين الكون كلها تجعل الغلبة له حتى ولو بعد حين، فالعاقبة بالنهاية.. وما فائدة بضع سنين من الدعة، والاستمتاع بالباطل وأنت تعلم أن الحق لا بد دامغه، وأيُّ أمن تحس إن كنت لا تدري في أي وقت سينتقم الله للحق، وإلى متى سيتركك تتمادى في غيِّك؟..

والسيرة مليئة بأمثلة عديدة لعاقبة الثبات على الحق نذكر منها قصة سُراقة، وسوار كسرى.. وتتلخص في أن (سراقة بن مالك المدلجي) -وكان حينئذ مشركًا- أدرك النبيَّ ﷺ مهاجرًا، وكان يطمع في جائزة قريش، فساخت قدما فرسه في الأرض، فكتب له النبيّ ﷺ

كتابَ أمان، ووعده بأن يلبس يومًا سوار كسرى، فتحقّق له ذلك في زمن الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

ويكفي لمن ثبت على الحق أن يكون في معيّة الله، مستأنسًا بقربه في كل قوله وفعله، وما أعظمه من جزاء يناله الإنسان في الدنيا قبل الآخرة، ولايعلمه إلا من ذاقه، حتى أن بعض العارفين كانوا يتمنّون ألا يذهب الله عنهم البلاء لما ذاقوه من رحمة الله فيه، ولما يخبئه الله لهم من أجر أعظم..

الجدال لإظهار الحق محمود

قد يبرر البعض اعتزالهم الدفاع عن الحق بأنهم لايريدون الدخول في جدال، ومراء لا طائل منه، وهذا حق إن كان من يجادلون مُرائيًا، وكل مبتغاه الجدال فقط لا إظهار الحق.. إلا أن الإنسان المسلم مطالب بأن يكون ذكيًّا فطنًا حاضر الذهن ذا حجة ومنطق، ألم يقل الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥) بل إن الفقهاء أجازوا الجدل في الحرام إن كان لأجل الحق فقالوا: «ومن جادل في طلب حق له، فقد دعا إلى سبيل ربه تعالى، وسعى في إظهار الحق، والمنع من الباطل، وهكذا كل من جادل في حق لغيره، أو لله تعالى»..

وهذا بالطبع مع مراعاة التمييز بين من يجادل طلبًا للحق، وبين المرائي الذي لايبغي إلا تبديد وقتك، وطاقتك في جدال لايجدي، وهؤلاء يجب الإعراض عنهم مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٣)..

يقول الدكتور أحمد بن عبد الرحمن الرشيد (عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) في التفرقة بين الجدال، والمراء: «المراء المنهي عنه طعن الإنسان في كلام غيره لإظهار خلله، واضطرابه لغير غرض سوى تحقير قائله، وإظهار مزيّته عليه؛ وإن كان المماري على حق، فإنه لايجوز له أن يسلك هذا السبيل؛ لأنه لايقصد من ورائه إلا تحقير غيره، والانتصار عليه..

أما الجدال فهو من الجدل، والجدل في اللغة: اللدد في الخصومة، والقدرة عليها؛ وحقيقة الجدل في الاصطلاح الشرعي: فتل الخصم ورده بالكلام عن قصده الباطل، وهو مأمور به على وجه الإنصاف وإظهار الحق»..

ضرورة نصرة الحق

إن من تكاليف المؤمن العاقل أن ينصر الحق أينما وجد، ويتضح ذلك في توجيه الله ﷻ للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨).

ومن العدل نصرة الحق، فلا يظلم الواحد منا أحدًا بقول، أو فعل حتى ولو كان الحق مع من نبغضه، فالمؤمن مأمور بالقسط مع الولي، والعدو على حد سواء..

يقول الشيخ الغزالي في كتابه خلق المسلم (ص ١٦٠): «وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين، لا تناصر العصبيّات العمياء، بل تناصر المؤمنين الصالحين لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وردع المعتدي، وإجارة المهضوم».. ويقول الرسول ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَو مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجلٌ: يَا رَسولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ» (أخرجه أحمد، والبُخَارِي).

ومن الظلم الترويج للباطل، وإضعاف الحق، ومن الظلم -أيضًا- أن نترك -بجهلنا- الباطل يطغى، والآراء المخطئة تستشري، الأمر الذي يؤدي إلى إضاعة الحق، أو على الأقل مماهاته؛ ولذلك علينا أن ننصر الحق بالعلم، والحجة، ونشر الحقيقة لا بـ(مصمصة الشفاه)، وضرب الأكف، ثم السكوت عنه.. وكم من مرة نجد الواحد منا يتعصب لرأي تعصبًا أعمى لا لشيء إلا لأن هذا الرأي هو ما رأى أهله أو عشيرته، فما أحب مخالفتهم.. وهذا بالضبط ما ينهي عنه الحديث، ويوضحه الشيخ الغزالي ألا وهو إن كان الظالم أخاك فعليك نصرته بدفعه عن ارتكاب الظلم.. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقفَنَّ أحدُكُم موقفًا يُضرَب فيه رجلٌ سوطًا ظلمًا؛ فإن اللعنة تنزل على من حضره حيث لم يدَفِعُوا عنه»؛ فما بالنا بأناس يبررون، ويشجعون هذا الظلم كي يريحوا ضمائرهم المرهقة.. وروي عن النبي الكريم ﷺ: «من مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ لِيُعِينَهُ على مَظْلَمَتِه؛ ثبَّتَ الله قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَومَ القِيَامَةِ يَومَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ، وَمَنْ مَشَى مَع ظَالِمٍ لِيُعِينَهُ عَلَى ظُلْمِهِ أَزَلَّ الله قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَومَ تَدحَضُ فِيه الأَقْدَامُ».

أَوَبعد كل هذا يسكت الواحد منا عن الحق؟! ولا أقول ينصره بفعل، ولكن بقول، أو حتى رأي، وفكرة هل هذا بكثير؟!

ولكن.. إن كان عليّ أن أتبع الحق لأنه الشاهد الوحيد على إنسانيتي، والشيء الذي يرقيني إلى درجة العبودية الحقة، فلماذا يتبع غيري الباطل؟

ما يمنعهم أن يروا ما أرى بوضوح، ما الذي يحجب رؤيتهم، وما الذي قتل فطرة الحق بداخلهم؟

عقبات أمام الوصول إلى الحق

من السذاجة أن يتصوّر الواحد منا أن كل مَنْ بهذا الكون يطلبون الحق.. قد تجد أمامك إنسانًا يبدو مخلصًا جدًّا فيما يدعو إليه، حتى أنه يكاد يقنعك أن ما يقوله حق، ولكن ما أدراك إلى من، أو إلى ماذا هو مخلص؟ أهو مخلص للحق؟ أم هو مخلص لذاته؟ أهو في سعي دائم لإثبات رأيه، وتحصيل نفعه؟ أهو مخلص ولكنه مغيّب عن الحقيقة ومن ثم مخلص في الباطل؟ أم أنه اختار الباطل دون الحق؛ لأن ديدنه الوحيد هو نفعه دون الآخرين؟...

يجب أن نسأل أنفسنا دومًا هذه الأسئلة، وألا نفترض لأي سبب أن كل من حولنا يريدون الحق.. لا بد وأن نعلم أن من سُنة الله في هذا الكون أنه سيكون هناك أعداء للحق يعبدون غير ما يعبد الناس، فمنهم من يعبد الطاغوت والمال، ومنهم من يعبد السُّلطة والسُّلطان، ولن يعدم هؤلاء السبل كي يمرروا لنا باطلهم بأي السبل كانت، وهي كثيرة ولا تنتهي، فشكل الحق واحد، أما الباطل فله أشكال كثيرة؛ فقد يأتون إليك في صورة إعلام (نزيه)، أو كتاب (محايد)، أو فيلم (مؤثر)...إلخ، والقائمة لا تنتهي..

وليست كل العقبات خارجنا بل إن أساس هذه العقبات داخلي.. يقول الشيخ حمد بن العثمان نقلًا عن الشيخ العلامة المحقق صديق حسن خان: «وإنما يعرف الحق من جمع خمسة أوصاف؛ أعظمها الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها -وهو أقلّها وجودًا، وأكثرها فقدانًا- الحرص على معرفة الحق، وشدة الدعوة إلى ذلك».

وإذا قيّمنا ما يفد إلينا من معلومات بشكلٍ يومي بناء على قيمنا، ومبادئنا، وذاكرتنا، ومعرفتنا؛ فإننا سنقوم بعملية تنقية لكل ما يدخل أدمغتنا، فلا يبقى إلا ما هو حق؛ أما الغث فيصير كالزبد تجرفه المياه..

ولكن حقيقة الأمر أننا قلمّا نفعل ذلك لستة أسباب سنتناولها بالتفصيل في الصفحات القادمة:

١ – عدم التفكّر، واتباع هوى النفس..

إن أولى، وأخطر العقبات التي تقف في طريق وصول الإنسان إلى الحق هي عدم رغبته الداخلية في التفكير لأجل الوصول إلى الحق، وكأن عقله الباطن يعلم -داخليًّا- أنه لو فكّر في الوصول إليه، ومن ثم تحمّل تبعات العمل به؛ فسيلجأ -تلقائيًّا- وكوسيلة للدفاع إلى إغلاق تفكيره عنه.. وهكذا تجد الواحد من هؤلاء يقوم بفعل، أو يقول قولًا.. الباطل فيه بَيِّن، حتى أنك قد تتساءل كيف يستطيع أن يتحمل التعايش مع هذا الخطأ الواضح في القول، أو التصرف، والإجابة على هذا: إن هذا الشخص قد اختار أن يغلق عقله، وضميره بالتبعية كي يعيش مرتاح البال..

وكثيرًا ما قد تناقش إنسانًا في أمر خطأ يفعله؛ فتجده يقول لك: «دعني، لا أريد أن أفكّر في الأمر»، وذلك لأنه يريد أن يتبع هواه، ولأنه قد وجد راحتَه، واستمتاعًا بما يفعل فلا يستطيع التخلّي عن هذا الفعل؛ لأن فطرته حدثته أنه لو تفكر في الأمر لوصل إلى الحق مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩)..

ويرجع ذلك إلى أن فطرة الإنسان غالبًا ما ترى الحق إن توافرت لها الحقائق، وأعمل الإنسان فكره: أي وفّر لها العقلُ الأفكارَ، ووفرت لها الحواسُّ الحقائقَ؛ لذلك يلجأ الإنسان في بعض الأحيان -إن أحس أنه مخطئ- إلى أن يحجب عن هذه الفطرة معطيات العقل، والحواس، فيرفض أن يرى، ويسمع الحقائق، ومن ثم يرفض أن يفكّر؛ وهؤلاء يصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

وقد وصف الله تعالى حال الإنسان مع نفسه في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٩ -١٠).

إذن، فالاختيار بيد الإنسان؛ إما التزكية، أو التدسية (أي التحقير) حين يختار الإنسان أن يحبو في أوحال أفكار الآخرين، لا أن يحلّق بعقله في آفاق فكره الخاص..

وما سبق هو رفض داخلي قد يأتي به الإنسان بغير وعي، وهناك نوعٌ آخر -وهو الأعمّ- يعرف فيه الإنسان أنه على باطل، ولكنه يختار البقاء على ما هو عليه؛ لأنه يضمن له الأمان من بطش السلطة، ومخالفة العُرف.

قيمة التفكر

على الواحد منا أن يعلم أن التفكر ليس فضلًا منه، ولكنه واجب على المؤمنين جميعًا عرفانًا بقيمة العقل الذي حباهم به الله.. يقول الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الروم: ٨).

إذن، فالتفكر هو سبيل الوصول إلى الحق، ومن ثم كان واجبًا.. ومنزلة التفكر في القرآن الكريم جليّة في قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١)، ولو تأمّلنا في معني الآيتين السابقتين؛ لوجدنا أن التفكر دائمًا يقود إلى الحق، ففي الآية الأولى يؤدي التفكر في النفس إلى الإقرار بالحق، وفي الآية الثانية يؤدي التفكر في خلق السماوات والأرض إلى نبذ الباطل، ونبذ الاعتقاد بأن يكون الله قد خلق هذا الكون عبثًا.. ويقول الدكتور (راتب النابلسي) في معرض حديثه عن التفكّر: « التفكّر تفكّران؛ تفكُّرٌ يتعلق بالعلم،

والمعرفة؛ وتفكّرٌ يتعلق بالطلب، والإرادة.. فالتفكُّر الذي يتعلق بالعلم، والمعرفة تفكُّر التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي؛ والتفكُّر الذي يتعلّق بالإرادة، والطلب هو التفكُّر الذي يميز بين النافع والضار».. لذلك كان العلم، والمعرفة وما يتبعهما من تفكّرٍ هما أول خطوة يخطوها الواحد منا على طريق الوصول إلى الحق..

٢ - كي نريح ضمائرنا

لا بد أن نعترف أن الحقيقة غالبًا ما تؤلم، وما الأباطيل إلا مجموعة من المعاذير تجمّل القبيح من الأمور.. ومَنْ مِنّا لا يصبو إلى راحة البال والاستمتاع بفكرة أن كل شيء على ما يرام، وأن كل مَن فعل ما فعل، فإنما كان فعله مبررًا بسببٍ نبيل، وبذلك تقبل عقولنا ما لا يُقبل، وتتقبل قلوبنا أمورًا لا تُستوعب في حجم الظلم بداخلها.. إني أعجب في بعض الأحيان من أناس يظنّون أنهم إن فعلوا هذا بوعي، أو بغير وعي فإنهم غير مجازين بجهلهم، وضعف معرفتهم، ومن ثم بقبولهم للباطل.. يخلق الواحد منهم واقعًا افتراضيًّا جميلًا حيث كل ما يصله عبر الشاشة، أو من خلال الصُّحف هو لا بد صحيح، ومن ثم يبني كل معتقداته، وأفكاره على هذه الأسانيد من الباطل، ثم يظن بعد ذلك أنه إن كان قد أخطأ في تصديقه الباطل فإنه غير مجازى، من قال هذا؟! أو لم يضع الله في رؤوسنا عقولًا قادرة على أعقد عمليات القياس، والتحليل، ولديها قدرة هائلة على الاستيعاب، وذاكرة تستوعب ملايين الذكريات، والمعلومات، فأين هذا من إنسان لايملك من رأسه إلا عينين، وفمًا ولسانًا؟! وقد سبق أن بيَّنَّا ذلك في باب (لماذا نتبع الحق).

وقد يكون حجم الضرر أقل حين يحتفظ الواحد منا بجهله لنفسه، ولكن المفجع في الأمر أن البعض من هؤلاء يخرج على الناس ليردد كالببغاء ما يسمع من الأباطيل موسعًا بذلك دائرة الباطل، بل ومضفيًا عليها ثقله الإنساني لدى أصدقائه، ومعارفه مما يدعوهم إلى

تصديق هذا الباطل، بل وتأكيده في نفوسهم.. وهل يفعل الواحد منا ذلك، ويُبتَلى المجتمع بجهله، وضعف إرادته في البحث عن الحق، ثم يظن بعد هذا كله أنه غير مجازى؟!

ولعل من أكبر موانع قبول الحق ما ذكره (عباس محمود العقاد) في كتابه القيّم (التفكير فريضة إسلامية): «أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعرف، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية، والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية»..

وهكذا ولكي يبرر الواحد منا لنفسه عجزه عن مواجهة المجتمع، والسلطة؛ يلجأ إلى تخدير ضميره، وتصديق الروايات الرسمية حتى وإن بدت مفرطة في السذاجة، حتى وإن تكررت بعد كشف زيفها، فهو لم يصدقها في بادئ الأمر، إلا أنه اختار أن يصدقها، كي لا يضطر للتصرف بمقتضى ما عرف من الحق.. وهذا والله غفلة منا، وكِبْرٌ إذ ظننا أن الله لا يطّلع على سرائرنا، ولا يعلم ما تحدثنا به خبايا نفوسنا..

بل ولا يقف الأمر عند تصديق الروايات الرسمية، بل بلغ بالبعض أنهم صاروا يلبسون تخاذلهم عن نصرة الحق ثوب الدين، فأذكر أني سمعت أحد هؤلاء يبرر لنفسه تأخّر المسلمين، وتقدم الغرب ومن ثم تخاذله عن المشاركة في النهضة بأنه قد ورد في الأثر أن المسلمين سيحاربون أعداء الله في نهاية الزمان على ظهور الخيول، وأن سلاحهم سيكون الرماح، ومن ثم لن ينفع الغرب أي قدر مما بلغوه من التكنولوجيا، وهذا وربي إن كان صحيحًا فإنه قول حق يراد به باطل؛ فحتى إن كان المسلمون سيحاربون على صهوة الخيول، وبأيديهم رماح؛ أليس هذا أدعى أن نُعِدَّ لأعدائنا ما أستطعنا من قوة، وبعدها لعل الله يعطينا في الرماح قوة القنابل، والدبابات؛ ولكن مَنْ قال إن الله ينصر المتخاذلين المتواكلين ممن ينتظرون المهدي، ويلقون باللائمة على كل شيء إلا أنفسهم؟ وكي يستطيعون التعايش مع أنفسهم؛ يرددون مثل هذه الأقوال كي يبرروا الضعف المخزي، والخذلان الذي استشرى بجسد الأمة بأيدينا،

وللأسف هذه هي حال كثيرين ممن اختاروا تعطيل عقولهم، واختاروا أن يعيشوا في الظلام على أن يستضيئوا بنور الحق كي ينعموا وهم في الشقاء، وياليته نعيم مقيم، ولكنه نعيم مؤقت، بل هو مهدد، لاسكينة فيه؛ لأنه مبنيٌّ على شفا جُرفٍ هارٍ ألا وهو غبن الحق..

٣-غياب المبادئ، والقيم، والمعرفة السطحية بالدين

بالرغم من الصحوة الدينية -ولا أقول بالضرورة الأخلاقية- التي شهدناها في العالم العربي، والإسلامي في العقد الماضي، إلا أن هذا لم يكن كافيًا لنرى بالضرورة ازديادًا في المعرفة، وتناقصًا في الجهل، وضحالة الفكر فيما يتعلّق بأمور الأمة.. ففي الوقت الذي حرصت فيه الأغلبية من النساء على ارتداء الزي الإسلامي، وواظب فيه الشباب على أداء الصلوات، وحتى النوافل منها -وهذا طيب والحمد لله- إلا أننا نجد أن ذلك -للأسف- لم يصاحبه سعي حقيقي لفهم مبادئ العقيدة الغرَّاء التي تهتم بعقل الإنسان، وتدعو إلى عدم تغييبه، كما تدعو إلى التساؤل، والتفكّر، وعدم أخذ الأمور كمسلّمات لا تقبل الجدل.. لم يصحب هذه الصحوة الشكلية صحوة قلبية يسعى فيها الإنسان إلى إحقاق الحق ولو على حساب مصلحته الشخصية، فيكون فيها الحق محرِّكًا لكل أفعال الإنسان، والمعيار لكل قراراته.. وهكذا صار الحال كما يصفه الشيخ محمد الغزالي في كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه، وأهل الحديث) قائلًا: «لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية؛ فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعًا، أو جذورًا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقًا تتساقط مع الرياح!».

ومن المحزن ما نراه كثيرًا في الشباب حديثي التدين حيث تدفعهم عاطفتهم تجاه الدين إلى محاولة الاغتراف منه في كل مناحي حياتهم دفعة واحدة، وهذه همة تُحمَد لهم، إلا أنهم -لعجلتهم، وضعف إرادتهم- لا يستطيعون أن يحيطوا بكل شيء دفعة واحدة، فينتهي بهم

الأمر أن يتمسكوا ببعض الأمور السطحية التي عرفوها في البداية، ويكتفون بها، ويتشددون فيها، وكأنها لب الدين كفقه الطهارة، والخلافات الفقهية في الصلاة؛ كالخلاف في قراءة الفاتحة بعد الإمام أم أن قراءة الإمام تجزي، وخلافها من الخلافات التي لا تنتهي.. بل ويصل الأمر بالبعض أنهم كي يبرروا تخاذلهم عن نصرة الحق، ورضاهم بهذه الصورة المبتسرة من الدين؛ يَسِمون الآخرين ممن اختاروا أن يلتزموا دينيًّا مع المشاركة في الحياة العامة (سياسية كانت، أو دعوية) بالخروج عن صحيح الدين؛ فيحرِّمون مثلًا المظاهرات، ويعتبرونها خروجًا عن الطاعة، وكأن السكوت عن الظلم من الدين، ويمنعون المرأة المشاركةَ في الحياة العامة، ولو بضوابط الاختلاط (سدًّا للذرائع)، مع أنها كانت تخرج، وتشارك في عهد الرسول ﷺ، والحوادث أكثر من أن تكون حالات تخصيص، وغير هذا الكثير مما يبررون به عدم رغبتهم في التغيير ومن ثم التحسن، وهؤلاء هم من يصفهم الرسول ﷺ بالمتنطعين في قوله: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا» أخرجه مسلم، وأبو داود.

وصورة أخرى من صور هذه المعرفة السطحية أننا نجد كثيرًا من حديثي الالتزام بالدين يتحمّسون في بادئ الأمر لطلب العلم، فيحفظون بعض الآيات، والأحاديث، ثم لايلبثون أن يظنّوا أنهم قد علموا؛ فيتركون العلم، ويكتفون بما تعلّموا، ويرددونه مرارًا وتكرارًا، وهو الشيء الذي يضمن لهم المحافظة على الواجهة الدينية التي اتخذوها، والتي تقوم بدور الدرع الواقي لهم، فمظهرهم الخارجي وقور، وعليه سمت التديّن الذي يجعل الآخرين يتهيّبون انتقادهم، أو مساءلتهم.. بل إن هذا المظهر في بعض الأحيان يعطيهم دور العارف بالأمور الذي يلجأ إليه الغير للنصيحة لما يظن أنهم يمثّلونه بمظهرهم الخارجي، في الوقت الذي لايمتلكون فيه بداخلهم مقياسًا واضحًا للحق، أو معلومات كافية يفتون بها.. وهؤلاء الذين يصفهم الشيخ الغزالي في قوله: «إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويُدرسونه

يوم الأحد، ويعملون أساتذة له يوم الإثنين.. أما يوم الثلاثاء، فيطاولون الأئمة الكبار، ويقولون: نحن رجال وهم رجال».

وقد أورد الدكتور (حمد بن العثمان) «الجهل كسبب رئيس لصرف الإنسان عن الحق» مستشهدًا بقول ابن القيم: «إنّ من جهل شيئًا عاداه، وعادى أهله»، وهذا هو الحال للأسف في الكثير من القضايا الحيوية التي تواجه الأمة، كقضايا فلسطين، والعراق، ولبنان، واستبداد الحكومات...وغيرها من القضايا التي ابتُلي بها الوطن العربي الإسلامي.. فمثلًا بسبب جهل العامة بالقضية الفلسطينية صاروا يوجّهون الملام إلى الطرف الضحيّة، وهم الفلسطينيون (وهذا لتخدير ضمائرهم كما سبق أن أشرنا) مع الإغفال التام لهذا العدو الصهيوني، وأفاعيله بهذا الشعب البطل، وبالدول المجاورة جميعًا؛ فيعيبون على الشعب الفلسطيني خيار المقاومة، وعدم الركون إلى الاستسلام كما فعلت بعض الدول المجاورة، متناسين أن هذا الشعب يقف أمام احتلال غاشم، فإما مقاومة وإما خنوع..

يقول النفري: «العلم المستقر هو الجهل المستمر» فلا يفتأ الواحد منا يردد ما تعلم دون أن يطلب المزيد، ومن ثم يظل جاهلًا بالكثير.. والوقت الذي يظن فيه الواحد منا أنه قد علم يكون قد جهل مصداقًا لقول الشافعي:

كلما أدبني الدهر ... أراني ضعف عقلي

وإذا ما ازددت علمًا ... زادني علمًا بجهلي

٤- ضعف الذاكرة

كثيرًا ما يعتمد الباطل على ضعف ذاكرتنا، وكثيرًا ما قد ينجح في تمرير نفس الأباطيل لا لشيء إلا لأننا لانتبع التوجيه النبوي الشريف «لا يُلدَغُ المؤمن من جحرٍ مرّتين»؛ بل نحن لا نلدغ من الجحر مرة واحدة، بل مئات المرات بسبب ضعف ذاكرتنا، وضعف حميتنا لإظهار

الحق، وكل ذلك يعود إلى مرض اللامبالاة الذي استشرى بيننا، والذي يكاد يذكرني بقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧)، ونرجو ألا نكون قد وصلنا إلى هذه المرحلة من القنوط؛ فنفقد بذلك كل شيء.. يقال إن التاريخ يعيد نفسه، ربما لأن هناك سُننًا كونية تحكم سير الأحداث، وتطوّرها، وربما لأن المحرك لذات الأحداث التاريخية هو ذات الإنسان بذات الدوافع، والدخائل، والأطماع.. وأضيف أيضًا أنه كما أن من حركوا أحداث التاريخ سواء بالسلب، أو الايجاب كانوا ومازالوا كما هم، فيبدو أن جموع البشر التي تتأثر، ولا تؤثر مازالت هي الأخري كما هي: تتلقى ولاتفند، تسمع ولاتستنبط، تقرأ ولا تتذكر.. وهكذا ظلت نفس الخدعة تتكرر في التاريخ من الطغاة على المطغي عليهم، من الفاعلين على المفعول بهم، لا لشيء إلا لأنهم عطلوا عقولهم -اللهم إلا الأجزاء المختصة بالحياة كالطعام، والشراب، والنفس- أما ما هو مختص بالتفكير، والذاكرة فقد نام واستراح..

والخطير في الأمر أن وسائل الإعلام الحالية قد صارت تتحكم في حياتنا بشكل مخيف يتيح لها أن توجه تفكيرنا، وذاكرتنا في أي اتجاه أرادت إن سلمنا لها زمام عقولنا.. فبعد ضعف الإقبال على القراءة من قبل عامة الناس، وركونهم إلى الدعة واستثقالهم البحث عن المعرفة، صارت وسائل الإعلام المرئي هي الوسيلة الأساسية التي نحصل من خلالها على الأخبار، ونستقي الآراء، ونعرف عن التاريخ.. والأمر خطير، لأننا لو فكرنا في تكلفة إنشاء مثل هذه المحطات الضخمة؛ لوجدناها تتطلب ميزانية لا يقدر عليها إلا أصحاب الملايين، أو الحكومات، الأمر الذي يضع التاريخ والحاضر بأيدي فئة معينة لا تخفى على أي منا دوافعها، وهي إما السلطة، أو المال...

والأمر جد خطير لأن هذه الوسائل قد صارت المتحكم الرئيس بالأحداث، ليقينها من أننا قد صرنا مشلولي التفكير، لا نستطيع فكاكًا من براثنها، فصارت تختار ما تعرض من

الحقائق، وتحجب البعض الآخر.. وصارت تضخم ما تشاء من الأحداث، وتتجاهل البعض الآخر، وللعلم فإن تغييب جزء من الحقيقة يعتبر -أخلاقيًا- كذبًا لأنه يعطي صورة خاطئة عن وقائع الأمور.. ونجد هذا واضحًا أشد الوضوح في الإعلام الأميركي، وإعلام الحكومات الشمولية في بعض الدول العربية، فتجدهم يعرضون أمورًا معينة لاتترك أمام المشاهد إلا أن يتبنى خطًا فكريًا محددًا، ومرسومًا مسبقًا، يخدم أجندتهم السياسية، أو مصالحهم الاقتصادية التي صارت وكأنها شيء واحد في زمن صارت فيه الحكومات المتحكم في كل شيء، وذلك لأمر بسيط وهو أن هذا المشاهد المتلقي لم يبحث لنفسه عن مصدر آخر للمعرفة، واختار أن يكون عبدًا لما يقدمون من آراء.. وهذا ما يؤكده أ.د.علي أسعد وطفة (كلية التربية - جامعة الكويت) في بحثه عن (توظيف وقت الفراغ عند الشباب في سوريا):

«لقد أصبحت وسائل الإعلام - وفي طليعتها التلفاز - اليوم قادرة على مصادرة جوانب الإبداع، والفعل عند الإنسان، وذلك على الرغم من المساهمة الثقافية الإيجابية في بعض الجوانب، والميادين التي تتعلق بالبرامج الثقافية، والتعليمية، والثقافة حتى الإيجابية منها تقدم للمشاهد، والمستمع معارف ممضوغة، وجاهزة لا يبذل فيها المشاهد، أو المستمع أي جهد، وليس له أية مبادرة؛ فالإنسان في حالة استسلام، وسلبية دائمين عندما يتعلّق الأمر بمشاهدة نص تلفزيوني، أو رسالة إذاعية، والخطر كل الخطر يكمن عندما تأخذ هذه الأدوات مكان بعض النشاطات، والفعاليات العقلية، والذهنية، والجسدية التي تتيح للفرد زمام المبادرة في التفكير، وفي النقد، وفي تطوير الإمكانات الذاتية، والروحية.. لقد أبدى علماء الاجتماع، والتربية خوفهم من السرطان الإعلامي الذي يضع الإنسان في دائرة الجمود، والسلبية بعيدًا عن إمكانات الفعل والمبادرة، ويرى التربويون أن وسائل الإعلام قد بدأت تنافس الأسرة، والمدرسة في عملية التربية، وفي تشكيل الشباب روحيًا، وعقليًا وفي ذلك خطر وأي خطر؛

فالوقت الطويل الذي يقضيه الشباب، والناشئة، والأطفال أمام الشاشة الصغيرة يشكّل فصلًا دراميًّا من فصول حياتهم اليومية، وهذا الإدمان يشكّل خطرًا على عقولهم».

والأمر خطير لأن المشاهد من هؤلاء صار يستقي معلوماته التاريخية من هذه المصادر الإعلامية فحسب، وهذا بدوره مخيف لأنه في هذه الحالة تستطيع هذه الوسائل الإعلامية – التي غالبًا ما تكون فاقدة للمصداقية، والحيادية – أن تخفي من وقائع التاريخ ما تخفي، وتضيف ما تضيف، وتحرّف ما تشاء لأنها على يقين أن هذا المشاهد (العبد) لن يكلف نفسه البحث من ورائها، أو حتى التشكيك في معلوماتها..

ولكن الأمر – بفضل الله – ليس بهذه السوداوية على طول الخط، فمع وجود قنوات إعلامية ذات أجندة محددة إلا أنها تتفاوت في مدى التزامها بها، والحث عليها، كما أن تنوّع، وانتشار المحطات الفضائية – حتي صارت تتعدى المئات – أصبح يعطي المشاهد خيارات كثيرة، وينمي داخله القدرة على النقد، واستنباط الحقائق.. ولكني مازلت أؤكد أنه يجب على الواحد منا أن يعدد من مصادر معرفته حتى وإن كان واثقًا ثقة تامة من مصداقية مصدره، فإن الاطلاع على وجهات النظر الأخرى يجعلك تتثبت من موقفك؛ فتقويه إن كنت على صواب، أو تراجعه إن كنت قد حِدتَ عن الصواب..

وأسلوب الاعتماد على ذاكرة الشعوب الضعيفة نراه يتكرر مرارًا، وتكرارًا في تصريحات الحكومات، ووعود مرشحي الانتخابات، ونراه يتكرر مع كل معاهدة سلام تُخَطُّ مع عدو لايعرف للرحمة معنًى، ولا سبيلًا.. فننسى أن من تسول له نفسه أن يقترف المذابح البشعة في حق أطفال أبرياء لايمكن أن يؤتمن بعد ذلك أبدًا على سلامتنا، وأماننا.. ضعف الذاكرة يظهر في أميركا التي تدعي حماية العالم من الإرهاب، وكأنها الضحية، وقد جعلتنا ننسى – بأطعمتها السريعة، وأفلامها السينمائية – أنها من أكبر مصدّري الإرهاب في العالم.. كيف

يمكن للعالم أن ينسى أن دولة كأميركا ألقت قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما، ونجازاكي فمحتهما من على وجه الأرض، أنها لم تكتف بالقتل، والتدمير بل لجأت إلى أبشع أنواع الحرق: الحرق الذري حيث يتلاشي الجلد، ويتحوّل إلى ذرّات في ثوان.. إنها لم تقتل جيلًا واحدًا فقط، بل قتلت أجيالًا عدة تالية ممن عانوا من آثار الإشعاع في صورة أطفال مشوّهة، وطعام ملوّث.. أوَليست ذاكرتنا ضعيفة بحق؟!

أوليست ذاكرتنا ضعيفة حين ننسى أن أميركا كانت المحرّك الرئيسي لمعظم حركات القمع، والانقلابات في أميركا الجنوبية كتشيلي، وجواتيمالا، ونيكاراجوا، وبنما.. وكل ذلك من أموال دافعي الضرائب الأميركية (الذين غيبت عقولهم كذلك، ولم يتساءلوا أين تذهب أموالهم؟).. وهل نسينا قنابل النابالم الحارقة التي لم تدخر أميركا جهدًا في إلقائها على قرى فيتنام الفقيرة في الستينيات.. أفلا نتذكر -بألم- أكثر من مليون عراقي قد محتهم القنابل الأميركية من على وجه الأرض؟!.. ثم نعود، ونطلب من أميركا بألسنتنا أن تأتي إلى أراضينا لتحمينا ممن هم على نفس ديننا، أو ممن ينتمون إلى عروبتنا.. هل هذا ضعف ذاكرة، أم تغافل، أم فقدان لمعنى الانتماء؟! دعونا نحيي ذكرانا، ونتذكر كيف أن بعض الملوك في تاريخنا الإسلامي استعانوا، أو أعانوا الصليبيين المغتصبين على إخوانهم سعيًا وراء سلطة، أو مال، وكأن الصليبيين سيساعدونهم لوجه الله، وأنهم لن يطلبوا شيئًا في المقابل كأرضٍ من أراضي المسلمين، أو جزء من ثرواتهم؛ ثم انظروا -الآن- إلى العراق، وأفغانستان، بيد من هما؟ من سلَّمهم مقاليد الأمور فى هذه البلاد؟ أليست بلادًا مجاورة لهم أدارت وجوهها، وطلبت إلى أميركا أن تنهي مهمتها بسرعة لأن المشهد قد يكون مؤلمًا بعض الشيء على شعوبها؟! هل نسينا عزة (العز بن عبد السلام) حين غضب على (الصالح إسماعيل) لموالاته الصليبيين ضد ابن أخيه، وحاكم مصر (الصالح نجم الدين أيوب)، وكيف خطب في الناس حينها، وأفتى

بحرمة بيع السلاح للأعداء، وحرمة عقد الصلح معهم؟ وقطع الدعاء للصالح إسماعيل، وتحمل -لأجل شجاعته تلك- السجن، ثم بعد خروجه منه العزل عن الخطابة..

يقول (نورمان سولومان) في مقال بعنوان (الإعلام الأميركي، وثقب الذاكرة): «إن الإعلام السائد قد شطب ما لا يُحصى من الذكريات المؤلمة -على مستوى البلاد، أو المستوى الشخصي- ولو بمجرد التعامل معها على أنها خارج الموضوع، أو أنها أمور عرضية بالمقارنة بالأخبار، والاهتمامات التي تهمهم.. ذلك أن جزءًا من عملهم اليومي: بعضًا من خليط النسيان المنظّم»..

ويستمر سولومان في نقده للإعلام الأميركي مقتبسًا قول الكاتب الكبير (أدولس هكسلي): «إن هدف الحملات الإعلامية (Propaganda campaigns) هو حمل مجموعة من الناس على نسيان مجموعات أخرى من الناس هم عبارة عن بشر».

وتؤكّد على أهمية الذاكرة (تيسا موريس سوزوكي) في كتابها (الماضي بداخلنا): «إن جزءًا من تاريخ التجاهل الذي انتشر في نهاية القرن العشرين أصبح هدفه ليس فقط مراجعة فهمنا للماضي، ولكن خصوصًا محو أحداث معينة من ذاكرة الرأي العام».

وإن أردت دليلًا عمليًّا على هذا؛ افتح أي قناة إخبارية أميركية -ومعظمهم لديه هذا الاتجاه- وستجد لهجة من التعالي تتعامل مع الآخر إما كشيء يجب تدميره، أو كشيء مفيد لهم.. فأي عراقي وطني، أو مقاوم هو إرهابي، بما في ذلك الأطفال، والنساء، والشيوخ.. وتجدهم يتحدثون عن انتصاراتهم العسكرية بفخرٍ، وهي التي تتمثل في إلقاء قنابل (جبانة) على قرًى آمنة لتمحوها من على وجه الأرض، وهو نفس الأسلوب الأميركي في القتال، ألقِ قنبلة وانسَ أمرها، وكأن شيئًا لم يكن، فأنت في طائرتك بمعزلٍ عن الدمار الذي أوقعته، فلم تر الأطفال المحترقة، ولا الأوصال المقطّعة، وبذلك لا يرى المشاهد إلا حربًا نظيفة يتم فيها

ضرب أهداف توصف لهم بالاستراتيجية، وينتج عنها ضخّ المزيد من أموال الشعوب المنهوبة إلى الخزانة الأميركية..

وهم إن تحدثوا – حتي عن حلفائهم في دول أوروبية – تحدثوا بذات اللهجة المتعالية التي تصور مصلحة أميركا، والشعب الأميركي على أنها الأهم، وأن على العالم كلّه أن ينصاع إلى أوامر أميركا لأجل مصلحة الإنسان الأميركي.. ولقد بلغ التعالي بأميركا أن تعللت بمقتل ثلاثة آلاف أميركي ببرج التجارة العالمي لتدمر دولتين إسلاميتين بشعوبهما؛ أفغانستان، والعراق، كما محت هيروشيما، ونجازاكي سابقًا بحجة هجوم اليابان على ميناء بيرل هاربور الأميركي، فأي رسالة تنقلها أميركا إلى العالم؟ أن قيمة الإنسان الأميركي أعلى من قيمة البشر الآخرين!

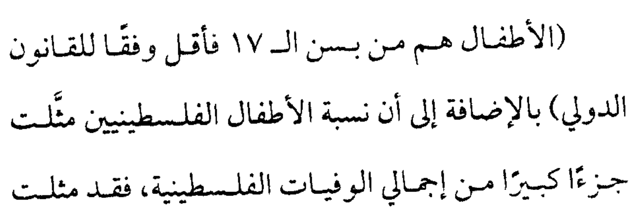
والغريب في الأمر أننا نسمع كل هذا، ونراه رأي العين، ومع ذلك نقع في ذات الأخطاء، ونسقط من ذاكرتنا حوادث قد تعود إلى البارحة.. إن يهود العالم لديهم شعار يقول: (Never forgive never forget) أي (لاتسامح أبدًا، لا تنسَ أبدًا) ولم يُفعل بهم ما فُعل بالعرب، والمسلمين من احتلال، ومذابح، وتشريد، ودمار استمر على مدى مئات الأعوام، فلماذا ننسى، ونغفر نحن ما ليس من حقنا أن نغفره؟!

وفي نهاية هذا الفصل أحب أن أورد بعضًا من الحقائق المذهلة التي اكتشفتها الناشطة الأميركية (أليسون وير) في فلسطين عن الإعلام الأميركي، وكيف يلوي الحقائق كي يبرر أفعال إسرائيل في فلسطين المحتلة بما يسمونه دفاعًا عن النفس.. ولقد أخذت وير على عاتقها أن تنشيء موقعًا على الإنترنت يدعي (لو علم الأميركيون)، وأن تلقي المحاضرات بكل أنحاء أميركا كي تبصر عامة الشعب الأميركي بالمؤامرة التي تمارسها حكومتهم ضدهم كي تكسب أصواتهم، وأموال ضرائبهم..

ولعل من أكثر الحقائق التي أوردتها إثارة للدهشة هي تلك التي توازن فيها بين عدد القتلى الفلسطينيين، وعدد القتلى الإسرائيليين، وكيف أن وسائل الإعلام تُعَدِّل هذه الأرقام، وتحجب الأخبار كي تحرص على إظهار إسرائيل دومًا بمظهر الضحية، وبهذا يطوي النسيان الضحايا الفلسطينيين بعد أن ضاعوا وسط أرقام مموهة.. وقد أوردت بالموقع أن عدد القتلى الإسرائيليين الذين تمت تغطية سقوطهم منذ بدء الانتفاضة الحالية يفوق بثلاث إلى ٤,٤ مرات تغطية سقوط القتلى الفلسطينيين، كما كشفت وير أن شبكات التلفزيون خصصت في عام ٢٠٠٤ مساحة بثّ أكبر للقتلى من الأطفال الإسرائيليين، وذلك بمقدار تسعة أضعاف إلى ١٢,٨ أضعاف مساحة البثّ التي خصصتها للأطفال الفلسطينيين، وأضافت: «لم نتمكن من إيجاد أي مبرر لهذه اللامساواة في المعاملة»..

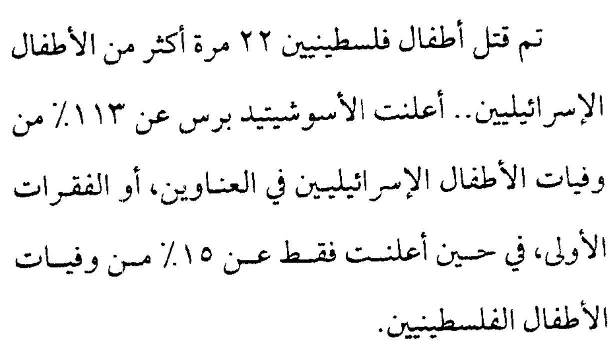
وهذا مثال لما كشفته أليسون وير على موقعها المميز من تحيز وكالة الأسوشيتيد برس لإسرائيل:

تم الإعلان عن تسعة قتلى من الأطفال الإسرائيليين في العناوين، أو الفقرات الأولى للأخبار لوكالة الأسوشيتيد برس فيما يتعلق بالصراع العربي الفلسطيني في عام ٢٠٠٤، في حين أن ثمانية وفيات فقط حدثت.. وفي ذات الفترة تم الإعلان عن ٢٧ فقط من ١٧٩ قتلى من الأطفال الفلسطينيين.



(الأطفال هم من بسن الـ ١٧ فأقل وفقًا للقانون الدولي) بالإضافة إلى أن نسبة الأطفال الفلسطينيين مثَّلت جزءًا كبيرًا من إجمالي الوفيات الفلسطينية، فقد مثلت وفيات الأطفال الفلسطينيين ٢١.٨٪ من إجمالي القتلى الفلسطينيين في حين أن وفيات الأطفال مثلت ٧.٤٪ فقط من قتلى الاسرائيليين في نفس الفترة.

تم قتل أطفال فلسطينيين ٢٢ مرة أكثر من الأطفال الإسرائيليين.. أعلنت الأسوشيتيد برس عن ١١٣٪ من وفيات الأطفال الإسرائيليين في العناوين، أو الفقرات الأولى، في حين أعلنت فقط عن ١٥٪ من وفيات الأطفال الفلسطينيين.



أي أن وفيات الأطفال الإسرائيليين تم تغطيتها بمعدل ٧.٥ مرة أكثر من الفلسطينيين.

وفي نفس التقرير أوردت وير ملخصًا لهذه الحقائق بالأرقام يظهر بشاعة ما مارسته وسائل الإعلام في سنة الدراسة عام ٢٠٠٤، حيث زادت هذه الوسائل الإعلامية من عدد

القتلى الإسرائيليين، وقللت عدد القتلى الفلسطينيين إلى ما يقرب من النصف، وقللت عدد قتلى الأطفال الفلسطينيين إلى السدس.

جدول يمثل نسب القتلى الإسرائيليين إلى الفلسطينيين كما تم تغطيتها في وسائل الإعلام.

2004	Israeli	Palestinian
Actual Number of Deaths (All Ages)	108	821
Deaths Reported	141	543
Percentage of DeathsReported	130.6%	66.1%
Ratio (Israeli % : Palestinian %)	2.0 : 1	
Actual Number of Children's Deaths	8	179
Children's Deaths Reported	9	27
Percentage of Children's Deaths Reported	112.5%	15.1%
Ratio (Israeli % : Palestinian %)	7.5 : 1	

وبعد هذا كلّه مازلنا نعتمد على وسائل الإعلام تلك كمصادر لمعلوماتنا، بل وكمرجع لايقبل الجدال، ونتهم مَن دونها مِن المحطات العربية التي تحاول ممارسة الإعلام بشيء من النزاهة، بالعاطفية وعدم الحيادية، أي عاطفية تلك إن كان عدوك متوحشًا، وأي حاجة للمبالغة إن كان هذا العدو بالفعل مسرفًا في القتل والدمار.. ومن هنا كانت أهمية أن تكون لنا ذاكرة قوية، ومتابعة دائمة للأحداث من كافة المصادر، ومفندة لها، فهؤلاء الضحايا الأبرياء إن تغاضت عنهم وكالات الأنباء الغربية؛ يجب ألا تتغاضى عنهم ذاكراتنا فنكون كما

تنبأ بن جوريون «سيموت الكبار، وينسى الصغار»، بل علينا أن نتذكرهم دومًا في كل مرة نفكر أن نمد أيدينا ليد عدو غادر..

٥- ضعف المعرفة بالتاريخ

وضعف المعرفة بالتاريخ هو أمر ملازم لضعف الذاكرة، ولكنه أشد وطأة، فعلى الأقل أن معرفة الواحد منا بالتاريخ معرفة سليمة تجعله مهيئًا لمعرفة ما قيل قبل ذلك، ومازال يعاد، ويكرر علينا من حجج الباطل، فيستطيع تمييز حيل الباطل المكررة.. ولكن بسبب ضعف المعرفة بالحاضر عامة، وبالماضي خاصة، يمرر أصحاب الباطل ما شاؤوا من الافتراءات لعلمهم أن الغالبية العظمى ممن يسمعونهم، أو يرونهم على الشاشة لن يبحثوا وراءهم في كتب التاريخ عن صحة ما يقولون.. وهناك نوع آخر خفي يستخفي في معلومات عامة يعلمها معظم الناس، ويتخذونها كحقائق مسلّم بها، وأحيانًا تكون من خلال المناهج الدراسية تحوي تفاصيل غير سليمة، أو استنتاجات غير صحيحة، ومن ثم تُحرف الحقائق، ويُوجه الشعور العام للناس في الاتجاه الذي يخدم أغراضهم.. وحجب المعرفة، وتزوير الحقائق أحد أهم الأساليب التي ينتهجها الباطل كي يثبط هممنا عن الثبات على الحق، وطلبه، فمثلًا حين لانعلم مدى ما تتطلّبه المقاومة من جهد، ومثابرة من الشعوب لانستطيع أن نصمد بضع سنين في مواجهة عدوٍ محتل يأسًا من إمكانية الاستقلال، وحين لايعلم الواحد منا، ولايتذكر وعد المؤمنين بالنصر يكون قد قتل ما تبقى له من أمل في الغلبة بالنهاية، وهذا هو غاية مطلب العدو.

ومن أقرب الأمثلة لما تقوم به بعض الأيادي الخبيثة من العبث بالعقول، ما شاع بأن أميركا تحاول تغيير المناهج الدراسية في العالم العربي، والإسلامي لكي تكون مناهج مفصلة على فكر معين يكرس ثقافات التطبيع، والخنوع، والاستسلام، والأمر تعدى حدود الشائعة،

وصار حقيقة واقعة يلمسها أولياء أمور طلاب المدارس، والجامعات من حذف مستمر، وحثيث للآيات القرآنية ليس فقط التي تحث على الجهاد، أو التي تشير من قريب، أو بعيد لبني إسرائيل، وعدم سلامة عهودهم، بل وللآيات القرآنية، والمبادئ الإسلامية بوجه عام في نوع من علمنة، بل وتطبيع التعليم.. وقد بدأ الأمر منذ زمن بإخراج مادة التربية الدينية من المجموع الذي يُقيم به الطالب، وهذا أمر شديد الخطورة، فقد ترتب عليه إلغاء التنافس في هذه المادة، ومن ثم إهمال الطلاب لها، بل واستهزاء بعضهم بها، وتطور الأمر الآن بإقرار مادة للأخلاق كخطوة لإلغاء مادة التربية الدينية كلية، ناهيك عن ضبابية ما يسمى بالأخلاق، فعلى أي مرجعية يستندون؟ أهي أخلاق المادية؟ أم أخلاق اصطنعها البشر؟ أم أخلاق الخنوع التي يريد الأعداء غرسها فى أبنائنا؟.. وإنه لأمر محزن أن تقوم حكوماتنا في سعي مستمر لتقليد الغرب، ونيل رضا أميركا بإلغاء تدريس الدين، وإحلال ما يسمى مادة الأخلاق محله مقلدين بذلك شعوبًا تدرس الأخلاق لا لشيء إلا لأنها لاتعلم لنفسها دينًا، فيصدق عليهم قول الله -تعالى-: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١)، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٨٦).. فبسعي الحكام العرب للبقاء في مناصبهم بدعم، ومباركة أميركا، يفعلون أي شيء مما تطلبه منهم من تعديل للمناهج، وتطبيع التعامل الثقافي، وليس الاقتصادي فقط مع العدو الصهيوني.. ومن أمثلة ما يتم تعديله في المناهج إلغاء كل ما يمت إلى المقاومة، والثورة على الظلم بصلة، مع تكريس ثقافة السلام، والاستسلام بمقالات تزين الهزيمة، والضعف لا النصر والقوة.. ويُذكر أن الوزير المصري فاروق حسني على خلفية ترشيحه لليونسكو قد شارك في حفل تدشين مشروع اليونسكو لإحياء ذكرى محرقة اليهود -المسمى بمشروع علاء الدين-، وأعلن القائمون على المشروع أنه سيتم إتاحة رصيد وثائقي

عبر مواقع على الإنترنت بلغات العالم الإسلامي حول المحرقة، والعلاقات الإسلامية اليهودية.. وإقرار مشروع مثل هذا فيه إغفال تام لما يتم من محارق يومية للشعب الفلسطيني، أَبدلًا من أن نُوَعِّي الشعوب العربية بتاريخ فلسطين، وكيف سُلبت، ومعاناة فلسطينيي اليوم؟ نتباكى على ما يسمي محرقة اليهود! وهكذا يتم تدريجيًّا محو ذاكرة الشعوب، وأجيالها، وتكريس ذكرى حوادث بعينها بغرض تشكيل التاريخ، وتوجيه المستقبل بشكل، واتجاه معين يخدم فئة معينة من البشر دون الأخرى..

ومن الأمثلة المؤلمة على ضعف المعرفة التاريخية، وضعف الذاكرة كذلك، ما انتشر بين بعض العامة -وحتى المثقّفين للأسف- من مقولة «إن الفلسطينيين قد باعوا أرضهم» وهي فرية لا يقبلها العقل، ولا يقرها التاريخ... هي فرية شديدة على أجيال من الشعب الفلسطيني الحر ناضلت من أجل البقاء، ويعلم الله لو كنا مكانهم أكنا صمدنا كما صمدوا؟

ونذكر هذه الفرية بالذات لأنها دليل على غياب المنطق، وقسوة الحكم.. فحتى لو وضعنا جانبًا الحقائق التاريخية، والأرقام، وفكّرنا فيما سمعنا عن المذابح التي ارتُكبت بحق الفلسطينيين في ١٩٤٨، وما قبلها كدير ياسين...وغيرها، أفلا يدعونا هذا إلى التفكير فيما دعا اليهود إلى ارتكاب هذه المذابح إن كان هؤلاء الفلسطينيون قد استسلموا، وتخلّوا عن أراضيهم من البداية! وإن حدث وباع قلة من البشر -وهذه الشرذمة لا بد أنها ممثلة في أي شعب- فهل يُعقل أن الشعب كله قد باع! إن معنى لجوء إسرائيل إلى الإرهاب، والتهجير، واستخدام القوة أن استيطان أرض فلسطين قد تمت أغلبيته بعد ممانعة الفلسطينيين لا بيعهم..

وهذا المنطق توافقه الحقائق التاريخية التي أقل ما توصف به هو بالمؤلمة.. يقول الدكتور (خالد الخالدي) رئيس قسم التاريخ، والآثار بالجامعة الإسلامية بغزة في مقالته (بيع

الفلسطينيين أرضهم لليهود حقيقة أم خيال؟!) ملخِّصًا المؤامرات، والظروف الدولية التي أحاطت بالاستيلاء على أرض فلسطين: «إن الـ ٨.٨ في المائة من مساحة فلسطين، أو الـ ٢ مليون دونم[1] التي وقعت في أيدي اليهود حتى سنة ١٩٤٨م لم يحصل عليها اليهود عن طريق شرائها من فلسطينيين كما يتصوّر حتى الكثير من مثقفينا، بل وصل معظمها إلى اليهود عن طريق الولاة الأتراك الماسونيين، والمنح، والهدايا من الحكومة البريطانية، والشراء من عائلات سورية، ولبنانية، وأنَّ ٣٠٠.٠٠٠ دونمًا فقط اشتريت من فلسطينيين خلال ثلاثين عامًا من السياسات الاقتصادية الظالمة، والضغوط، والمحاولات، والإغراءات، أي أنَّ ١/ ٨ (ثُمن) الأراضي التي حازها اليهود حتى سنة ١٩٤٨م كان مصدرها فلسطينيون، وقد رأينا كيف باعت عائلة لبنانية واحدة ٤٠٠.٠٠٠ دونمًا في لحظة واحدة، وهو أكبر مما باعه فلسطينيون خلال ثلاثين عامًا، وأنَّ هؤلاء قلة شاذة عوقبوا بالنبذ، والقتل».

ومن الأساليب التي استعملها الاستيطان الصهيوني أساليب القتل، والتشريد كما أسلفنا، يقول (عبد الكريم بن حميدة) في مقالة (حركة الاستيطان الصهيوني، وسبل المواجهة) في شرح ما ترتب ديموجرافيًّا على هذه العمليات: «إن اليهود لم يكن عددهم يتجاوز نسبة ٧٪ حتى عام ١٩٢٠، ولم يكونوا يمتلكون سوى ٥.٦ في المائة من أراضي فلسطين، ليأتي قرار التقسيم (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) فيمنحهم ٥٦.٤٪ من فلسطين، غير أن المخطط الصهيوني كان أبعد من ذلك، فتمّ ارتكاب عدد من المذابح مثل دير ياسين، وأخواتها، وهي مذابح كان من نتيجتها أنهم نجحوا في تفريغ البلاد من حوالي ٧٥٠ ألف عربي، وظلت سياسة ترحيل الفلسطينيين، والتطهير العرقي لهم عبر استهداف قرى، ومدن فلسطينية بهجمات إرهابية

---

[1] الدونم: وحدة قياس لمساحة الأرض، ولكن مساحة هذه الوحدة تختلف من مكان إلى آخر، ويعادل في بلاد الشام -سوريا، وفلسطين، ولبنان، والأردن- ١٠٠٠ متر مربع.

شنتها عصابات (الهاجاناه)، و(الأرغون)، و(شتيرن) أثناء الانتداب البريطاني، وبعده عناصر قارة في مخطط الحركة الصهيونية».

ومن الحقائق المثيرة التي وردت بالمقال كذلك أن الاستيطان الصهيوني كان دومًا محكومًا بعقيدة مقتضاها أن حدود دولتهم متحرّكة، ولا يرسمها إلا خط الدبابة، وأورد بعض أقوال زعمائهم في ذلك في قوله: «وقد قال بن غوريون مستشهدًا بالنموذج الأميركي حيث ظلت الحدود متحرّكة لمدة قرنٍ من الزمان حتى تمّت إبادة الهنود الحمر: (نحن كذلك لسنا مجبرين على رسم حدود لدولتنا)، وهو نفس ما عبّر عنه موشي ديان في شهر جويلية ١٩٦٨ عندما قال:(طيلة الـ ١٠٠ سنة الماضية كان شعبنا يبني هذا الوطن، ويوسّعه، ويجلب إليه اليهود، فلا نسمح لأي يهودي بأن يقول بأن العملية انتهت.. لانسمح لأي يهودي بأن يقول إننا في نهاية الطريق)» (٢١).

ومن التفاصيل الأخرى التي تتداخل في مسألة بيع أرض فلسطين ما ذكرته وثيقة تاريخية بالأرشيف القومي السوفيتي عن «السياسة الجائرة للحكومة البريطانية التي تزيد من الضرائب على الفلاحين لضمان سيطرتها على الأرض لصالح أهدافها مع الحركة الصهيونية، وتشرح تفاصيل الحيل المتبعة في هذا الإطار للتمكين من حشد الأراضي في أيدي الصهاينة مع طرد الفلاح، وحرمانه بشكلٍ كامل من الأرض، وحقه في استخدامها».

ولم يتوقف الأمر على القتل، والتشريد، ولكن التاريخ يرصد مقاومة باسلة لا تعود إلى انتفاضة الثمانينيات كما يظن البعض، ولكن إلى عام ١٩٣٦ حيث يحتوي الأرشيف السوفيتي كذلك على تقرير (يرصد التظاهرات الكبيرة ضد بريطانيا بعد تصفيتها الوحشية لمجموعة الثوار الوطنيين أخوة الغاب التابعة للشيخ القسام في يناير عام ١٩٣٦، وتؤكّد أنه على امتداد

خمسة أشهر قاوم العرب الذين لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف شخص -وببطولة- ٢٥ ألف جندي إنجليزي مؤيدين بالدبابات، والطائرات) (٢٢).

يضاف إلى ذلك (أن بريطانيا عندما أخمدت الثورة الفلسطينية قضت على المجتمع الفلسطيني في ذلك الوقت، أولًا: إما اعتقلت، أو قتلت، أو نفت جميع زعماء فلسطين إلى الخارج، ثانيًا: حلت جميع الأحزاب، والجمعيات، ثالثًا: أوقعت عقابًا جماعيًا بجميع القرى، والمدن إلى درجة أن الذي يعتقل ومعه مسدس كان يحكم عليه بالإعدام، والذي كان يحمل سكينًا كان يسجن سجنًا مؤبدًا، وبالتالي في هذا الوقت كان المجتمع الفلسطيني مضعضعًا بالكامل) (سليمان أبو ستة، نفس المصدر).. ولقد أرفقت بنهاية هذا الفصل تقريرًا مفصلًا بمجازر إسرائيل فقط قبل عام ١٩٤٨، كي نعلم كم عانى هذا الشعب قبل أن نسارع بقذفه باتهامات باطلة.

أوَبعد هذا كله يجرؤ الواحد منا على ترديد هذه الفرية لاسيما أننا بعيدون عن أرض الرباط، وينعم معظمنا بالأمان الزائف الذي اشترته لنا بضعة سنين من السلام المهين.. إن حياء المرء قبل عقله لا بد أن يمنعه أن يردد مثل هذا القول، وهو يري ما يتعرض له أبناء الشعب الفلسطيني يوميًا من عمليات قتل، وتشريد مروعة.. فالإنسان حتى لو كان جاهلًا بالتاريخ، فإن الواقع الحالي يجب أن يردعه عن أن يردد مثل هذا القول، والجيل الحالي لم يدخر جهدًا في الصمود، ناهيك عن الأجيال الماضية.. نسأل الله لهم الثبات، وأن يخطّوا على صفحات المجد أروع آيات الصمود، والانتصارات، وأن يرزقنا البصيرة، والهمة كي ننضم إليهم في هذا النضال الذي يجب أن يشمل العالم العربي، والإسلامي كافة لا الفلسطينيين فقط في الصراع لأجل إحقاق الحق، وإزهاق الباطل..

مجازر ما قبل عام ١٩٤٨

١- مجزرة (القدس) - أواخر ديسمبر/ ١٩٣٧م

في أواخر ديسمبر عام ١٩٣٧م، ألقى أحد عناصر تنظيم (الإتسل) الإسرائيلية قنبلة على السوق المجاور لـ (بوابة نابلس) في مدينة (القدس)، مما أدى إلى استشهاد عشرات من المواطنين العرب، وإصابة الكثيرين بجراح.

٢- مجزرة (حيفا) - ٦/ ٣/ ١٩٣٨ م

في السادس من مارس عام ١٩٣٨م، ألقى أعضاء تنظيمي (الإتسل)، و(ليحي) الإسرائيليين قنبلة على سوق (حيفا)؛ مما أدى إلى استشهاد ١٨ مواطنًا عربيًّا، وأصيب ٣٨ آخرين بجراح..

٣. مجزرة (حيفا) - ٦/ ٧/ ١٩٣٨م

في السادس من يوليو عام ١٩٣٨م فجّر أعضاء تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي سيارتين ملغومتين في (سوق حيفا) مما أدى إلى استشهاد ٢١ مواطنًا عربيًا، وجرح ٥٢ آخرين.

٤. مجزرة (القدس) - ١٣/ ٧/ ١٩٣٨م

استشهد١٠ من العرب، وجرح ٣١ آخرون في انفجار مروع في السوق العربي في (القدس القديمة).

٥. مجزرة (القدس) ١٥/ ٧/ ١٩٣٨م

ألقى أحد عناصر تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي قنبلة يدوية أمام أحد مساجد مدينة القدس أثناء خروج المصلين؛ فاستشهد جراء ذلك ١٠ مواطنين، وأصيب ٣٠ آخرون بجروح.

٦ـ مجزرة (حيفا) ٢٥/ ٧/ ١٩٣٨م

انفجرت سيارة ملغومة وضعها تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي في السوق العربية في مدينة (حيفا)؛ فاستشهد جرّاء ذلك ٣٥ مواطنًا عربيًا، وجرح ٧٠ آخرون.

٧ـ مجزرة (حيفا) ٢٦/ ٧/ ١٩٣٨م

ألقى أحد عناصر تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي قنبلة يدوية في أحد أسواق (حيفا)؛ فاستشهد جراء ذلك ٤٧ عربيًا.

٨ـ مجزرة (القدس) ٢٦/ ٨/ ١٩٣٨م

انفجرت سيارة ملغومة وضعها أعضاء تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي في سوق (القدس) العربية، فاستشهد جراء الانفجار ٣٤ عربيًا، وجرح ٣٥ آخرون.

٩ـ مجزرة (حيفا) ٢٧/ ٣/ ١٩٣٩م

فجّر أعضاء تنظيم (الإتسل) الإسرائيلي قنبلتين في (حيفا) فاستشهد (٢٧) عربيًا، وجرح (٣٩) آخرون.

١٠ـ مجزرة (بلد الشيخ) ١٢/ ٦/ ١٩٣٩م

بلد الشيخ، قرية عربية فلسطينية، في الجنوب الشرقي من مدينة (حيفا).. كان عدد سكانها عام ١٩٤٥م (٤١٢٠) نسمة، ومساحتها (٢٢١) ألف متر مربع، ومساحة أراضيها (٩٨٤٩) ألف متر مربع.

في الثاني عشر من يونيه عام ١٩٣٩م هاجم تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي بلد الشيخ، واختطف خمسة من سكانها، ثم قتلهم.

١١ـ مجزرة (حيفا) ١٩/ ٦/ ١٩٣٩م

ألقى الإسرائيليون قنبلة يدوية في أحد أسواق مدينة (حيفا) فاستشهد ٩ أشخاص من العرب، وجرح ٤ آخرون.

١٢ـ مجزرة (حيفا) ٢٠/ ٦/ ١٩٤٧م

استشهد (٧٨) عربيًّا، وجرح (٢٤) آخرون أثناء انفجار قنبلة في سوق الخضراوات في مدينة (حيفا)، وكانت هذه القنبلة قد وضعت داخل أحد صناديق الخضراوات المموّهة، وكان تنظيما (الإتسل)، و(ليحي) الإسرائيليان قد دبرا وضع هذه القنبلة..

١٣ـ مجزرة (العباسية) ١٣/ ١٢/ ١٩٤٧م

العباسية قرية عربية فلسطينية تبعد عن مدينة (يافا) ١٣كيلو مترًا شرقًا.. بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ (٦٥٠) نسمة.. مساحتها (١٠١) ألف متر مربع.. ومساحة أراضيها (٢٠٥٤٠) ألف متر مربع.

المجزرة في يوم السبت ١٣/ ١٢/ ١٩٤٧م (وكان جيش الانتداب البريطاني لايزال يسيطر على فلسطين نفذ تنظيم (الأرغون) الإسرائيلي هجومًا على قرية (العبّاسية)، وكان الإسرائيليون المهاجمون متنكّرين في زي جنود بريطانيين، وقد أطلقوا النار على العبّاسية، وفجروا عددًا من منازل القرية، وأطلقوا النيران على عدد من السكان الذين كانوا يجلسون أمام مقهى القرية، ووضع القتلة مجموعة من القنابل الموقوتة، وزرعوا العبوات الناسفة في عدد من المنازل.. ووصل إلى المكان العديد من جنود الاحتلال البريطاني، لكنهم لم يتدخلوا، بل قاموا بتطويق العباسية تطويقًا جزئيًّا، وتركوا للقتلة طريقًا للهروب من الجهة الشمالية.. وكان عدد المهاجمين الإسرائيليين أربعة وعشرين.

بلغ عدد ضحايا هذه المجزرة (٧) شهداء، وأصيب سبعة آخرون بجراح خطيرة؛ توفي اثنان منهم لاحقًا، وكان بينهم طفل في الخامسة من عمره، وأمه في العشرين من عمرها، وأصيب خمسة نتيجة لانفجار العبوات الموقوتة، في الأيام التي تلت المجزرة.

١٤ـ مجزرة (عرب الخصاص) ١٨/ ١٢/ ١٩٤٧م

الخصاص قرية عربية فلسطينية، تقع في الجزء الشمالي من سهل (الحولة).. كان عدد سكانها عام ١٩٤٥م (٤٧٠) نسمة، وكان منهم (عرب الفضل)، وأميرهم الأمير (فاعور).

المجزرة: بعد قرار التقسيم ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م بينما كان خمسة من العمال العرب في طريقهم إلى أعمالهم، قام ثلاثة من الإسرائيليين من مستوطنة (معيان باروخ) بإطلاق النار على هؤلاء العمال العرب، ونتيجة هذا الاعتداء أصيب أحد الإسرائيليين بطعنة سكين أدت إلى وفاته، ومع انتشار خبر مقتل هذا الإسرائيلي تلقى قائد كتيبة (البالماح) الثالثة التي كانت ترابط في منطقة (عتليت) خبر الحادث، فأسرع (موشيه كلمان) مساعد قائد الكتيبة إلى موقع الحادث، ثم طلب (مولا كوهين) قائد كتيبة (البالماح) القيام بعملية انتقامية ضد قرية (الخصاص)؛ «لأن اغتيال شخص إسرائيلي يعد إباحة للدم الإسرائيلي»، على الرغم من أن التهمة الموجهة إلى سكان (الخصاص) لم تثبت على أن أهالي الخصاص هم الذين قاموا بالعمل.. وتقرر مهاجمة (الخصاص)، وقام (موشيه كرمل) قائد لواء (لبانوني) بتسليم قيادة الكتيبة الثالثة أمرًا من قسم العمليات في رئاسة الأركان، يقضي بالقيام بعملية انتقامية تهدف إلى حرق المنازل، وقتل الرجال في الخصاص.. ونفذت العملية في ١٨/ ١٢/ ١٩٤٧م، وقام بالتنفيذ سريتان من تلك الكتيبة، وتضمن تقرير قائد القوة المنفذة ما يفيد أنها قتلت (١٢) شخصًا من الخصاص العرب بينهم عدد من النساء، والأطفال.. ولكن اتضح فيما بعد أن جميع الشهداء كانوا من النساء، والأطفال، لأن الرجال كانوا قد غادروا القرية قبل تنفيذ

المجزرة بوقتٍ قصير.. وتقول بعض المصادر الإسرائيلية: بلغ عدد القتلى (١٠) منهم (٥) أطفال، وأن بعض الضحايا دفنوا تحت أنقاض منازلهم.

١٥. مجزرة (القدس) ٢٩/ ١٢/ ١٩٤٧م

في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٧م، ألقى أعضاء تنظيم (الأرغون) الإسرائيلي برميلًا مملوءًا بالمتفجّرات عند (باب العمود) في القدس؛ مما أدى إلى استشهاد (١٤) عربيًّا، وجرح (٢٧) آخرين.

١٦. مجزرة (القدس) ٣٠/ ١٢/ ١٩٤٧م

في الثلاثين من كانون الأول / ١٩٤٧م، ألقى أعضاء تنظيم (الأرغون) الإسرائيلي من سيارة مسرعة في القدس قنبلة انفجرت فقتلت (١١) عربيًّا.

١٧. مجزرة (بلد الشيخ) ٣١/ ١٢/ ١٩٤٧م، ١/ ١/ ١٩٤٨م

المجزرة: في ليل ٣١ ديسمبر عام ١٩٤٧م (عيد رأس السنة الميلادية) و١ يناير عام ١٩٤٨م، قامت قوة مشتركة مؤلفة من الكتيبة الأولى من (البالماح)، ومن لواء (كرميلي) يقودها (حاييم أفينوعم) بالهجوم على قرية (بلد الشيخ)، وقد بلغ عدد ضحايا هذه المجزرة وفق المصادر الإسرائيلية (٦٠) شهيدًا، وحسب ما ورد في تقرير قائد العملية (المجزرة): (لقد أسكتت قواتنا النيران، ودخلت إلى القرية، وبدأت العمل في البيوت، حيث جعلت كثافة النيران من المتعذر عليهم أن يتفادوا النساء، والأطفال).

أما مراسل (نيويورك تايمز) فقد كتب تقريرًا عن هذا الهجوم، بتاريخ ٧/ ١/ ١٩٤٨م جاء فيه: (في ليل ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٧م، و١ يناير ١٩٤٨م، شن (الهاجاناه) هجومًا على (بلد الشيخ)، وزعمت أن ذلك انتقام لمقتل اليهود في الاشتباكات التي وقعت في مصفاة النفط (الريفاينري) ويضيف مراسل النيويورك تايمز: «فيما كانت مجموعة متنكّرين

بـ(كوفيات) بيضاء عربية تطلق النار للتغطية من التلال المشرفة على القرية، دخلت مجموعة أخرى أكبر منها بكثير إلى أطراف القرية، وهاجمت عدة منازل بالقنابل اليدوية، والرشاشات، فقتلت العديد من المدنيين العُزل كان منهم الأطفال، والنساء، والعجزة».

وكان لمجزرة (بلد الشيخ)، إضافة إلى حوادث العنف الأخرى، تأثير مدمّر على معنويات السكان العرب في مدينة (حيفا).. وقد جاء في تاريخ (الهاجاناه): «إن قوة قوامها ١٧٠ عنصرًا من (البالماح) أمرت بتطويق (بلد الشيخ)، وإلحاق الأذى بأكبر عدد ممكن من الرجال، وقد خلف المهاجمون خلفهم أكثر من ٦٠ قتيلًا كان بينهم عدد من النساء، والأطفال، والعجزة»، وقدرت إحدى الروايات عدد الشهداء بـ(٣٠) شهيدًا.. ولقد دمّر القتلة عشرات المنازل في القرية.

وللحقيقة والتاريخ، فإن معظم الشهداء في هذه المجزرة كانوا من العمال العرب الذين كانوا يعملون في مصفاة النفط (الريفاينري) القريبة من (بلد الشيخ)، وكان هؤلاء العمال من قرى مختلفة، وكانوا يقيمون في منطقة (حوّاسة)، وحوّاسة هذه هي جزء من أراضي (بلد الشيخ)، وكانت حوّاسة مبنية بأكواخ من الصفيح.

١٨ـ مجزرة (الشيخ بريك) ١٩٤٧م

(الشيخ بريك) قرية عربية فلسطينية في قضاء (حيفا)، المجزرة: في عام ١٩٤٧م هاجمت التنظيمات الإسرائيلية قرية (الشيخ بريك)، وقتلت ٤٠ شخصًا من أهلها.

مجازر عام ١٩٤٨

١ـ مجزرة (يافا) ٤/ ١/ ١٩٤٨م

في اليوم الرابع من يناير عام ١٩٤٨م ألقى تنظيم (شتيرن) الإسرائيلي قنبلة على ساحة مزدحمة بالناس في مدينة (يافا) فقتلت ١٥ شخصًا، وأصابت ٩٨ آخرين بجراح.

٢- مجزرة (السرايا القديمة) في (يافا) ٤/ ١/ ١٩٤٨م

في الرابع من يناير عام ١٩٤٨م وضع تنظيم (الأرغون) الإسرائيلي سيارة مملوءة بالمتفجرات بجانب (السرايا القديمة) في مدينة (يافا) فهدّمتها وما جاورها؛ فاستشهد نتيجة ذلك ٣٠ عربيًّا، وجرح آخرون، وكان من بين الضحايا عدد غير قليل من شباب يافا المثقّف.

٣- مجزرة (سميراميس) ٥/ ١/ ١٩٤٨م

في الخامس من شهر يناير عام ١٩٤٨م نسف تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي بالمتفجرات فندق (سميراميس) الكائن في حي (القطمون) العربي في مدينة القدس؛ فتهدم الفندق على من فيه من النزلاء، وكلهم عرب، واستشهد في هذه المجزرة ١٩ عربيًّا، وجرح أكثر من ٢٠ آخرين.. وبعد هذه المجزرة بدأ سكان حي القطمون بالنزوح نظرًا لقربه من الأحياء الإسرائيلية.

٤- مجزرة (القدس) ٧/ ١/ ١٩٤٨م

في السابع من يناير عام ١٩٤٨م، ألقى تنظيم (الأرغون) الإسرائيلي قنبلة على (بوابة يافا) في مدينة القدس؛ فقتلت ١٨ مواطنًا عربيًّا، وجرحت ٤١ آخرين.

٥- مجزرة (السرايا العربية) ٨/ ١/ ١٩٤٨م

السرايا العربية بناية شاخة، تقع في مقابل (ساعة يافا) المعروفة، وكانت البناية تضم مقر اللجنة القومية العربية في يافا، وقد قامت التنظيمات الإسرائيلية بوضع سيارة ملغومة أدى انفجارها إلى استشهاد ٧٠ عربيًّا إضافة إلى عشرات الجرحى؛ وقد أوردت مجلة الجيش الإسرائيلي (بماحانيه) في عددها الصادر بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٧٨م تفاصيل تنفيذ هذه المجزرة، وذلك على لسان الإسرائيلي (رحميم حكموب) منفذ تلك المجزرة.

٦- مجزرة (الرملة) ١٥/ ١/ ١٩٤٨م

في الخامس عشر من يناير عام ١٩٤٨م نفذ الإسرائيليون مجزرة في مدينة (الرملة)، وكان القتلة من جنود (البالماح) التابعين لقيادة إيغال آلون - إسحاق رابين - دافيد بن غوريون من منظمة (الهاجاناه) الإسرائيلية.. ففي ذلك اليوم قام عدد من عناصر هذه التنظيم، بإلقاء القنابل على أحد المساكن العربية في مدينة الرملة مما اضطر المواطنين العرب الذين يسكنون هذه المنطقة إلى الهرب إلى (صرفند) بعد أن أمطرهم الإسرائيليون بوابل من الرصاص.

٧ـ مجزرة (حيفا) ١٦/ ١/ ١٩٤٨م

في السادس عشر من يناير عام ١٩٤٨م دخل أعضاء إسرائيليون -كانوا متنكّرين بلباس الجنود البريطانيين- مخزنًا بقرب (عمارة المغربي) في شارع (صلاح الدين) في مدينة (حيفا) بحجة التفتيش، ووضعوا قنبلة موقوتة أدى انفجارها إلى تهديم العمارة وما جاورها، واستشهد نتيجة ذلك (٣١) من الرجال، والنساء، والأطفال، وجرح ضعف هذا العدد.

٨ـ مجزرة (يازور) ٢٢/ ١/ ١٩٤٨م

يازور قرية عربية فلسطينية على بعد ٥كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة (يافا).. كان عدد سكانها عام ١٩٤٥م (٤٠٣٠) نسمة.

المجزرة: في الثاني والعشرين من يناير١٩٤٨م وجّه قائد عمليات منظمة (الهاجاناه) الإسرائيلية (إيغال يادين) أمرًا إلى (إيغال آلون) قائد (البالماح) قال فيه: «عليك القيام - بأسرع وقت ممكن، وبدون أية أوامر أخرى- بعملية ضد قرية يازور، ويجب أن يكون الهدف إزعاج القرية فترة طويلة عن طريق القيام بعمليات تسلل إلى داخلها، وإحراق عدد من المنازل، وإنني أمنحك صلاحية اختيار أسلوب العمل».

وبعد ساعتين من تلقّي هذا الأمر قامت مجموعة تابعة لـ (البالماح) بمهاجمة سيارة قرب (يازور)؛ فأصيب نتيجة هذا الهجوم سائق السيارة، وعدد من الركاب العرب، وفي اليوم

نفسه هاجمت مجموعة أخرى حافلة ثانية، وأوقعت فيها عددًا من الشهداء والجرحى، واستمرت هجمات (البالماح)، ولواء (جفعاتي) على قرية يازور، والسيارات العربية المتجهة إليها عشرين يومًا متواصلًا، كما قامت وحدات أخرى بتفجير العبوات الناسفة قرب المنازل؛ وفي ٢٢/ ١/ ١٩٤٨م قررت قيادة (الهاجاناه) مهاجمة قرية يازور، ونسف مصنع الثلج، وبنايتين مجاورتين له، وأُسندت مهمة التخطيط لهذه العملية إلى (إسحاق رابين) ضابط عمليات (البالماح)، وكان مسؤول شعبة التدريب آنذاك العميد (يسرائيل طال)، وتقرر البدء في الهجوم مع بزوغ الفجر، وفي الليل تم جمع الذين سيشاركون في تنفيذ العملية في مستوطنة (مكفي يسرائيل)، ووصلت كيبوتس (خلدا) مجموعة بقيادة (يهو شواع نبو)، ووصل (أمنون جنسكي) مع مجموعة من خبراء المتفجرات العاملين في قيادة (البالماح)، وتم إحضار الأسلحة، والذخيرة اللازمة، وانطلقت القوات المعادية إلى قرية يازور عبر بيارات البرتقال.

قامت مجموعة (يسرائيل طال) بإطلاق النار على مصنع الثلج في القرية، كما قامت المجموعات الأخرى بإطلاق النار، والقنابل اليدوية على البيوت، أما مجموعة (يهو شواع نبو) فقد قامت بتفجير بوابة مبنى(اسكندروني)، ومبنى معمل الثلج؛ واسفرت هذه المجزرة عن سقوط (١٥) شهيدًا من سكان (يازور)، وقد قتل الإسرائيليون معظم هؤلاء الشهداء في الفراش وهم نيام.

٩. مجزرة (حيفا) ٢٨/ ١/ ١٩٤٨م

في الثامن والعشرين من يناير عام ١٩٤٨م دحرج مجموعة من الإسرائيليين -من حي (الهادار) المرتفع، على (شارع عباس) العربي في مدينة (حيفا) في أسفل المنحدر- برميلًا مملوءًا بالمتفجرات؛ فهدم البيوت على من فيها، واستشهد ٢٠ مواطنًا عربيًا، وجرح حوالي (٥٠) آخرين.

١٠ـ مجزرة (طيرة طولكرم) ١٠/ ٢/ ١٩٤٨م

الطيرة قرية عربية فلسطينية في قضاء (طولكرم).. كان عدد سكانها (٣١٨٠) نسمة عام ١٩٤٥م، ومساحتها ٩٦ ألف متر مربع، ومساحة أراضيها ٣١٣٥٩ ألف متر مربع احتلها الغزاة الإسرائيليون عام ١٩٤٨م.

المجزرة: في العاشر من فبراير عام ١٩٤٨م أوقف فريق من الإسرائيليين عددًا من المواطنين العرب العائدين إلى قرية (طيرة طولكرم)، وأطلقوا عليهم النار، فقتلوا منهم سبعة، وأصابوا خمسة آخرين بجراح.

١١ـ مجزرة (سعسع) ١/ ٢/ ١٩٤٨م

سعسع قرية عربية فلسطينية على بعد ٢٠ كم من مدينة (صفد).. كان عدد سكانها عام ١٩٤٥م (١١٣٠) نسمة؛ احتلها الغزاة الإسرائيليون في ١٦/ ٢/ ١٩٤٨م بينما كان حكم الانتداب البريطاني قائمًا في فلسطين.

المجزرة: ليلة الرابع عشر من فبراير عام ١٩٤٨م هاجمت قوة من كتيبة (البالماح) الثالثة -التابعة لـ(الهاجاناه)- قرية (سعسع)، ودمرت عشرين منزلًا فوق رؤوس أصحابها، على الرغم من أن أهل القرية كانوا قد رفعوا الأعلام البيضاء، وقدموا للجيش ذبيحة جديدة، وكانت حصيلة هذه المجزرة استشهاد حوالي (٦٠) من أهالي القرية؛ معظمهم من النساء، والأطفال، وقد نشرت صحيفة (يديعوت أحرنوت) في ١٤/ ٤/ ١٩٧٢م حديثًا لـ(موشيه كولمان) قائد لواء (يفتاح) الذي نفذ هذه المجزرة وقال (كولمان): «خرجنا إلى العمل ليلة ١٤/ فبراير/ ١٩٤٨م في منطقة عربية خالصة، وكان الهدف يبعد ٢٥ كم عن قاعدتنا، وكنت أقود (٦٨) شخصًا مسلحين بأسلحة خفيفة، ومواد ناسفة، تسللنا إلى القرية من الشمال

لاختراقها بصورة مفاجئة، ووضعنا (٣٥) عبوة ناسفة، وانسحبنا تحت ستار الليل، وقد أصيب عدد من النساء، والأطفال خلال العملية».

١٢- مجزرة (القدس) ٢٠/ ٢/ ١٩٤٨م

في العشرين من فبراير عام ١٩٤٨م سرق تنظيم (شتيرن ليحي) الإسرائيلي سيارة جيش بريطانية، وملأها بالمتفجرات، ثم وضعها أمام بناية السلام في مدينة القدس، وعند الانفجار استشهد (١٤) عربيًّا، وجرح (٢٦) آخرون.

١٣- مجزرة (حيفا) ٢٠/ ٢/ ١٩٤٨م

في العشرين من فبراير عام ١٩٤٨م هاجم الغزاة الإسرائيليون الأحياء العربية في مدينة حيفا بمدافع الهاون، فقتلوا ستة من العرب، وجرحوا ستة وثلاثين آخرين.

١٤- مجزرة (الحسينية) ١٣/ ٣/ ١٩٤٨م

الحسينية قرية عربية فلسطينية في قضاء (صفد).. المجزرة: في الثالث عشر من مارس ١٩٤٨م، هاجم تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي قرية (الحسينية)، فهدمت بيوتها بالمتفجرات؛ فاستشهد أكثر من (٣٠) من أهلها.

١٥- مجزرة (أبو كبير) ٣١/ ٣/ ١٩٤٨م

في الحادي والثلاثين من مارس عام ١٩٤٨م، قامت فرق (الهاجاناه) الإسرائيلية بهجوم مسلح على حي (أبو كبير) في مدينة (يافا)، ودمر القتلة البيوت، وقتلوا السكان الهاربين من بيوتهم طلبًا للنجاة.

١٦ـ مجزرة (قطار حيفا - يافا) ٣١/ ٣/ ١٩٤٨م

في الحادي والثلاثين من مارس عام ١٩٤٨م نسف تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي قطارًا يصل بين (حيفا)، و(يافا) أثناء مروره بالقرب من (ناتانيا)؛ فاستشهد جراء ذلك (٤٠) شخصًا.

١٧ـ مجزرة (قطار القاهرة - حيفا) ٣١/ ٣/ ١٩٤٨م

في الحادي والثلاثين من مارس عام ١٩٤٨م لغَّم تنظيم (شتيرن) الإسرائيلي قطارًا يصل بين (القاهرة)، و(حيفا) السريع؛ فاستشهد عند الانفجار (٤٠) شخصًا، وجرح (٦٠) آخرون.

١٨ـ مجزرة (الرملة) مارس ١٩٤٨م ٠

خطط لهذه المجزرة، ونفذها في مارس عام ١٩٤٨م أعضاءُ أحد التنظيمات الإسرائيلية في سوق مدينة (الرملة)، واستشهد فيها (٢٥) مواطنًا عربيًا.

١٩ـ مجزرة (قالونيا)١٢/ ٤/ ١٩٤٨م.

قالونيا قرية عربية فلسطينية تبعد عن مدينة (القدس) بحوالي ٧كم .. كان عدد سكانها (٩١٠) نسمة.. مساحتها (٧٢) ألف متر.

المجزرة: في اليوم الثاني عشر من شهر أبريل عام ١٩٤٨م هاجمت قوة من (البالماح) الإسرائيلية قرية (قالونيا)، فنسفت عددًا من بيوتها؛ فاستشهد جراء ذلك -على الأقل- (١٤) شخصًا من أهلها.

٢٠ـ مجزرة (اللجّون) ١٣/ ٤/ ١٩٤٨م

اللجون قرية عربية فلسطينية من قرى قضاء (جنين)، وتبعد عن جنين حوالي ١٨كم.. كان عدد سكانها (١١٠٣) نسمة عام١٩٤٠م.. احتلها الغزاة الإسرائيليون عام ١٩٤٨م.

المجزرة: في الثالث عشر من أبريل عام ١٩٤٨م هاجم تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي قرية (اللجون)، وقتلت (١٣) شخصًا من أهلها.

٢١. مجزرة (ناصر الدين) ١٣-١٤/ ٤/ ١٩٤٨م

ناصر الدين قرية عربية فلسطينية، تبعد ٧كم إلى الجنوب الغربي من مدينة (طبريا)، كان عدد سكانها (٩٠) شخصًا.

المجزرة: في الثالث عشر من أبريل عام ١٩٤٨م اشتدت حدة القتال في مدينة (طبريا) بين العرب والغزاة الإسرائيليين، وكان التفوق في الرجال، والمعدات إلى جانب العدو، وقد جرت محاولات من مجاهدي (الناصرة) والقرى المجاورة لطبرية لنجدة طبرية، وكان العدو يسيطر على المداخل المؤدية إلى المدينة، وسرت أخبار بين المدافعين عن طبرية أن نجدة قادمة من القرى القريبة ستصلهم عن طريق قرية (ناصر الدين) فطُلب إلى المجاهدين الانتباه، وعدم إطلاق النار على أفراد النجدات، ويبدو أن هذه الأخبار قد وصلت إلى الإسرائيليين؛ فأرسل تنظيما (الأرغون) و(شتيرن) ليلة ١٣-١٤/ ٤/ ١٩٤٨م قوة يرتدي أفرادها الملابس العربية، فاعتقد أهل القرية أنهم أفراد النجدة العربية القادمة إلى طبريا؛ فاستقبلوهم بالترحيب.. ولما دخل الإسرائيليون القرية فتحوا نيران أسلحتهم على مستقبليهم فلم ينجُ من هذه المجزرة إلا أربعون شخصًا من أهل قرية (ناصر الدين) استطاعوا الفرار إلى قرية مجاورة؛ أي أن عدد ضحايا المجزرة كان (٥٠) شهيدًا من أصل (٩٠) هم كل سكان القرية، وقد استمرت المجزرة من ليل يوم ١٣/ ٤ حتى نهار يوم ١٤/ ٤/ ١٩٤٨م، ومن المعروف أن قوة إسرائيلية من (غولاني) كانت قد هاجمت في اليوم السابق ١٢/ ٤/ ١٩٤٨م قرية (ناصر الدين) نفسها، وقرية (الشيخ قدومي)، وقتلت (١٢) مواطنًا.

٢٢. مجزرة (طبرية) ١٩/ ٤/ ١٩٤٨م

في التاسع عشر من أبريل عام ١٩٤٨م نسفت التنظيمات الإسرائيلية أحد منازل مدينة (طبرية) فقتلت (١٤) شخصًا من سكانه.

٢٣. مجزرة (حيفا) ٢٢/ ٤/ ١٩٤٨م

في الثاني والعشرين من أبريل ١٩٤٨م هاجم الغُزاة الإسرائيليون -بعد منتصف الليل- مدينة (حيفا) من هدار الكرمل؛ فاحتلوا البيوت والشوارع والمباني العامة، وقتلوا (٥٠) عربيًّا، وجرحوا (٢٠٠) آخرين، وقد فوجئ العرب فأخرجوا نساءهم، وأطفالهم إلى منطقة الميناء لنقلهم إلى مدينة (عكا)، وفي أثناء هربهم هاجمتهم المواقع الإسرائيلية الأمامية؛ فاستشهد (١٠٠) شخص من المدنيين، وجرح (٢٠٠) آخرون.

٢٤. مجزرة (عين الزيتون) أوائل مايو ١٩٤٨م

عين الزيتون قرية عربية فلسطينية في قضاء (صفد)، كان عدد سكانها (٨٢٠) نسمة.

المجزرة: تروي اليهودية (نتيبا بن يهودا) في كتابها (خلف التشويهات) عن مجزرة عين الزيتون فتقول: «في ٣ أو ٤ مايو ١٩٤٨م أُعدِم حوالي (٧٠) أسيرًا مقيدًا».

٢٥. مجزرة (صفد) ١٣/ ٥/ ١٩٤٨م

في الثالث عشر من مايو عام ١٩٤٨م ذبح تنظيم (الهاجاناه) الإسرائيلي حوالي (٧٠) شابًّا في مدينة (صفد)، ولا توجد تفاصيل عن هذه المجزرة.

منقول عن مقال لرانية مرجية بعنوان (الذاكرة الفلسطينية.. مسلسل متواصل من المجازر الإسرائيلية، وأمل متجدد باسترداد الحقوق المسلوبة).

٦- الحيادية المزيفة: الرأي والرأي الآخر في ميزان الحق

يصل الأمر بالبعض - في سعيهم المحموم لأن يوصفوا بالحيادية والتعقل - أن يساووا بين الحق والباطل؛ فيجعلوا كليهما في مرتبة الرأي فيقبل كل منهما الرجحان.. وهذا خطأ شائع يقع فيه بالذات من ليس لهم صلة حقيقية بهويتهم، أو من ليس لهم اتصال قوي بمبادئ راسخة يتحركون بمقتضاها، الأمر الذي يتركهم في حالة من التردد الدائم بين رأيين لاعتقادهم أنهما على نفس الدرجة من الحق.. وهذا أمر شديد الخطورة لأنه من ناحية رؤية ظالمة؛ لأن الظلم هو أن يضع المرء الأمر في غير موضعه، ومن ناحية أخرى فهم يُرقون الباطل إلى درجة (رأي يعتبر به) ويقللون من قيمة الحق بأن يجعلوه على قدم المساواة في المقارنة مع رأي لا أصل له، بل هو باطل واهٍ.. ولكن كيف لنا أن نقيّم إن كان الرأي يستحق التفنيد، أم الانصراف عنه لفساد أساسه؟

والجواب على ذلك أن الرأي غالبًا ما يأتي معززًا بدليل؛ كأن يقول الشخص أنا أرى كذا وكذا بدليل كذا وكذا.. فعليك حينها بالنظر في الدليل أولًا، هل هو حقًّا من أصل الرأي فيؤيِّده فعلًا، أم أن وجود هذا الدليل لا يدل على شيء من هذا الرأي المتبنى، وأنه ما أتى به صاحبه إلا ليشكك في محاولة لإيجاد علاقة بين أمرين لا صلة بينهما؟ ولقد ضرب الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) مثالًا يوضح هذا الأمر في قوله: «إني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانًا، وقلبها، وشهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك فيما علمته فلا..» إذن فما لم يكن الدليل من جنس المدلول عليه فإنه لايدل على شيء، فلا علاقة بين كون الشخص ساحرًا ماهرًا، وبين ادعائه أن الثلاثة عشرة..

وهكذا يجب أن يكون حالنا مع ما يقدّم لنا من آراء فيجب أن يكون لدينا أولًا معرفة يقينية بحيث لا تحرّكها أهواء وآراء لا أصل لها.. وبالإضافة إلى ذلك فهذه بعض المبادئ التي قد تعيننا على تقييم الآراء المعروضة علينا:

- أولًا: إذا كان الرأي غير مركب (لا يحمل تفاصيل كثيرة)؛ فإنه يجب ألا يعارض أصلًا من الأصول والمبادئ، فإن فعل؛ كان تجنيًا وتعديًا يستوجب استبعاد هذا الرأي، وأن يرد عليه فورًا بالأصل الذي يعارضه فيدحضه.. ولنضرب مثالًا مبسطًا على ذلك؛ فمثلًا أن يقول إنسان إن الشمس تشرق من الغرب، فهذا يعارض مبدأً كونيًّا يؤيده الحس والتجربة، ومن ثم يُصرف في الحال على أنه باطل..
- ثانيًا: إن كان رأيًا مركبًا (يحمل الكثير من الحجج والتفاصيل) يفند هذا الرأي بإزالة كل التفاصيل وصولًا إلى الأصل كما نوضح في فصل تأصيل المبادئ، والتخلص من التفاصيل الزائدة؛ فإن كان لا أصل له فهو كالغثاء، أو هو مجرد اعتقاد شخصي من الفرد لا أساس له إلا إحساس الفرد بالأمر أكثر منه مبدأً يعتد به.. إما إن كان له أصل، أو ارتكن إلى مبدأ فهنا يمكن النظر فيه، والمفاضلة بينه، وبين الرأي الآخر بالأساليب التي سنوضحها لاحقًا في خطوات استنباط الحق..
- ثالثًا: قد يخرج عليك هذا الرأي بادعاء قياس غير سليم يتركك في حيرة، والقياس هو وزن رأي برأي آخر كما سنوضح لاحقًا، وفي هذه الحالة علينا أن نقرر ما إذا كانت المقارنة، أو القياس سليمين في الأساس بالاستعانة بشروط القياس الصحيح التي سنجملها في فصل القياس..

ولأن الحالتين الأوليين يسهل دحضهما بما نعرف من مبادئ أساسية، فكثيرًا ما يلجأ الباطل إلى الحالة الثالثة لسهولة التباس الأمر فيها، وسهولة تمرير الباطل خاصة إن كان من

أمامه جاهلًا أو ضعيف الهمة في طلب الحق.. ونضرب مثالًا على تلك الحالة الأخيرة برأي قد يتقوّله البعض لتبرير الاحتلال الأميركي السافر للعراق فيقول إن أميركا قد دخلت العراق لتخليصها من حاكم ظالم، ويقيس هذا الاحتلال ظُلمًا على الفتوحات الإسلامية مدّعيًا أن وجه الشبه أن هذه الفتوحات قد خلصت شعوب المنطقة وقتها من حكامها الظالمين.. وهذا رأي مردود عليه بأن المقارنة لا تجوز من الأساس.. فحين نبحث عن الأصل كخطوة أساسية لاستبيان الحق؛ نجد أن هناك فرقًا جوهريًا بين تعريفي الفتح والاحتلال، ولو أن كليهما يبدأ بالغزو إلا أنهما يختلفان اختلافًا جوهريًا في الدافع، والكيفية، والعواقب..

■ **أولًا: الدافع**

إن أول الأمور التي يجب بحثها عند المقارنة بين حدثين في التاريخ هو السبب، أو الدافع وراء كليهما.. ونذهب إلى أنه لا يجوز قياس الاحتلال الأميركي للعراق على الفتوحات الإسلامية؛ لأن من شروط القياس أن تكون العلّة الموجودة في الفرع موجودة في الأصل، وهذا ما لا نراه في هذه الحالة، لأنه لو سلّمنا أن أميركا دخلت العراق عام ٢٠٠٣ لتحريرها من حاكمها -صدام حسين آنذاك- (وإن أثبتت الأيام سذاجة هذا الرأي)؛ فإن الفتوحات الإسلامية لم تكن في الأساس للتخلص من الحكام الظالمين (وإن ترتب ذلك على الفتوحات)، ولكن الغرض الأساسي من الدخول في هذه الحروب كان نشر الرسالة، وقد وضح الرسول ﷺ هذا الدافع جليًّا في صلح الحديبية حيث كان مطلبه الأساسي أن (خلوا بيني وبين الناس) وهو إعلان واضح أن غايته ليست الحرب، ولكن نشر الرسالة في سلام..

والروم والفرس كانتا دولتين عظميين تمثلان عقبتين أمام نشر الرسالة بجبروتهما، وبفرضهما لسيطرتهما على الشعوب.. فكانتا تفرضان على هذه الشعوب ضرائب باهظة، وتضطهدان أهلها.. وبالرغم من ذلك راسلهما الرسول ﷺ داعيًا إياهم إلى الإسلام فمن

سالم منهم سالمه الرسول، ومن آثر الحرب قاتله الرسول.. ولو كانت نية المسلمين حيازة السلطة، والاستيلاء على أراضي هذه الدول، وليس نشر الرسالة؛ لباغتوهم بالحرب، ولقتلوا منهم من سالمهم، ومن قاتلهم على حد سواء، ولكن لم يحدث هذا.. وهذه نصوص رسائل الرسول ﷺ إلى ملوك هذا العصر؛ كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم جميع الإريسيِّين﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)».

كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم مصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الإسلام إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾».

وتقول الرواية: إن المقوقس لما قرأ الكتاب سأل حامله (حاطب بن أبي بلتعة): ما منع صاحبك -إن كان نبيًّا- أن يدعو على من أخرجوه من بلده؛ فيسلّط الله عليهم السوء؟ فقال حاطب: وما منع عيسى أن يدعو على أولئك الذين تآمروا عليه ليقتلوه؛ فيسلط الله عليهم ما يستحقون؟ قال المقوقس: أنت حكيم جئت من عند حكيم.

- **كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي:**

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الإسلام إلى النجاشي ملك الحبشة: سلام عليك إني أحمد الله إليك، الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى».

- **كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس:**

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، وَأَدْعوكَ بِدُعَاءِ اللهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ فَإِنْ تُسْلِمْ تَسْلَمْ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ».

ونلاحظ في هذه الرسائل تركيز الرسول الكريم على الدعوة إلى الإسلام، واجتنابه التهديد والوعيد، وكيف أنزل كل ملك من هؤلاء الملوك منزلته مع إقراره بسلطته إن سالم المسلمين.. فكيف يأتي البعض الآن ليقولوا إن هدف الفتوحات كان حيازة السلطة، وكم من عروض مغرية أتت الرسول ﷺ كي يترك هذه الرسالة؛ فما تركها مهما لاقى لأجلها من صعاب.. أليس هذا الرسول الكريم هو الذي قاسى الشدة، والتنكيل في الشعب، ومع ذلك رد على عمه أبي طالب حين قال له (أبق عليَّ وعلى نفسك)، فقال ﷺ: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته.

فأي عرض من الدنيا هذا الذي يلصقونه بالرسول، وفتوحاته، وما تلاها من فتوحات لنشر الرسالة.. ويضيف الشيخ العلامة «يوسف القرضاوي» أن أهداف هذه الفتوحات عدة:

إنها أرادت كسر شوكة السلطات الطاغية، والمتجبرة التي كانت تحكم تلك البلاد، وتحول بين شعوبها وبين الاستماع إلى كلمة الإسلام، ودعوة القرآن التي جاء بها محمد ﷺ، وتريد أن يبقى الناس على دينها ومذهبها، ولا يفكر أحد في اعتناق دين آخر، ما لم يأذن له كسرى، أو قيصر، أو الملك، أو الأمير، وهو ما عبّر عنه القرآن على لسان فرعون قديمًا حينما أسلم سحرته، وآمنوا برب موسى وهارون في قوله ﷻ: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه: ٧١)، وهكذا كان حكم الأكاسرة، والقياصرة، والملوك في ذلك الزمن حاجزًا حصينًا دون وصول الدعوة العالمية إلى شعوبهم.

ولهذا حينما بَعَثَ رسول الإسلام برسائله إلى هؤلاء الأباطرة، والملوك يدعوهم إلى الإسلام: حمَّلهم -إذا لم يستجيبوا للدعوة- إثم رعيتهم معهم؛ فقال لكسرى: «فإن لم تسلم فعليك إثم المجوس»، وقال لهرقل: «فعليك إثم الإريسيين»، وقال للمقوقس في مصر «فعليك إثم القبط»، وهذا يؤكد المثل السائر في تلك الأزمان: الناس على دين ملوكهم، فأراد الإسلام أن يرد الأمور إلى نصابها، ويعيد للشعوب اعتبارها واختيارها، فيختارون هم بأنفسهم لأنفسهم، ولاسيما في هذه القضية الأساسية المصيرية التي هي أعظم قضايا الوجود على الإطلاق؛ قضية دين الإنسان الذي يحدد هويته، ويحدد غايته، ويحدد مصيره، ومن هنا كانت الحرب الموجهة إلى هؤلاء الملوك، والأباطرة لهدف واضح هو (إزالة الحواجز) أمام الدعوة الجديدة حتى تصل إلى الشعوب وصولًا مباشرًا، وأن تتعامل معها الشعوب بحرية

واختيار؛ من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة دون خوف من جبّار يقتلهم، أو يصلبهم في جذوع النخل.

حرب وقائية لحماية الدولة الإسلامية: وهناك هدف آخر مكمل لهذا الهدف وهو أن هذه الدولة الوليدة الفتية التي أقامها الإسلام في المدينة هي دولة عقيدة وفكر، دولة شريعة ورسالة، وليست مجرد سلطة حاكمة، فهي بتعبير العصر (دولة أيديولوجية) تحمل دعوة عالمية للبشر جميعًا، وهي مأمورة بتبليغ هذه الدعوة التي تمثل رحمة الله للعالمين، ومن شأن هذه الدولة أن تُقَاوم وتُحَارب من قبل القوى المتسلّطة في الأرض التي ترى في رسالة هذه الدولة ومبادئها خطرًا عليها، فإن لم نحاربها اليوم، فلا بد أن نحاربها غدًا كما علمتنا تجارب التاريخ).

وهذا نفس ما أشار إليه عباس العقاد في كتابه (حقائق الإسلام، وأباطيل خصومه) حين قال: (ولم يفاتح النبي أحدًا بالعداء في بلاد الدولتين، وإنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين، وجنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعدادهم العدة لقتال المسلمين، وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهّبوا لمدافعتها والتحصُّن دونها).

ويضيف قائلًا: «لم يعمد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الإقناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها؛ حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرّضوا لهم بسوء» . والدليل على ذلك أن المسلمين لم يقاتلوا الحبشة حين سالمتهم، وقاتلوا الفرس والروم بعد أن أرسل إليهم الرسول ﷺ الرسائل بدعوة

الإسلام السمحاء فأبوا إلا الحرب، ولم تقع الحرب إلا بعد أن أعدت هذه البلاد عدتها لحرب النبي ﷺ حين أرسل الروم طلائعهم إلى تبوك.

بالإضافة إلى أنه ما من فتح من فتوحات المسلمين كان بهدف نهب الثروات، واستغلال مصادر البلاد كما هو الحال في الاحتلال الاستعماري الذي يسلب البلاد مواردها، والدليل على ذلك أن معظم فتوحات المسلمين في شمال أفريقيا كانت في بلاد فقيرة بلا ثروات..

- **ثانيًا: الكيفية**

لم تكن أي من فتوحات المسلمين موجهة لشعوب البلاد الواقعة تحت سيطرة الفرس والروم بل كانت موجهة لمن يقفون في وجه نشر الرسالة من حكامها الظالمين في حين أن الاحتلال الأميركي والاستعمار الغربي أبادا من الشعوب ما أبادا، منذ بدأت الحرب، وكأن العدوان كان على الشعوب لا على الحكّام الظالمين كما يدّعون.

وبعكس الحروب الاستعمارية التي تنشر الخراب والدمار كانت فتوحات المسلمين تلتزم أخلاق الحرب التي قننتها بعد ذلك كافة المواثيق الدولية بعد ١٤ قرنًا.. انظر إلى أبي بكر وهو يُرسي أخلاق الحرب للجيش المسلم؛ فيقول لجنوده: «لاتقتلوا شيخًا.. لاتقتلوا طفلًا.. لاتقتلوا امرأةً.. ستجدون رهبانًا تفرَّغوا للعبادة في الصوامع؛ فلا تقربوهم.. لاتحرقوا زرعًا.. لا تقطعوا نخلًا.. لاتهدموا بيتًا.. لا تهدموا معبدًا.. لا تُغيروا عليهم ليلًا كي لاتروِّعوا النساء والأطفال.

ومما يُذكر أن المسلمين عند فتح سمرقند وقفوا بأبوابها، وتبعًا للسنة أمهلوا أهلها ٣ أيام يعرضون عليهم فيها الإسلام؛ فأحسّ المسلمون أن أهل سمرقند يعدّون العدّة للقائهم، وقد يباغتوهم بالقتال؛ فنقضوا المهلة وباغتوا أهل سمرقند بالحرب بعد يومين.. العجيب في الأمر أنه بعد دخول المسلمين سمرقند وإقامتهم حكم الإسلام بها ذهب وفدٌ من أهل سمرقند غير

المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يبلغونه أن المسلمين لم يلتزموا بالمهلة، فما كان من أمير المؤمنين إلا أن أمر بانسحابهم بعد أن كانت لهم الغلبة.. ويذكر أنه حين همّ المسلمون بتنفيذ الحكم، والخروج.. احتج أهل سمرقند وطالبوا ببقاء المسلمين لما رأوا من عدالة حكمهم، واعتنق الكثير منهم الإسلام.. هذه هي فتوحات المسلمين لا ظلم الاحتلال والاستعمار الذي قتل النساء، والشيوخ، والأطفال، وحرق الأخضر واليابس..

* ثالثًا: العواقب

حين ينظر الواحد منا لعواقب الاستعمار - بخلاف ما ينتج عن الحرب - يجد أن الاحتلال الذي يتبع هذه الحرب تبدأ فيه الدولة الاستعمارية عملية منظمة من استنزافٍ لموارد البلاد، واستعباد أهلها، ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وما يتبع ذلك من قتلٍ، وتشريد، وتنكيل بأهل البلاد.. كما أن الدولة الاستعمارية تستبدل نظام الحكم في البلاد المستعمرة بنظامها؛ فتجعل رؤوس السلطة من أهل المستعمر، أو عملائه لضمان ولائهم.. أما الفتوح الإسلامية فكانت تلغي الضرائب الباهظة التي فرضها الفرس والروم، وتتيح لأهل البلاد حرية الدين، ولا تستعبدهم، ولا تعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية، فعن النبي ﷺ أنه قال: «لا فضل لعربيٍّ على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب».

ولمن يقول إن المسلمين فتحوا البلاد لتحصيل الجزية فلينظر يوم فَتَح المسلمون دمشق، فأخذوا الجزية من أهلها، ثم بدأ الرومان يغيرون على المسلمين مرَّةً أخرى؛ فإذا بخالد بن الوليد يرد أموال الجزية إلى أهل دمشق ويقول لهم: أخذناها منكم لندافع عنكم، لكننا الآن لانستطيع أن ندافع عنكم فخذوا أموالكم؛ ومن المعلوم أن مقدار الجزية زهيد (حوالي ٢٪)

وهو أقل من الزكاة التي يدفعها المسلمون في مقابل أن يتمتع أهل الذمة بكل حقوق المواطن المسلم من دولة مسلمة ترعى مصالحهم، وجيش مسلم يحمي تخومهم..

ونهاية، فهذا القياس على الفتوحات الإسلامية غير سليم، ليس فقط لاختلاف الدوافع، والكيفية، والعواقب، بل لأن هذه المقارنة لاتجوز في الأساس لاختلاف السياق، والزمان، والنظام العالمي بين الحالتين.. ففي وقت الفتوحات الإسلامية كان النظام العالمي عبارة عن ممالك ودول توجد لتسود وتنتشر، وهكذا كان الحال مع دول الفرس والروم ومن بعدهم المغول...، وكانت الممالك وقتها حين تقوى شوكتها، ويقوى جيشها أول ما تفكّر فيه هو التوسّع، فكان لسان الحال وقتها: «إن أنت لم تسد؛ سادك غيرك» ولذلك كان من الضروري لنشر الإسلام عالميًّا أن تحارب تلك الممالك الظالمة لنشر رسالة الحق والعدل..

أما الاحتلال الاستعماري فقد جاء بعد أن صيغت القوانين، والمواثيق التي قسَّمت العالم إلى دول، كل لها سيادتها، فلا يجوز لدولة أن تتعدى حدود غيرها، وما إلى ذلك من نظام عالمي جديد ساهمت الدول الاستعمارية في صوغه، ثم تولت - وياللسخرية - نقضه بكل ما أوتيت من حيل..

وقد كانت الفتوحات الإسلامية - باعتراف الغرب - سبيلًا لنشر الهداية لا القتل، والخراب كالاحتلال الاستعماري، وهذه شهادات بعض المفكرين والمؤرخين الغربيين في معرض تعليقهم على هزيمة جيش المسلمين في معركة بلاط الشهداء، واستشهاد قائدها عبدالرحمن الغافقي.. فهذا الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه (الحياة الجميلة) يقول بالحرف الواحد: «أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتيه) — يقصد بلاط الشهداء — عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربريّة الفرنجة.. ألا ليت شارل مارتل (قائد الفرنجة) قُطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي؛ وهذا

(غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) يقول: «لو أن العرب استولوا على فرنسا إذن لصارت باريس مثل قرطبة في إسبانيا مركزًا للحضارة والعلم، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب، ويقرأ، بل ويقرض الشعر أحيانًا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوربا لايعرفون كتابة أسمائهم».

من كل هذا نخلص إلى أنه ليس كل رأي رأيًا صائبًا، وأنه لايجب التسليم بأي رأي، ووضعه على قدم المساواة في الصواب مع الآخر حتى وإن قُـدّمت معه الأدلة، فلا بد من تفنيد هذه الأدلة - كما قدمنا - بالبحث والمعرفة من جهة، وبتفنيد صحة القياس المستخدم من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة باستخراج السياق.. وسنتناول كل من هذه الخطوات بتفصيل أكثر في الصفحات القادمة..

قواعد الوصول إلى الحق

"ولكن إن التبس عليّ الأمر وضعت وسط التفاصيل، فبأي خيط أتعلق؟ هل هناك من قواعد لمعرفة الحق؟



خطوات الوصول إلى الحق

قد يبدو الوصول إلى الحق للوهلة الأولى شاقًّا، خاصة إذا تعود الإنسان أن يستقي آراءه، وقناعاته من أفواه وعقول الآخرين.. ولكن حين نضع القواعد للوصول إلى الحق، ويعتاد الواحد منا تطبيقها كلما عرض له أمر؛ سيصبح الوصول إلى الحق طبيعة ثانية عند الواحد منا بشرط أن يكون طلب الحق بإخلاص لا طلبًا لإثبات هوًى في النفس، وإيجاد حجة له بالجدل المذموم، أو لإراحة الضمير فحسب دون الوقوف على الحق..

إذ لابد أن نستقي الأصول أولًا من مصادر لا تقبل الجدل أو التأويل، وخير مصدر بالطبع هو القرآن الكريم، والسنة المؤكدة، وسيرة الخلفاء الراشدين.. فإن كان الأمر حديثًا وليس له سابقة في ذاك العهد؛ فلنلتزم الحقائق من الأرقام ولانحيد عنها، فإن أية كمية من التفاصيل، والتبريرات لاتغير من الحق والمبدأ شيئًا مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (يونس: ٣٦)، ولكن هذا بشرط استيفاء المعلومات عن الموضوع بقدر الإمكان، وبالطبع يبقى احتمال أن يكون هناك شيء خفي، ولكن لا يكلفنا الله إلا ما نعلم، ولا يجازينا بما لا نعلم طالما اجتهدنا في طلب العلم ما استطعنا، وغُيب علينا أمر لحكمة عند الله؛ يقول في ذلك الإمام الغزالي: «أن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله، فإن ذلك غير مقدور، ولا تكليف بما لا يطاق، بل كلفوا بما يظنونه صوابًا، كما لم يكلفوا الصلاة بثوب طاهر قطعًا بل بثوب يظنون أنه طاهر».

ومن ثم، نقوم بواجبنا في البحث فنتأكد من أن لدينا إلمامًا كافيًا بكل أطراف الموضوع، واطلاعًا على وجهات النظر المختلفة، وأنه ليست لدينا معلومات ناقصة..

- فإن استعصى علينا أمر بعد هذا كله؛ فلنلجأ إلى القياس، ولكن لا يلجأ إليه إلا عالمًا بالموازين وقواعد القياس.. فمثلًا يجب مراعاة ألا يكون ما نقيس عليه مصادمًا

لأصل من الكتاب أو السنة، فهذا يعتبر قياسًا فاسدًا...إلى غير ذلك من الضوابط التي سنجملها في فصل القياس إن شاء الله.

- ولننظر فى السياق، فالسياق جزء لا يتجزأ من الحقيقة، بل هو مكمل لها.
- نقوي ذاكرتنا، فبالذاكرة نبني الخبرات، ونكتشف حيل الباطل المبطن بالحق.
- ولنبحث عن المستفيد، فكثيرًا ما يكون القول حقًّا، ولكن ما أريد به إلا الباطل، ومن ثم كان لا بد من معرفة الغرض من القول قبل تبنيه، فقد تتبنى القول وتختلف مع الغرض.
- ضع نفسك في مكان الآخرين، فحينها قد يختلف ميزانك، فقد تكون أقوال وتصرفات من تحكم عليهم قد أملتها عليهم ظروفهم، وهذا يرتبط أيضًا بالسياق.
- نوجد الوقت للقراءة والاطلاع؛ فهي وسيلة بناء الخبرات، وتنمية الفطنة، والفراسة، وما الكتب إلا ذاكرتنا المكتوبة.
- اعرف الحق تعرف الرجال: لاتلتمس في طلب الحق آراء البشر، ولكن اجعل الحق مرجعيتك الوحيدة، فهو المرجعية التي لا تبدلها الأهواء.
- وفى النهاية، فالشيء الأهم من ذلك كله هو التماس الإخلاص في طلب الحق؛ لذلك علينا استجواب أنفسنا؛ أيهما أهم وأكبر؛ نفعنا أم رضا الله؟

وهذه خطوات قد وصلتُ إليها باجتهاد شخصي بعد أن استعرضت الكثير من المسائل الشائكة التي التبس فيها الأمر على كثيرين، ووجدت أن معظم من يتّبعون التفكير المنطقي يمرّون بهذه الخطوات قبل أن يصلوا إلى الحق، كما أني تأكّدت من هذه القواعد بالبحث فيما يوافقها من أقوال العلماء والمفكرين في كيفية البحث عن الحق والتيقن منه، وهذه هي القواعد الإحدى عشرة باختصار:

١- تأصيل المبادئ والتخلص من التفاصيل الزائدة

مِن حِيَل الباطل الشهيرة أن يغرقك بالتفاصيل كي يشتت انتباهك عن القضية المحورية؛ فتصبح الرؤية غير واضحة، ويختلط عليك الأمر، وقد تفقد حينها خيط الحقيقة.. وقد خلص إلى ذلك الإمام الغزالي حين قال: «الشيطان إنما يلبس في الموازين بتكثير الكلام فيه، وتشويشه حتى لايعلم منه موضع التلبيس».. أي أنه يغرقك بالتفاصيل حتى يتوه منك موضع الباطل، أو التلبيس في قول مَن أمامك.. ويشير الله تعالى إلى ذلك في كتابه الحكيم فيقول: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢)، ومن ذلك ما ابتلينا به في هذا العصر من الأقوال الخادعة، وتسمية الأشياء بغير أسمائها.. فصار الاحتلال تحريرًا، والمقاومة إرهابًا، والاعتداء دفاعًا عن النفس بما يسمى الضربات الاستباقية، والظلم والاستبداد عدالة...إلخ.

ومن أمثلة هذا قول فرعون موسى لقومه محاجًّا إياهم لإثبات ألهويته: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف: ٥١) فإن فكر الناس في قوله؛ لوجدوا أن هناك الكثير من الملوك تجري من تحتهم الأنهار، وليسوا بآلهة، وإن كان له ملك مصر والأنهار تجري من تحته حقًّا فهذا لا يثبت شيئًا من ادعائه الألوهية.. وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.. إلا أنه كما يعلق القرآن: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٤).. يقول ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية: «المعنى فاستجهل قومه فأطاعوه لخفة أحلامهم، وقلة عقولهم.. وقيل: استخف قومه؛ أي وجدهم خفاف العقول»، وهكذا كان الجهل دومًا طريقًا إلى الغواية، والتضليل..

والحيلة الثانية التي ينتهجها الباطل لتضييع الحق هي التركيز على نقاط الخلاف، كأن يجادل مَن أمامك في قضية فرعية تفرّعت من خلاف طويل، وتبودلت فيها الاتهامات حتى

ضاعت القضية الأصلية وهي موضع البحث.. والأمثلة على ذلك لا تُعد ولا تُحصى، ومن أقرب هذه الأمثلة، وأعجبها الادعاءات الإسرائيلية والتي تصوّر إسرائيل بالضحية، وأنها لاتقوم إلا بالدفاع عن نفسها، فتدخل العالم في سجال عمن بدأ القتال، ومن يستحق التأييد صارفة النظر تمامًا عن الأمر الجلي؛ ألا وهو أنها دولة محتلة تقهر شعبًا كاملًا بأبشع الأساليب.. وكل هذه الظنون والشبهات التي تدعيها لا تلغي من هذه الحقيقة الجلية شيئًا، وأنه لا يمكن أن تتوقع إسرائيل استقرارًا إذا ما كانت مستمرة في التنكيل بشعبٍ كامل، وقتله، وتشريده، وسد منافذ الحياة عليه، فلو كان شعبًا آخر غير فلسطين لصفق له العالم إعجابًا بشجاعته، إنما هي العنصرية الغربية، واستعلاء القوة، وضلال الباطل.. يقول فيليب سلاتر الباحث الاجتماعي، والكاتب، والممثل الأميركي في مقاله الصادق: «رسالة إلى إسرائيل: حان الوقت أن تتوقفي عن لعب دور الضحية؛ حين تكوني (إسرائيل) قد غزوتِ الكثير من جيرانك، ألقيت عليهم القنابل، وهزمتِهم في القتال، احتللت أراضيهم، وأخذتِ بيوتهم منهم، فقد حان الوقت كي تتوقفي عن لعب دور المظلومة».

وللتغلب على هذا الأمر وهذا التلبيس فلا بد من أن يكون لديك مرجعية تستند إليها، وتستقي منها مبادئك فتلوذ بها كلّما اختلطت عليك الأمور، وخير مرجعية هي كتاب الله لأنه من الحق عز وجل ذاته، لذلك فهو: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢)، ويصفه الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢)..

والقرآن الكريم محفوظ بقدرة الله عز وجل، لقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، ولقوله ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الكهف: ٢٧).. والقرآن والسنة هما ما اصطلح عليه في الفقه بالدليل النقلي..

والجميل في الأمر أنه ما من أمر في القرآن إلا وهو موافق للفطرة السليمة، والتفكير العقلاني المنطق.. فمثلًا حين يأمرنا الله بالعدل، ودفع الفساد؛ لن تجد من يختلف معك في مبدأ كالعدالة، وحين ينهانا الله عن العنصرية في قوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣) فلن يختلف معك إنسان - سليم الفطرة - على بشاعة العنصرية.. ويؤكد ذلك «محمد روزي باقي» في بحثه عن القرآن الكريم، والفطرة عندما يوضح أن: «كل ما جاء به القرآن الكريم متناسب مع الفطرة تمام التناسب، فلا خلاف بينهما؛ لأن الإسلام هو دين الفطرة، فيستفاد من الفطرة في فهم القرآن كما يستفاد من القرآن الكريم في معرفة الفطرة، ومظن الخلاف بين القرآن الكريم، والفطرة هو عدم فهم القرآن الكريم، وعدم إقامة الروابط، والعلاقات بين القرآن الكريم والفطرة» ، ويدلل (باقي) على ذلك بقوله ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الروم: ٣٠)؛ أي أن المبادئ التي جاء بها الدين يُطلق عليها كذلك الفطرة.

كما أنك حين تجادل بالحق والمبادئ الكونية تقيم الحجة على من أمامك -إن كان مؤمنًا بالكتاب والسنة- فإن لم يكن؛ فأنت -على الأقل- واثق من أنك على حق فلا تلهيك حججه الباطلة، ولاتصرفك عن مبادئك الواضحة المستقاة من القرآن الكريم.. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «لاريب أن الباطل لايقوم على دليل صحيح لاعقلي ولاشرعي سواء كان من

البريات، أو الطلبيات، فإن الدليل الصحيح يستلزم صحة المدلول عليه، فلو قام على الباطل دليل صحيح؛ لزم أن يكون حقًّا مع كونه باطلًا، وذلك جمع بين النقيضين مثل كون الشيء موجودًا، أو معدومًا».. لذلك فمن المفرِّقات بين الحق والباطل أن الباطل ليس له دليل صحيح بعكس الحق، ولأجل ذلك كان من الضروري -بادئ ذي بدء- استخلاص الأصول..

ويؤكد الإمام الغزالي على ضرورة استقاء الأصول، والموازين، والقياس عليها في كتابه (القسطاس المستقيم) حين يقول: «القسطاس المستقيم هو الموازين الخمسة التي نزلها الله ﷻ في كتابه، وعلم أنبياءه الوزن بها؛ فمن تعلم من رسول الله، ووزن بميزان الله فقد اهتدى.. ألم تسمع قوله في سورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾... هذا الميزان هو ميزان معرفة الله -تعالى-، ومعرفة ملائكته، وكتبه، ورسله، وملكه وملكوته، فتتعلم كيفية الوزن من أنبيائه كما تعلّموا هم من ملائكته».

إذن فالميزان هو القرآن الذي نزل من الحق بالحق، وتعاليم الرسل الكرام التي توضّح كيفية الوزن بهذا الميزان.. بل خلص إلى ذات النتيجة - وهي ضرورة الرجوع إلى الحق - فلاسفة غير مسلمين من أمثال «ديكارت» حيث توصّل إلى ضرورة الرجوع إلى نقطة إسناد (وهي نقطة مرجعية حقيقية خارجة عن عقله، ويستطيع عقله إدراكها بالبداهة)، وكانت نقطة الإسناد التي توصّل إليها ديكارت هي (وجود الله، والله بالنسبة لديكارت هو مصدر كل حقيقة، ومن هذا الإدراك لوجوده الشخصي، ومن إدراكه لوجود الله مصدر كل حقيقة؛ يصل ديكارت إلى نقاطه المهمة التي سيستند عليها في معرفة الحقائق الأخرى الموجودة خارجه). (توفيق شومر؛ مقال بعنوان العقلانية الشكّية عند ديكارت)..

وبجانب الدليل النقلي فهناك الدليل العقلي، وهو ما أدركه العقل في الموضوع الذي هو محل الاستدلال؛ كالاستدلال بخلق السماوات والأرض، وخلق أنفسنا على وجود الخالق ﷻ، وأنه عليم قدير حكيم، وهو -أيضًا- القياس والاستصلاح الذي سنتحدث عنه لاحقًا كأحد الأساليب المهمة لاستنباط الحق خاصة في عالمنا المتغيّر المتجدد بسرعة هائلة.. وبالرغم من كون هذه المفاهيم فقهيّة إلا أنها تحوي من المنطق والدقة ما يغرينا باتخاذها منهاجًا هاديًا لتمييز الحق عن الباطل حتى في القضايا العامة غير الدينية مع ترك المسائل الدينية، والفقهية لأهل الفقه والعلم.. ونخلص من هذا إلى أنه كي نصل إلى الحق لا بد من الرجوع إلى الأصول، وخير مكان لاستقاء الأصول هي الشرائع السماوية، والمبادئ الكونية التي لا يختلف عليها أصحاب العقول..

ولا يخفى أننا قد نختلف في تأويل النص، وتجد آخرين يتشبثون بنص حديث واحد (مغفلين سياقه ومناسبته) ومخالفين بذلك عموم دلالات القرآن والسنة، يقول الشيخ الغزالي: «إننا لانحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن القريبة أو البعيدة، وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ، والعلة القادحة، وإن صح سنده»، ثم يضيف في موضع آخر: «كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن أوّلًا، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع».

وقد يشكو البعض من عدم إحاطته بكل ما ذكره القرآن والسنة، أو عدم قدرته على استخراج سابقة يقيس عليها، أو من اختلاف الآراء في الأمر، وفي هذه الحالة فليكن المقياس هو (القسط) كما ذكر ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية): «إن الله ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات، فإذا ظهرت

أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان؛ فثَمَّ شرع الله ودينه»؛ لذلك حيثما كان العدل اعلم أن ثَمَّ شرع الله، وإن أُشكلت عليك النصوص..

٢ – دعك من الخلافات وابحث عن اللب

أولًا يجب أن تفرق بين أن يكون ما أمامك هو خلاف بين رأيين وتريد أن تقيّم، أيهما على حق، وبين أن يكون رأيًا واحدًا مغمورًا بالتفاصيل، وتريد أن تفنّده.. ففي الحالة الأولى عليك أن تتخلّص من الخلافات الفرعية، وتحاول أن تصل إلى لب الخلاف؛ ونرى هذا في حياتنا اليومية كثيرًا؛ فتجد اثنين قد اختلفا على أمر بسيط، ثم تراشقا بالكلمات واتسعت هوّة الخلاف بينهما حتى ما عاد أي منهما يذكر سبب الخلاف الرئيسي، وفي بعض الأحيان تجد أن الأمر مقصود، خاصة إن أراد أحد الطرفين أن يضيع الحق؛ فتجده يغرقك بتفاصيل فرعية لهذا الخلاف وتبعاته في الوقت الذي يتجنّب فيه التطرّق إلى نقطة الخلاف الأساسية، وهذا الأمر لا نراه فقط على مستوى الأفراد، بل على مستوى الحكومات والدول، ومن أمثلة ذلك محاولات إسرائيل إلقاء اللوم على المقاومة الفلسطينية تبريرًا لما ترتكبه إسرائيل من مجازر في حق أطفال فلسطين، فتغرقنا بتفاصيل العمليات الفدائية، وعدد القتلى الإسرائيليين، وكم من صواريخ حماس والقسام قد أصابتها، الأمر الذي قد يجعل بعضًا من ضعاف النفوس غير المطَّلعين على حقائق الأمور يشكون بأن إسرائيل القاتلة هي الضحية، ذلك أنها تمكنت – بكثرة ما أغرقتنا به من تفاصيل، وبعلو صوتها– أن تصرف انتباه بعضنا عن حقيقة أساسية واضحة وصارخة ألا وهي حقيقة الاحتلال، والاختلال الشديد في موازين القوى بين الطرفين، ناهيك عن القمع الذي تفرضه على شعب فلسطين في محاولة لخنقه بأبشع الوسائل في رقعة ضيّقة جدًّا من الأرض؛ ولكن لو أبقى الواحد منا عينه على القضية الرئيسية، وكانت

لديه سابق معرفة بخلفيات وحقائق الأمور؛ فلن تستطيع إسرائيل -أو غيرها من مروّجي هذه الأكاذيب- أن تصرف نظره عن الحقيقة الواضحة ألا وهي حقيقة الوجود غير الشرعي للاحتلال الإسرائيلي، والذي لاسبيل إلى مواجهته -كما أثبتت التجربة- إلا بقوة المقاومة.

ومن صور إلباس الحق بالباطل كذلك ما قاله المنافقون للرسول ﷺ بغزوة الأحزاب:

﴿ وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب: ١٣ - ١٤) انظر كيف ألبسوا الحق بالباطل، وألبسوا باطلهم ثوب الدين، وكأن مروؤتهم، وغيرتهم على أعراضهم هي التي تمنعهم من الدفاع عن الحق، ثم يكشف الله باطلهم، وخبايا نفوسهم في قوله إنهم لو سُئلوا تلك الفتنة التي تحججوا بها لآتوها.. ونرى ذلك في حياتنا اليومية مرارًا، وتكرارًا؛ فتجد كل إنسان يحاول أن يبرر جبنه، أو إعراضه عن الحق بغرض نبيل، ولو أخذ في الاعتبار فقه الأولويات؛ لثبت بطلان ادعائه، وضرورة أن يتبع الحق.. فمثلًا نجد طلاب المدارس يسوغون للغش في الامتحانات بوصفه تعاونًا، ونجد الحكومات تسوغ للقمع بادعاء أنه وسيلة للحفاظ على الاستقرار، ونجد من يسمي الرشوة هدية، بل ويستشهد بقول الرسول «تهادوا تحابوا» مغفلًا تمامًا الأمانة التي اؤتمن عليها، وأن (هدايا العمال غلول)، والأمثلة كثيرة، وما أسهل تسمية الأشياء بغير أسمائها..

وفي الحالة الثانية وهي حالة أن يكون أمامك رأي واحد تريد أن تفنده وليس خلافًا بين رأيين؛ فعليك أن تتخلص من التفاصيل الفرعية كذلك، وتصل إلى الأصل في الرأي، أو الرسالة الرئيسية في كلام من أمامك.. وما أن تصل إلى هذا اللب أو ذاك الأصل يمكنك أن تبدأ في تقييمه على أساس ما تعرف من أصول ومبادئ، ومن الجدير بالذكر أن من أمامك ليس بالضرورة عدوًّا، أو خصمًا تريد أن تدحض رأيه، أو تثبت بطلانه، بل قد يكون أخًا، أو

صديقًا التبس عليه الأمر، وغاية كليكما هي الوصول إلى الحق؛ وما أسماها من غاية!..
ونضرب مثالًا على ذلك بخطابات الرؤساء، والمشاهير فنجد أنه في جميع هذه الخطابات غالبًا ما يكون هناك نقطة محورية يحاول المتحدث توصيلها، فيدبج الواحد منهم -أو بالأحرى مكتب العلاقات العامة الخاص به- الخطاب، ويحشوه بالأقوال، والأشعار، والقصص، والنكات وكل ذلك ليخدم غرضًا واحدًا ألا وهو إيصال هذه الفكرة، وهذا هو أسلوب الخطابة الأمريكي الذي على الرغم من حرفيته العالية إلا أنه قد يُساء استخدامه لإقناعك بأمر يُخالف قناعاتك، وذلك بمجرد لفّه، وتجميله بحلو الكلام.. وهذا من أساليب الإقناع، والخطاب الشهيرة الذي يسمى بأسلوب (الشطيرة) أو الـ (Sandwitch)، وهو أسلوب ناجح جدًّا؛ لأنه يخاطب سيكولوجية الإنسان، ويعطيها ما تحتاجه من ثناء، ويعتمد هذا الأسلوب على أن توصل رسالتك التي إن قيلت وحدها وبصورة مباشرة ربما قد تهين من أمامك، لكن إن غطَّيتها بالمديح على طريقة عسل - سم - عسل، أي أن تبدأ بالثناء على من أمامك، ثم تقول رسالتك، ثم تنتهي بالمديح مجددًا؛ لوجدت من أمامك لا يتأثر إلا بالمديح، بل وقد تتركه سعيدًا جدًّا على الرغم مما قد يتضمنه كلامك من نقد، وهو أسلوب طيب إن أُحسِن استعماله للنصح والإرشاد لا للخداع، أو التهديد المبطّن كما يفعل بعض رؤساء الحكومات والدول؛ فمثلًا إن نظرنا في خطاب (أوباما) الذي أثار ضجة هائلة في العالم الإسلامي يوم ٤-٦-٢٠٠٩، ونال حفاوة شديدة من الناس على اختلاف توجهاتهم؛ لوجدنا أنه قد أبطن نفس الرسالة الأمريكية ذات النبرة المتعالية، وأقر ذات القناعات التي أقرها من قبله جورج بوش (بأسلوبه الجلف)، إلا أن أوباما كان من الذكاء أن أبطن هذه الرسالة في ثناءٍ على الإسلام، واستشهادٍ بآيات من القرآن، والإنجيل؛ ففتح بذلك قلوب المستمعين والمشاهدين العرب له، ثم لم يلبث أن حشا عقولهم بذات الرسالة الأمريكية

المساندة لإسرائيل على طول الخط، إلا أن الفارق أننا أصبحنا أكثر استعدادًا لقبولها بما ألهانا به من الالتفاف حول هذا الموضوع الأساسي.. وذاك جد خطير، ويحتاج أن يكون الإنسان على وعي دائم، واتصال بالحقيقة كمن لايفتأ (يقرص) نفسه ليتأكّد من أنه مازال على أرض الواقع، وهكذا يجب أن يكون حالنا مع كل ما يقدم لنا من أقوال، وحقائق مهما اختلفت الوجوه، والظروف.. علينا أن نركّز في محاولة استخلاص الرسالة الأساسية، ففي حالة خطاب الرئيس الأميركي (أوباما) للعالم الإسلامي لم تكن الرسالة الأساسية هي الآيات القرآنية، ولا آيات الإنجيل، بل كانت الرسالة أن سياسة أميركا واحدة، وأن مصلحة إسرائيل هي الأهم شئتم أم أبيتم، مهما اختلف شكل القائل، سواء كان أبيَض، أو أسودَ، ومهما اختلف مكان إلقائه: بمصر كان أم بأميركا.

خلاصة الأمر هل تغير على أرض الواقع شيء؟ لا ولن يحدث إلا بأيدينا... وهذا الأمر لا يتوقف على خطابات السياسة، بل يكاد يسري في كافة مناحي الحياة، فعلى الواحد منّا أن يضع ما أسميه رادار كشف الباطل - دومًا - على حال الاستعداد مهما بدا مَن أمامك متسامحًا.. ويتضح ذلك في كثير من أقوال المستشرقين ممن يكتبون، أو يحاضرون عن تاريخ العالم العربي، والإسلامي، فتجد الواحد منهم يثني على الرسول ﷺ مثلًا، ثم لا يلبث أن يضع في وسط المديح جملة صادمة تعبّر عن رأي، أو قناعة شخصية له، ولكنّها لا أساس لها من الصحة، كأن يقول إن الرسول ﷺ كان يحب الاستكثار من النساء (وحاشاه، ويكفي للمحقق أن ينظر في زيجاته، وكيف كانت معظم زوجاته من الأرامل، والضعاف، وكبيرات السن اللاتي ما عاد لهن من ولي بعد استشهاد أزواجهن في سبيل الإسلام) إلا أنك تشفق ألا تمررها في وسط كل ما قال من كلام طيب، فلا تجرؤ على الاعتراض، وهذا خطأ بالطبع،

ولكنه حرجٌ لا بد وأن نعترف أنه يقع فيه الكثيرون.. وكل هذا يؤكّد على ضرورة البحث عن الأصل في كل الأمور، وعدم الاغترار بكثرة التفاصيل عند محاولة تقييم أي أمر.

٣- سعة المعرفة وتعدد المصادر

قد يعتمد الباطل على ثقتك العمياء بمصدره كونه حكومة، أو وكالة أنباء معروفة، أو رجل ثقة، وما إلى ذلك.. ومن خلال ولائك هذا قد يمرر لك مجموعة من الأكاذيب لايقبلها عقل إنسان لديه ذرّة من المعرفة بما يتم الترويج له، والطريقة الوحيدة لمواجهة هذا الأسلوب هو أن توسع مصادر معرفتك، وألا تقبل أي قولٍ كأمرٍ مسلّمٍ به دون أن تمرره على عقلك كي يفنّده، ويتأكّد من عدم وجود متناقضات فيه، أو مخالفات صريحة للأصول، والمبادئ، أو حقائق الأمور.. وإن شككت في صحة خبر، أو رقم من أرقام الضحايا مثلًا فلا يضيرك أن تنظر في صحف الخصم ماذا تقول، وبين هذا وذاك أعمل عقلك؛ أيهما يبدو لك أقرب إلى الحقيقة، ومن لديه داعٍ أكبر للكذب؛ أهو المجرم أم الضحية، أم أنهم يقلبون لك الأمور؟ وكما ذكرنا فلقد قامت الناشطة الأميركية بفلسطين (أليسون وير) من خلال بحثها المستمر وراء الأخبار بكشفٍ مذهلٍ بيّن كذب، وادّعاء معظم وكالات الأنباء العالمية تحيُّزًا لإسرائيل، وتسترًا على جرائمها..

وعن قيمة العلم والبحث، يقول (سفيان بن عيينة) في فضل طلب العلم: «الورع طلب العلم الذي يعرف به الورع، وهو عند قوم طول الصمت، وقلة الكلام، وما هو إلا ذلك، فإن المتكلم العالم أفضل عندنا، وأورع من الجاهل الصامت».

من ناحية أخرى يجب أن يكون لديك إلمام بأقوال المخالفين، وحجج المبطلين حتى تستطيع أن تفنّدها؛ لأنك إن لم تستمع إلى ما يدّعيه المبطلون، فكيف لك أن ترد حججهم؟

بل ربما وضعك هذا الجهل بأقوالهم في حالة مفاجأة، واندهاش حين تسمع لأقوالهم تلك لأول مرة، مما قد يفقدك قوة منطقك، فتؤذي الحق بدلًا من أن تجليه.. ويؤكّد ذلك الدكتور (حمد بن عثمان) الذي ذكر عن (حذيفة بن اليمان) أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)، وقال قبيصة بن عقبة: «لا يفلح من لايعرف اختلاف الناس»، وقال شيخ الإسلام: «وكل من كان بالباطل أعلم، كان للحق أشدّ تعظيمًا، وبقدره أعرف إذا هُدي إليه».

وإذا ما رجعنا إلى مثال الفتوحات الإسلامية، وجاء لك من يقول إن الإسلام انتشر بحدّ السيف، بينما تعلم جيدًا أنه قد انتشر فى معظم البلاد المفتوحة بالعدل، والإحسان، ستسارع إلى ردّه بما لديك من سابق معرفة، ولكنه قد يضرب لك أمثلة من التاريخ حدث فيها غبن لغير المسلمين، كمثال الحاكم بأمر الله، وأمره مع أقباط مصر، وما يذكر من أنه أكره كثيرين من أهل الذمة على الإسلام، فإن كنت جاهلًا بهذه الواقعة؛ فقد تفاجأ بها، وتسارع إلى نفيها بالرغم من أنها حقيقيّة -للأسف- وسجّلتها كتب التاريخ المنصفة، فتفقد حينها مصداقيتك، لأنه كيف الآن لمن وثق أن لديك الحجة أن يجد أن لديك معلومات ناقصة؟ ولايستبعد أن يستنتج أن رأيك قد يكون غير مبني على أساس سليم بالتبعية، وهنا يصبح انغلاقك، وجهلك بأقوال المخالفين ضررًا لا نفعًا للحق.. أما إن كنت على دراية بهذا الأمر؛ فلن تسارع لنفيه، بل بالأحرى إلى دحضه بأنه -وإن كان صحيحًا- يمثّل حالة فردية سلبية من بين عشرات الحالات التي عومل فيها غير المسلمين خير معاملة على مدى فترة الحكم الإسلامي التي امتدت ما يناهز الثلاثة عشر قرنًا، ولرددت هذا القول بأنه لايجوز أن نحكم على أحوال أهل الأمصار تحت الحكم الإسلامي بحالات فردية، وللعلم فمن المعروف أن شطحات الحاكم بأمر الله كانت على المسلمين، وغير المسلمين سواء، الأمر الذي لا يمكن

رده إلى الإسلام بقدر ما يمكن رده إلى غرابة أطوار الرجل، وحتى غرابة ظروف اختفائه بين ما أشيع عن أن أخته (ست الملك) قد قتلته، أو أنه اختفى ومات بأحد الجبال...إلخ.

والجدير بالذكر أن الخليفة الظاهر قد سمح لهؤلاء الأقباط فيما بعد بالعودة إلى دينهم، فارتد كثير منهم سنة ٤١٨هـ، وهذه هي قمة التسامح في حرية الاعتقاد التي كفلتها الفتوحات الإسلامية لكل أهل البلاد التي فتحتها.. ومما سبق يتضح ضرورة المعرفة بأمرين؛ جميع الحقائق المتعلقة بالموقف الذي تبحث فيه، وجميع ما يمكن أن تضع يدك عليه من آراء المخالفين..

٤- القياس إلى أصل معروف

تكمن أهمية القياس في أن نصوص الوحي من الأدلة النقلية محصورة، في حين أن الحوادث، والأمور المتجددة لا تنتهي، ومن ثم كانت أهمية القياس وهو ما يمكن أن نسمّيه بالدليل العقلي.. وإن كان القياس مفهومًا فقهيًّا إلا أنه علم له أصول، وقواعد نستطيع تطبيقها في أمورنا اليومية غير المتعلقة بالفقه.. وشرط القياس أن يستند الرأي إلى أصل معتبر به من الأصول التي أجملناها سابقًا..

ويعتمد القياس على الدليل العقلي جنبًا إلى جنب مع الدليل النقلي، ويوضح د. (فاديغا موسى) الباحث بجامعة الإمام محمد بن سعود في أطروحته الشيقة (أصول فقه الإمام مالك – أدلته العقلية) ما نعني بالدليل العقلي في قوله: «معرفة الفرق بين نوع الدليل العقلي الذي يعتمده الفقه الإسلامي، وبين نوع الدليل العقلي الذي يعتمده القانون الوضعي أمر مهم خاصة في الوقت الحاضر، فاعتماد الدليل العقلي في الفقه الإسلامي ليس المقصود به العقل المجرد -كما هو في القانون الوضعي- بل المقصود به العقل الذي يستند إلى الكتاب، والسنة،

ويضع مقاصد الشريعة نصب عينيه في كل ما يصدر عنه من قياس، أو استحسان، أو استصلاح، أو استصحاب، أو سدّ الذرائع، أو فتحها، أو غير ذلك من الأدلة العقلية»..

وهكذا فإن شرط القياس، وإن كان عقليًّا أن يلتمس في القرآن والسنة نورًا يهتدي به، وأن تكون غايته تحقيق مقاصد الشريعة من حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال..

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في شرح المقصود بالمصلحة: «فكل من يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة.. وكل مايفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة.. وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة، والزجر عنها يستحيل ألاتشتمل عليها ملّة من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق» ، وهكذا فإن التبس الأمر على الشخص، واحتار بين رأيين؛ فعليه أن يأخذ بأقربهما إلى المصلحة، وأقلهما ضررًا عملًا بالقاعدة الفقهية (دفع الضرر مقدمٌ على جلب المنفعة)؛ لأن دفع الضرر يحفظ أحد هذه الأمور الخمسة، ومن ثم كان الأولى بزيادة المصلحة..

ولكي نستطيع أن نستعمل القياس في أمور حياتنا علينا أولًا أن نفهم أقوال العلماء فيه، والقواعد التي قعدوها للاستنباط، ونسترشد في ذلك بشرحٍ بسيط للشيخ ابن عثيمين: «القياس لغة: التقدير والمساواة، واصطلاحًا: تسوية فرعٍ بأصل في حكمٍ لعلّة جامعة بينهما.

- **فالفرع**: المقيس.
- **والأصل**: المقيس عليه.
- **والحكم**: ما اقتضاه الدليل الشرعي من وجوب، أو تحريم، أو صحة، أو فساد، أو غيرها.
- **والعلة**: المعنى الذي ثبت بسببه حكم الأصل، وهذه الأربعة أركان القياس، والقياس أحد الأدلة التي تثبت بها الأحكام الشرعية».

ونستخلص من ذلك أننا نحتاج القياس حين يكون لدينا الرأي، أو الفرع، ولدينا كذلك الأصل وهو ما نقيس عليه لنستنبط الحكم الذي أُشكل علينا في الفرع..

والقياس فقهيًّا يعتبر دليلًا شرعيًّا، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويُجمِل الشيخ ابن عثيمين بعضًا من هذه الأدلة فيما يلي: (من أدلة الكتاب)

١ - قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الشورى: ١٧)، والميزان: ما توزن به الأمور، ويقايس به بينها.

٢ - قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (فاطر: ٩) فشبَّه الله ﷻ إعادة الخلق بابتدائه، وشبه إحياء الأموات بإحياء الأرض، وهذا هو القياس.

ومن أدلة السُّنة:-

١ - قوله ﷺ لمن سألته عن الصيام عن أمها بعد موتها: (أَرَأَيْتِ لو كَان على أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِهِ؛ أَكَان يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟ قَالَتْ: نَعَم؛ قَالَ: فَصُومِي عَن أُمِّكِ).

٢ - عَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسولَ الله، وُلِدَ لِي غلَامٌ أَسْوَد؛ فَقَالَ هَل لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ مَا أَلْوَانُهَا، قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَّى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ. (صحيح البخاري)

وهكذا جميع الأمثال الواردة في الكتاب والسنة دليل على القياس لما فيها من اعتبار الشيء بنظيره.

ومن أقوال الصحابة:-

١- ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في كتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء قال: (ثُمَّ الفَهْمَ الفَهْمَ فِيمَا أُدلِيَ إِلَيْكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قرآنٍ وَلَا سنَّة، ثم قَايِسِ الأُمورَ عِنْدَ ذَلِكَ، واعرِفِ الأَمْثَالَ والأَشْبَاهَ، ثم اعمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى الله فِيمَا تَرَى، وأَشْبَهِهَا بالحَقِّ)؛ قال ابن القيم: وهذا كتاب جليل تلقّاه العلماء بالقبول.

٢- وحكى المزني أن الفقهاء من عصر الصحابة إلى يومه أجمعوا على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، واستعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام..

ويستمر الشيخ ابن عثيمين في شرح شروط القياس، ومنها:

١- ألَّا يصادم دليلًا أقوى منه، فلا اعتبار بقياسٍ يصادم النص، أو الإجماع، أو أقوال الصحابة إذا قلنا: قول الصحابي حجة، ويسمى القياس المصادم لما ذكر: (فاسد الاعتبار).

مثاله: أن يُقال: يصح أن تزوِّج المرأة الرشيدة نفسها بغير ولي قياسًا على صحة بيعها مالها بغير ولي؛ فهذا قياس فاسد الاعتبار لمصادمته النص، وهو قول النبي ﷺ: (لا نكاح إلا بولي).

٢- أن يكون حكم الأصل ثابتًا بنص، أو إجماع؛ فإن كان ثابتًا بقياسٍ لم يصحّ القياس عليه، وإنما يُقاس على الأصل الأول؛ لأن الرجوع إليه أولى، ولأن قياس الفرع على الفرع -الذي جعل أصلًا- قد يكون غير صحيح، ولأن القياس على الفرع، ثم الفرع على الأصل تطويلٌ بلا فائدة.

مثال ذلك أن يُقَال: يجري الربا في الذُّرة قياسًا على الأُرز، ويجري في الأُرز قياسًا على البُرِّ، فالقياس هكذا غير صحيح، ولكن يقال: يجري الربا في الذُّرة قياسًا على البُرِّ؛ ليقاس على أصل ثابت بنص.

٣ - أن يكون لحكم الأصل علّة معلومة؛ ليمكن الجمع بين الأصل، والفرع فيها؛ فإن كان حكم الأصل تعبُّديًّا محضًا لم يصحّ القياس عليه.

مثال ذلك أن يُقَال: لحم النَّعَامة ينقض الوضوء قياسًا على لحم البعير لمشابهتها له، فيقال: هذا القياس غير صحيح لأن حكم الأصل ليس له علة معلومة، وإنما هو تعبُّدي محض على المشهور.

٤ - أن تكون العلّة مشتملة على معنى مناسب للحكم، يعلم من قواعد الشرع اعتباره؛ كالإسكار في الخمر، فإن كان المعنى وصفًا طرديًّا لامناسبة فيه لم يصحّ التعليل به؛ كالسواد، والبياض مثلًا.

مثال ذلك: حديث ابن عباس ﷺ أن بريرة خيِّرت على زوجها حين أُعتِقَت، قال: وكان زوجها عبدًا أسود، فقوله: (أسود) وصف طردي لامناسبة فيه للحكم، ولذلك يثبت الخيار للأَمَة إذا أُعتِقَت تحت عبد، وإن كان أبيض، ولا يثبت لها إذا أُعتقت تحت حر، وإن كان أسود.

٥- أن تكون العلّة موجودة في الفرع كوجودها في الأصل؛ كالإيذاء في ضرب الوالدين المقيس على التأفيف، فإن لم تكن العلّة موجودة في الفرع لم يصحّ القياس.

مثال ذلك أن يقال: العلّة في تحريم الربا في البُرِّ كونه مكيلًا، ثم يقال: يجري الربا في التفَّاح قياسًا على البُرِّ، فهذا القياس غير صحيح؛ لأن العلّة غير موجودة في الفرع، إذ إن التفاح غير مكيل.

ونستطيع أن نرى كيف يمكن تطبيق هذه المبادئ بسهولة في أمور حياتنا اليومية، مع التأكيد على أنه في المسائل الفقهية من الأولى أن نرجع إلى العلماء ليفتونا في الأمر، ولكن مع ما يعرض لنا من أمور يومية على شاشات التلفاز، وكمية ما يطرح فيها من آراء، فكل هذا

يستدعي من الواحد أن يطوّر قدرة سريعة على الحكم، والاستنباط كي لا يغرق في سيل التفاصيل التي - للأسف - كثيرًا ما تكون أباطيل مبطنة في الحق..

ولكي نطبق القياس بطريقة سليمة علينا أن نرى إذا ما كان الرأي المعروض علينا يصادم دليلًا أقوى منه، أو أصلًا من القرآن، أو السنة، أو العدل عمومًا فحينها يسقط هذا الرأي في مقابل ما هو أقوى منه وهو الأصل، وهذا يسهل علينا.. فمثلًا إن ذهب أحد إلى تبرير القمع، والتعذيب الذي تلجأ إليه بعض الحكومات الدكتاتورية كمبرر لحفظ الاستقرار؛ فإن لدينا في القرآن والسنة، بل والشرائع الإنسانية مئات الأدلة التي تجرّم هذا الفعل، بدءًا من آيات التحذير من البغي في الأرض، وانتهاءً بالآيات التي تحض على العدل حتى ولو أخطأ من تعاقبه في حقك يومًا مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)..

ويقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨)، وثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يعذّب الذين يعذبون الناس في الدنيا» (رواه مسلم)، وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعرضه» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما؛ قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس.. » (رواه مسلم)؛ وخطب عمر بن الخطاب في إحدى خطبه فقال: «إني لم أبعث عُمّالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فُعل به ذلك فليرفعه إليّ أقصّه منه، فقال عمرو بن العاص: لو أن رجلًا أدّب بعض رعيته أتقتص منه؟ قال: إي والذي نفسي بيده، ألا أقصه، وقد رأيت رسول الله ﷺ أقص من نفسه».

وإن كان المقيس عليه هو في الأصل قياس على أصل آخر، أو قياس على قياس، فهذا قياس واهٍ، والأحرى أن نعود إلى الأصل الأساسي لنقيس عليه، فمثلًا من المعلوم في التاريخ أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عطَّل حدّ السرقة في حادثة معينة بزمن المجاعة، فإن جاء من يقيس على ذلك فخفف حدّ القتل مثلًا في زمن مجاعة، أو قحط قيل إن هذا قياس باطل؛ لأن السرقة غير القتل، وما فعله عمر كان اجتهادًا شخصيًّا محكومًا بظروف، وسياق العصر الذي وُجِد فيه عمر، وأحوال ذلك الزمان، وكذلك ظروف الحادثة التي تمّ فيها ذلك، فلم يكنِ الأمر على إطلاقه كما يظن البعض، كما أن الذي يقيس لا بد أن يكون بعلم عمر رضي الله عنه لا علم العوام..

أما إذا كان الحكم في الأصل لا علة معلومة له، فهو أمر تعبُّدي بحت؛ إذن فهو خاص بهذا الأمر، ولا يجوز القياس عليه، كتقبيل الحجر الأسود مثلًا، فهل يُقاس عليه أن يُقَبَّل كل حجر؟ لا؛ لأن العلة في تقبيل الحجر غير معلومة، وهي مربوطة بهذا الحجر خصيصًا لمكانته، وموضعه من بيت الله..

الأمر الرابع هو أن تكون العلّة مشتملة على معنى مناسب للحكم؛ فمثلًا قد يخرج علينا من يقول إنه لا يجوز القيام بتظاهرات ضد الحاكم الظالم؛ لأن الأصل هو طاعة ولي الأمر في كل الظروف قياسًا على طاعة الصحابة لرسول الله ﷺ، وطاعة المسلمين من بعده للخلفاء الراشدين، لكن من يقول هذا يجب ألا يغفل أن هذه الطاعة مرتبطة بعلّة، ألا وهي إجماع الأمة، وإقامة العدل، كما أن الاعتراض على وضع ظالم ليس خروجًا على الحاكم، بل نصحٌ له، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم»، وقوله ﷺ:

«إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطانٍ جائر»، وبذلك تنتفي علّتهم في قياس التظاهر على أنه خروج عن الطاعة؛ لأن الله ورسوله ما كانوا ليطلبوا من المسلمين أمرين متناقضين..

والأمر الأخير هو أن تكون العلة موجودة في الفرع كوجودها في الأصل، فمثلًا حين تقيس إسرائيل ماتقوم به من مجازر على أنه دفاع عن النفس، نرد بأن هذا القياس باطل لغياب العلة ألا وهي أن من شروط الدفاع عن النفس ألا يبدأ الإنسان بالعدوان، فلا يكون قامعًا، أو قاتلًا، أو محتلًّا في الأساس، وذلك كي يستحق أن يوصف بالضحية، أو بالمدافع عن نفسه، الأمر الذي لانجده في حالة إسرائيل، فهي محتلة لأرض فلسطين، وتفرض على الشعب الفلسطيني حصارًا حديديًّا، وتقطع عنه الماء، والغذاء، وتعرِّضه لأشد أنواع التنكيل، والمجازر اليومية، فكيف بعد هذا كله تدَّعي أنها تدافع عن نفسها؟!

ومن أمثلة ذلك -أيضًا- محاولة البعض قياس معاهدة (كامب ديفيد) على (صلح الحديبية)، الأمر الذي لايجوز لعدم وجود العلة، فالرسول ﷺ عقد الصلح كي يتفرّغ لقتال اليهود بالمدينة شمالًا، ويأمن شر كفار قريش من الجهة الجنوبية، وفي الوقت نفسه فإن صلح الحديبية كان محدودًا بمدة زمنية ألا وهي عشر سنوات، بينما اتفاقية كامب ديفيد اتفاقية مفتوحة، ولم تكن بهدف إعداد العدة، أو تقوية الشوكة كما كان الحال في صلح الحديبية بل بالعكس، فقد ترتب عليها تقليص عدد الجيش، والأسلحة وفقًا لبنود المعاهدة.. الأمر الآخر هو أنه يجب ألا ينظر الواحد منا إلى صلح الحديبية أبدًا خارج سياق ما تبعه من نصر للإسلام بفتح مكة، وإلا يكون بذلك قد ظلم هذه الحادثة التاريخية ظلمًا فادحًا.. وقد ذهب بعض الفقهاء إلى تصنيف صلح الحديبية على أنه من الوقائع النبوية التي لايجوز القياس عليها؛ لأنه لم يكن ليتم لولا وحي الله إلى نبيه بقبول ما قبل به لعلم عند الله بعاقبة الأمور، ويصنفون الصلح على أنه (قضية عين لا عموم لها).

ويضيف الدكتور سليم العوَّا الأمين العام لاتحاد العلماء المسلمين، والمفكر الإسلامي المعروف قائلًا: «إن الله ﷻ قد نسب صلح الحديبية إلى نفسه، وسماه في محكم كتابه فتحًا مبينًا؛ فأنى لأي حاكم في أية دولة إسلامية، بعد الرسول ﷺ أن يضمن أن مايعقده من معاهدات يؤيده فيه الله -عز وجل- بنصره، وهدايته، وتمام نعمته؟ ومن هنا فإننا لا نرى القياس على صلح الحديبية أصلًا »؛ وفي هذه الحالة يمكن أن نقول -أيضًا- إن هذا القياس يناقض الشرط الثالث من شروط القياس، وهو أن يكون لحكم الأصل علة معلومة.. ونناقش هذا الموضوع بتفصيل أكبر في فصل (كامب ديفيد، وصلح الحديبية).

وهكذا نرى كيف أن قواعد فقهية كالقياس ما هي إلا خطوات لاستنباط الحق وتفنيد الباطل، يمكن استعمالها في أمورنا الحياتية اليومية ما دام لدينا الأصول التي نستند إليها، والعقول التي نقيس بها..

٤ - ابحث عن السياق

يمكن تعريف السياق بمدلوله العام على أنه (الإطار العام الذي تنتظم فيه عناصر النص، ووحدته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجُمل فيما بينها وتترابط، بحيث يؤدي مجموع ذلك إلى إيصال معنى معيَّن، أو فكرة محددة لقارئ النص) ، ونفهم من ذلك أن السياق يمثل جزءًا رئيسيًّا من سلامة، أو نزاهة المعنى؛ فإن أخرج الكلم عن مواضعه -ومن ثَمَّ سياقه- صار له معنًى مختلف، والأمثلة على ذلك كثيرة.. فمثلًا: كثيرًا ما يستخدم أعداء الإسلام الآية الكريمة ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ (البقرة: ١٩١) على أنها دليل على تشجيع الإسلام على العنف، وسفك دماء غير المسلمين، مُغفِلِين تمامًا سياق الآية، ومناسبة نزولها.. وهذا أمر قد يهز ضعاف العقول، والقلوب معًا لضعف معرفتهم، وقصور فهمهم

للقرآن، في حين أنهم لو نظروا إلى سياق الآية المكاني -أي ما قبلها وما بعدها- لوجدوا قول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٠ - ١٩٢).. ونفهم من هذه الآيات أن الله ينهانا عن قتال من سالمنا، ومن لم يبدأنا بالعدوان، وألا نعتدي، ولكن إن اعتُدي علينا سواء بالحرب، أو بالمؤامرة، أو بالمنع من نشر هَدي الرسالة؛ فلا بد من رد العدوان، وهو الأمر البديهي في جميع حالات الحرب والمقاومة.. أما بالنسبة للسياق الزمني (مناسبة، وتوقيت نزول الآية) فقد أشار بعض المفسرين كابن عباس أن توقيت نزول هذه الآية تلا صلح الحديبية حين أعدَّ الرسول ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء، وخشوا أن يصدّهم الكفّار عن المسجد الحرام، وألا يفُوا بعهدهم، وتحرَّج المسلمون أن يقاتلوهم في الأشهر الحُرُم، فنزلت هذه الآيات لترفع عنهم الحرج مشترطة أن يقاتل المسلمون الكفار فقط في حالة بدأ الكفار لهم بالقتال.. ومن هنا تتضح أهمية أخذ السياق بعين الاعتبار عند تقييم أي قول.

ومن حيل الباطل الشهيرة كذلك إخراج الكلم عن مواضعه، وهو ما يصفه الله ﷻ في القرآن الكريم بقوله: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء: ٤٦)، ويترتب على ذلك ما يصفه ابن القيم بـ(الشبهة) وهي (واردٌ يرد على القلب يحول بينه، وبين انكشاف الحق له)؛ وتحريف الكلم عن مواضعه له أساليب عدة مثل:

١ - لبس الحق بالباطل، وذلك أن يقول المبطلون قولًا باطلًا في الأصل، أو في الغرض، ثم يلبسونه ثوب الحق؛ كأن يقول الواحد مثلًا إن الرشوة كالهدية... فيكون أمثال هؤلاء كمن

خاطبهم الله ﷻ في قولـه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١).

ومن الأمثلة التاريخية المشهورة لإلباس الحق بالباطل قولة الخوارج (لا حكم إلا لله) بعد أن رضي عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالتحكيم عقب موقعة صِفِّين، حينها ثار الخوارج؛ لأن فكرهم المحدود صوّر لهم أن التحكيم هو (حكم الرجال في أمر الله)، وأنَّ حكمَ الله في الأمر واضح فلا يجوز التحكيم الذي يتضمن الشك في أي الفريقين على حق؛ فقالوا إن هذا لايجوز، وكان بينهم مغرضون يريدون الفرقة، وإثارة الفتنة، فأضلوا بهذه القولة كثيرين، وجعلوهم يخرجون على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ويتطاولون عليه بما لايليق بصهر رسول الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأبي الحسن والحسين سيِّدَيْ شباب أهل الجنة.. ولقد ناظرهم ابن عباس رضي الله عنه في هذا الرأي، وظهر عليهم بحجته، وعِلمِه القويّ.. وحين سمع عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قولتهم تلك؛ أدرك على الفور أنها ليست إلا إلباسًا للحق بالباطل، وقال قولته المشهورة: (قولة حقٍّ أريد بها باطل).. وهذه مقولة دقيقة جدًّا تبين مبدأً مهمًّا في استنباط الحق ألا وهو النظر إلى الغرض من وراء القول، وليس النظر في القول فقط.. فقد يكون القول سليمًا تمامًا إن تجرّد من غرض الشخص، والسياق الذي دفعه لقوله.. ومما يُذكر في السياق، ويتعرّض بغرض القائل من قوله: الصيغة التي قيل بها القول فمما يذكره عباس العقاد في معرض حديثه عن الجدل والسفسطة أن: «السؤال الخطابي قد ينقض الحقيقة إذا ورد في صيغة الخطاب دون أن يزيد حرفًا، أو كلمة، ومن أمثلتهم على ذلك أن مجرمًا قُضِيَ عليه أن يقف في جمع حافل، ويشهد على نفسه بالسرقة؛ فينادي فيهم (أنا مجرم)، ويكررها ثلاث مرات.. فلما وقف في الجمع الحافل نادى كما أمروه، ولكن بصيغة الخطاب، فطفق

يقول كأنه يستفهم ويستنكر: أيها الناس: أنا مجرم؟ أنا مجرم أيها الناس؟.. فكان في صيغة السؤال الخطابية إنكار للاعتراف الذي أرادوه عليه دون أن يزيد حرفًا، أو كلمة في عبارة الاعتراف» ؛ وقد قيل إن (لكل مقام مقال)، وكما سبق أن ذكرنا أنَّ وضع الكلام -وإن كان صحيحًا- في غير موضعه يبطله، لذلك لا بد أن يكون الواحد منا حذرًا فيما يقبل من كلام بالنظر إلى ثلاثة أمور: صحة القول المجرد، غرض القائل، السياق المحيط بهذا القول: لماذا قيل، ومتى، وبأي صيغة قيل؟..

مناظرة ابن عباس ﷺ للخوارج

قال ابن عباس ﷺ: أتيت عليًّا قبل صلاة الظهر، فقلت أبرد بالصلاة لعلِّي أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم فقال: إني أخاف عليك؛ فقلت: كلا -وكنت رجلًا حسن الخُلق- لا أُوذي أحدًا فأذن لي، فلبست حُلَّة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجلت فدخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهادًا، جباههم قرحة من السجود، وأياديهم كأنها ثَفِنُ الإبل، وعليهم قمص مرحضة مشمرين مسهمة وجوههم من السهر، فسلمت عليهم فقالوا: مرحبًا بابن عباس، ما جاء بك؟ فقلت: أتيتكم من عند المهاجرين، والأنصار، ومن عند صهر رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله منكم، فقالت طائفة منهم: لاتخاصموا قريشًا فإن الله -عز وجل- يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف: ٥٨)؛ فقال اثنان، أو ثلاثة: لنكلمنه، فقلت: هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله، والمهاجرين، والأنصار، وعليهم نزل القرآن، وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله.

قالوا: ثلاثًا، قلت: هاتوا، قالوا: أما إحداهن فإنه حُكم الرجال في أمر الله، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٤٠) فما شأن الرجال، والحكم بعد قول الله عز وجل؟

فقلت: هذه واحدة وماذا؟ قالوا: وأما الثانية؛ فإنه قاتل وقتل ولم يَسْبِ، ولم يَغْنَم فإن كانوا مؤمنين فلِمَ حلَّ لنا قتالهم، ولم يحل لنا سبيهم، قلت: وما الثالثة؟ قالوا: فإنه محا عن نفسه أمير المؤمنين، فإنه إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين؛ قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا.

قلت لهم: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله أنا أقرأ عليكم فى كتاب الله ما ينقض هذا.

فإذا نقض قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم، قلت فإن الله قد صير من حكمه إلى الرجال فى ثمن ربع درهم، وتلا هذه الآية ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ (المائدة: ٩٥) إلى آخر الآية، وفى المـــرأة وزوجهـــا ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٣٥) إلى آخر الآية، فنشدتكم بالله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم، وفي حقن دمائهم أفضل، أم حكمهم في أرنب وبُضع امرأة؟ فأيها ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه.

قلت: خرجتُ من هذه؛ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قاتل ولم يَسْبِ، ولم يَغْنَم فتسبون أمكم عائشة ﵂ فوالله لئن قلتم ليست بأمّنا لقد خرجتم من الإسلام ووالله لئن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الإسلام. فأنتم بين ضلالتين لأن الله – عز وجل – قال: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (الأحزاب:٦) أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم محا عن نفسه أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون أن النبي يوم الحديبية صالح المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو. فقال لعليّ: اكتب لهم كتابًا فكتب لهم عليّ هذا ما اصطلح عليه رسول الله فقال المشركون: والله ما نعلم أنك رسول الله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله

وصحبه وسلم-: اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا عليّ. اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، فوالله لرسول الله خير من عليّ وقد محا نفسه، قال فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فقتلوا.

١ - إخراج الكلام عن سياقه، فلا يكتمل المعنى الذي لا يكتمل إلا بالسياق، وهو ما سبق أن بيَّنَّاه في شرح معنى السياق؛ والمثل المشهور على ذلك من يقتطع (لاتقربوا الصلاة) من الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣)، وكأن القرآن ينهانا عن الصلاة في حين أنه لا بد من إكمال الآية وإلا تغير المعنى تمامًا، وهذا هو السياق المكاني.

٢ - التأويل الباطل، أو الخطأ؛ ونستخدم في ذلك نفس المثال السابق حيث قد يذكر الواحد الآية كاملة وهي ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣) إلا أنه قد يؤولها بأن القرآن لاينهانا عن شرب الخمر، والمسكر، وإنما ينهانا عن الصلاة، ونحن تحت تأثيرها فقط أي (سُكارى)، الأمر الذي يغفل السياق الزماني ألا وهو أن حكم هذه الآية كان تدريجيًّا، وتم إكماله في فترة لاحقة بتحريم شرب الخمر نهائيًّا، وفي كل الأحوال في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠)، وكانت الحكمة في هذا التباعد الزمني التَّدرُّج في التحريم في الأمور التي ألفتها العادة، وذلك من رحمة الله بالبشر، وعلمه بطبائعهم التي يصعب عليها ترك العادة.

من خواطر الشيخ الشعراوي حول آية: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣)

إن الله ﷻ من رحمته بمن يشرع لهم جعل في مسائل العادة، والرتابة مرحليات، فهذه مرحلة من المراحل: (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى).. والخمر عندما يشربها الإنسان تمنع تدفق الفكر والعقل، فأخذ من هذا المعنى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) المفهوم أن

الصلاة تأخذهم خمسة أوقات للقاء الله، والسكر والخُمار، وهو ما يمكث من أثر المسْكِر في النفس، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران، فيمتنع في الأوقات المتقاربة.. إذن فقد حملهم على أن يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السُكر.

وماداموا قد اعتادوا أن يتركوها طوال النهار وحتى العشاء، فسيصلي الواحد منهم، ثم يشرب، وينام، إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب، هذه مرحلة من المراحل... وعندما يريد الحق ﷻ أن يأتي بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة، فالنصيحة ليست حكمًا شرعيًّا، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار، يقول الحق: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

هو –سبحانه– شرح القضية فقط وأنت حرٌ في أن تختار فقال: ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ولكن الإثم أكبر من النفع، فهل قال لنا ماذا نفعل؟ لا لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجح من نفسها الحكم، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه، فسبحانه قال: (وإثمهما أكبر من نفعهما) فمادام الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدائل؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين، ثم تعرف أقل البديلين شرًّا، وأكثر البديلين خيرًا.

فحين يقول الحق: (فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) إذن فهذه نصيحة، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان، ويستأمن الله على نصيحته؛ لكن لا حكم هنا، فظل هناك ناس يشربون، وناس لايشربون، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصلي، وقرأ سورة (الكافرون)، ولأن عقله قد سُدَّ، قال: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما

تعبدون) فوصلت المسألة ذروتها، وهنا جاء الحكم، فنحن لانتدخل معك سواء سكرت، أم لا، لكن سكرك لايصح أن يؤدي بك أن نكفر في الصلاة، فلاتقربِ الصلاة وأنت مخمور.

هذا نهي، وأمر، وتكليف... وبعد ذلك حدثت الحكاية التي طلبوا فيها أن يفتي الرسول ﷺ في أمر الخمر، فقالوا للنبي: بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزل قوله الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠) إذن فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ (النساء: ٤٣) مرحلة من مراحل التلطيف في تحريم الخمر.

السياق التاريخي

ومن المهم إن كان الإنسان يقيم حدثًا في حقبة ماضية أن ينظر كذلك إلى السياق التاريخي؛ لأن لكل عصر خصوصيته، وظروفه، ومقتضياته، والنظام العالمي نفسه يتغير بتغير الزمن، فمثلًا كان العالم فيما مضى محكومًا بممالكَ تُعد على الأصابع، وبمرور الوقت تحول إلى دول بعضها استعماري، وبعضها مستعمر، والآن استقلت معظم الدول ولو صوريًّا.

خلاصة القول إن العالم في تغيُّر مستمر، ومن ثم لايجوز النظر إلى الحدث مجردًا من سياقه التاريخي.. ويوضح سيد قطب هذه القاعدة في كتابه (في ظلال القرآن) فيقول إنه «ينبغي أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة، ولانخلط بين دلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل..» أي أن لكل نص قرآني دلالتين؛ إحداهما مرحلية، والأخرى عامة، وذلك لعالمية القرآن، ومناسبته لكل زمان ومكان مع الإبقاء على خصوصية الدلالة المرحلية.. وهكذا تتضح أهمية السياق في فهم المعنى؛ يقول الإمام الشاطبي في (الموافقات): «المساقات تختلف باختلاف الأحوال، والأوقات، والنوازل فالذي يكون على بال من المستمع، والمتفهم، والالتفات إلى أول الكلام

وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا يُنظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية -وإن اشتملت على جُمل- فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرَّق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض » .

السياق يؤدي إلى الإنصاف

يقول الدكتورفاروق حمادة (أستاذ السنة، وعلومها بجامعة محمد الخامس بالرباط) -أيضًا- عن أهمية السياق: «إن معرفة السياق، واستيعابه يدل على نضوج العقل، وهو سبيل يؤدي إلى الإنصاف، وكشف الحقائق».

لذلك كان من الضروري عند محاولة استنباط الحق البحث دومًا عن السياق المحيط بهذه المسألة، مكانيًّا كان، أو زمانيًّا حتى يكتمل المعنى، وحتى يثق الفرد أنه قد أحاط بمعظم ما يتعلق بالمسألة حتى يستطيع أن يصدر حكمًا منصفًا فيها؛ فمثلًا حين تخرج المقاومة المسلحة من السياق الذي أوجب وجودها -ألا وهو الاحتلال- تصبح عنفًا، وعدوانًا، ولكن حين تضعها في سياقها السليم تصبح مبررة، بل ومطلوبة كذلك.

ونذكر في النهاية نوعًا دقيقًا من السياق، لايمكن تصنيفه كسياق مكاني، أو زماني بحت، بل هو سياق شخصي يتعلّق بالشخص الذي نطق بالقول الذي نريد أن نفنِّده.. ففي كثير من الأحيان قد تجد من يقول لك كلامًا يبدو في ظاهره معقولًا، وقد توافق، وتثني عليه كلية إن صدر عن شخص آخر، ولكن لعلمك المسبق بخلفية قائله، وأن هذا القول لايتّسق مع مواقفه السابقة، تبدأ في التساؤل عن دوافعه لمثل هذا القول، ليتَّضح لك أنه إنما يقول حقًّا يريد به باطلًا.. وتجد هذا كثيرًا في أقوال السياسيِّين بالذات، فقد تجدهم يُسمِعون كل طرف

ما يريد أن يسمع، لكن لخدمة غرض ما في نفوسهم، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ (البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥).. والمثال القريب على ذلك خطاب أوباما للعالم الإسلامي -كما سبق أن أشرنا- والذي أثنى فيه على الإسلام، والمسلمين، وأظهر التسامح معهم، ولكنه ما أراد بهذا إلا تخدير الشعوب العربية العاطفية ليمرر ذات المخطط الاستعماريّ المؤيد لإسرائيل على طول الخط -بل وفي الخطاب نفسه- فإن لم يكن الواحد منا مطلعًا على تاريخ الشخص، ومواقفه سهل أن ينخدع بقوله، والحل الوحيد لذلك أن يفكر الواحد منا في دوافع من أمامه، وهل يتسق قوله هذا مع مواقفه السابقة، فإن لم يكن يعرف فليُجْرِ بحثًا صغيرًا عنه؛ ليعرف مواقفه السابقة، وتوجّهه العام، حينها يسهل عليه التمييز إن كان حقًّا أُرِيد به حقٌّ، أم حقًّا أريد به باطل!

٥- ذاكرتك

إن أحد أنجح أساليب الباطل في طمس الحقائق ينبع من أنفسنا، ومن ضعف ذاكرتنا، وتسامحنا في جرائم تمارس ضدنا، وضد إخواننا بشكلٍ يومي.. يقول (ديفيد بريشو) (الباحث في قسم العلوم السياسية بجامعة كنساس الأميركية) في بحثه عن الذاكرة السياسية: «الغزو الإعلامي، والثقة بالحكومة تزيد من قابلية الإنسان للنسيان في حين أن التعليم، والمعرفة السياسية تزيد من مقاومته»، ومن الخطير في الأمر ما يخلص إليه من أن (عدم الدقة في الذاكرة الذاتية يمكن ربطه بالتصرفات السياسية المستقبلية) فمثلًا من نسي أخطاء أحد المرشحين الفادحة السابقة من المحتمل أن يعيد انتخابه مجددًا.. وهذا أمر خطير، ولايمكن الاستهانة به -كما أشرنا في باب (ضعف الذاكرة) كأحد معوقات الوصول إلى الحق- لما يترتب عليه من نتائج أقل ما توصف بالكارثية على مستوى الدول، والشعوب. وتقوية

الذاكرة هو أمر مطالب به المسلم، وبالأخص في الأمور التي قد يترتب عليها إلحاق الضرر بالمسلمين خاصة، والإنسانية عامة، ويتضح ذلك من قول الرسول ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ». (أَخْرَجَهُ أحمد)

ولعل أول أمر نذكره في تحسين الذاكرة المتعلقة بالأحداث ليس له علاقة مباشرة بأساليب الذاكرة بقدر ما هو أن يكون الإنسان مهتمًّا في الأساس بمتابعة أخبار المسلمين، وغير المسلمين من تطورات سياسية، وحروب، وخلافات، لأنه إن لم يكن مهتمًّا، فما الذي يدعوه إلى بذل الجهد في التذكّر! وبالرغم من ضعف الحديث: «مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ المسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُم» (رواه البيهقي) إلا أن هذا المعنى قد تضمنته أحاديثُ كثيرة صحيحة عن الرسول ﷺ مثل: «مَثَلُ المؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم، وَتَرَاحُمِهِم، وَتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ، وَالحُمَّى» (رواه البخاريُّ ومسلم)، وحديث «المؤمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيَان، يَشُدُّ بَعْضُه بعضًا»، وشبَّك بين أصابعه (متَّفقٌ عليه)؛ وإنه لأمر بديهي أن يهتم المسلم بأمر إخوانه، وما يتعرضون له، وإلا ما استحق لقب الإيمان.. وتكمن فائدة الاهتمام، بل على حسب وصف الرسول الدقيق: التداعي، وكأننا نشتكي من مثل ما يشتكون في أن الإنسان يتذكر الشيء الذي يؤثر فيه، ويهزّ عالمه الآمن، فإن اهتممنا بالحدث، وتأثرنا به؛ لصَعُب علينا نسيانه، ولقد أثبتت الأبحاث العلمية أننا نتذكر الأحداث المأساوية أفضل، ففي البحث الذي قام به بعض الباحثين بجامعة كاليفورنيا، اريفن، وُجد أن (الأحداث الحيادية عاطفيًّا لاتخزن كذكريات طويلة المدي عمومًا، وعلى الجانب الآخر فإن الأحداث المثيرة عاطفيًّا، مثل أحداث ١١ سبتمبر، غالبًا ما يتم تذكرها أفضل بعد تجربة واحدة لأنها تنشط الأميجديلا «جزء من المخ لوزي الشكل، مسؤول عن التطور العاطفي، والتعلّم».

وكي نتجنب السقوط في دائرة اللامبالاة حين يصبح ضحايا المسلمين مجرد إحصائيات، وأرقام لا حيوات أشخاص، ومآسي عوائل، علينا أن نطبق المبدأ الثامن (ضع نفسك مكان الآخرين)، ونحاول أن نتخيل لو كنا في نفس موقفهم، بماذا كنا سنشعر، وماذا كنا نحب أن يقدم لنا إخواننا؟ أليس أقله بعض الاهتمام؟! ومن هنا كانت أهمية التظاهرات، والمؤازرة، ولو عبر وسائل الإعلام على الأقل، فحتى إن كانت آثارها غير ملموسة على المستوى السياسي، أو الدولي، فهي على الأقل ملموسة على مستوى الشعوب من ناحية إظهار التضامن، والتآزر حتى ولو كان معنويًّا لا ماديًّا، وهي نوع من التذكرة، وذلك أضعف الإيمان..

الأمر الثاني هو أنه لكي تكون هناك ذاكرة، فلا بد من أن يسبق هذا متابعة للأحداث أولًا وإلا كانت ذاكرتنا كذاكرة الكمبيوتر المؤقتة الـ(RAM): كل حدث جديد يمسح ما سبقه، وكأن ما كان لم يكن.. ولقد تحدثنا عن المتابعة بالاطلاع في المبدأ التاسع (أوجد الوقت للقراءة، والاطلاع)، ويكفي أن ينظر الواحد منا كيف لا ينسى اليهود محارق الهولوكوست، فيلاحقون كل من كان له صلة بها، ويحرصون على تذكير العالم بها بشكل دائم من خلال الإعلام، بل وحتى يقيموا المتاحف لها، ويخلدوا ذكرى شخصيات يعلم الله أكانت موجودة في الأساس أم اختلقوها! وها هو برنامج علاء الدين الذى أقرته هيئة اليونسكو، ووافق عليه -للأسف- وزراء عرب، وخلاصته الموافقة على تدريس المحرقة فى المناهج الدراسية بالبلاد العربية ليقف الأطفال، والشباب العرب على (العذاب) الذي لاقاه اليهود على يد النازية، ويتعاطفوا معهم، وينسوا المحارق اليومية التي يقيمها الإسرائيليون لأهلنا في غزة -من قنابل عنقودية، وفسفورية، ومساميرية، وأخرى بها يورانيوم منضّب- على مدى السنين الماضية،

ناهيك عن الحصار الظالم المفروض عليهم، أليس هذا دليلًا على أن اليهود لاينسون في حين أن العرب كأنهم جُبِلُوا على النسيان؟!

وبينما هناك أساليب عدة لتقوية الذاكرة العادية، والقدرات العقلية مثل أنواع خاصة من الغذاء، أو بالتمرينات العقلية وهي مذكورة في كتب كثيرة (كتاب الذاكرة - هاري لورين، وجيري لوكاس)، و(كتاب خرائط العقل - لتوني، وباري بوزان وغيرهما كثير)، فإن الذاكرة الضميرية للإنسان، والشعوب لاسبيل لشحذها إلا بالتفاعل مع الحدث، واستشعار آلام من يعيشونه، هنالك لن ننسى، وهنالك لن نُلدَغ من الجحر مرتين..

٦- اعرف من المستفيد

في كثيرٍ من الأحيان يكون الإنسان أكبر عدوًا لنفسه، ومن الأقوال المأثورة أن (الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديقًا لغيره) في إشارة إلى أن الجهل آفة تودي بكل من يحتك بها، وأكبر مستفيد من جهل الفرد هو عدوه، وأكبر مستفيد من جهل الأمة هم مستعمروها، والطامعون فيها؛ وكلّما حوَّلنا أنظارنا إلى أمرٍ ألمَّ بالأمة، ونال استحسان من لايعنيهم مصلحتها، بل يطلبون انهيارها، فعلينا أن نعلم أن هذا الأمر ينطوي على ضرر بالغ، وأنه لا بد من الابتعاد عنه، واجتثاث الفتنة من جذورها، ولعل أقرب مثال على ذلك، الفرقة والجفاء التي تقع بين الحكومات العربية بين الفينة والفينة لأتفه الأسباب، بل بين الشعوب العربية، وبعضها، وهذه الفرقة -ودعنا نسمي الأشياء بأسمائها- ونقول الفتنة بين الشعوب مقصودة غالبًا لما تخلقه من عداوات مِنْ لا شيء، فلو حاولت تقصي جذورها؛ لوجدتها أسبابًا واهية قد تعود إلى أفراد بأعينهم، وليست توجّهًا لشعب كامل إلا أن أياديَ خفيّة قد عبثت بها، ونفخت في النار الهواء لتضخّمها عن حجمها الأصلي التافه، والمحزن في الأمر أننا في كل

ذلك منقادون، نسقط في الفتنة بأرجلنا مصداقًا لقول الله ﷻ ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (التوبة: ٤٩).

ولذلك وقبل أن تتبنى رأيًا ما، عليك أن تسائل نفسك أولًا ما الذي قد يدفع صاحب الرأي المعروض إلى تبنّيه، هل تراه مستفيدًا؟ هل لديه القوة، وخصمه ضعيف؟ فإن كان لديك شك في أي من ذلك؛ فعليك أن تبحث أكثر وراء ما يقال لك.. وهذا الالتباس الذي قد يحدث بات منتشرًا مؤخرًا حين تشابكت المصالح، وتعددت الصفقات مع غياب القيم، واستشراء الفساد، وعبادة السلطة والمال.. وصار الواحد منا يرى مسؤولين بدولة ما ورجال فكر يدعمون رأيًا معينًا ضد جهة ما، ثم يبررون دعمهم هذا بغاية نبيلة كي يخفوا نواياهم الحقيقية التي غالبًا ما تكون شخصية، وضارة بعموم الناس.. وحينها علينا ألا نكتفي بالنظر إلى ما يقدمه هؤلاء من آراء، وعلينا ألا نُحسِن النية في زمن قد بيعت فيه النوايا خاصة إذا ما كان في الأمر مكاسبُ مادية، أو معنوية، بل علينا أن نحرّك رؤوسنا تلقاء الجهة المقابلة، تجاه العدو، أو الجهة المستفيدة، فإن وجدنا أن هذا العدو يُفيد من هذا الرأي، أو التوجّه بالدرجة الأولى فعلينا نبذه على الفور، وأن نعلم أن هناك صفقة ما مبرمة مقابل شحن الرأي العام باتجاه معين، وصرفه عن لب المشكلة.. وحتى إن كانت النوايا حسنة من قِبَل من هم محسوبون علينا -ولو ظاهريًّا- فلعلهم مخدوعون، ومسيرون بإرادة العدو طالما أن العدو هو المستفيد الأول من هذا التوجه..

ولعل هذا الأمر لايتضح إلا بمثال، فكلنا رأينا مؤخرًا الفتن التي أُثيرت في العالم الإسلامي، بين سُنّة وشيعة، وجناح المقاومة وجناح السلام، ووجدنا أن بعض سياسات الدول الإسلامية تتجه نحو إشعال هذه الفتن لا وَأدِها، إما بناءً على (أجندة) مشتركة مع العدو بهدف بقاء حكام هذه الدول في السلطة مقابل تبنّيهم مواقفَ معيّنة، وإما لأنهم -

بالفعل- قد اختلط عليهم الأمر، وما عادوا يميّزون بين العدو الحقيقي، والعدو الخيالي..

وهذا ما يشير إليه الشيخ على محيي الدين القره داغي (أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول بكلية الشريعة، جامعة قطر) في معرض حديثه عن الحروب، والفتن التي تتعرض لها الأمة الإسلامية حين يقول: «نلاحظ تغييرًا في أسلوب الهيمنة الغربية على منطقتنا، فقد دخلت عليه تغييرات نوعية، بل قل استراتيجية جديدة بعد أسر لويس التاسع في مصر، والذي أعد هذه الاستراتيجية الجديدة، ونجح في نقلها إلى القادة الغربيين عندما تم إطلاق سراحه، وأهم ما توصل إليه لويس التاسع في استراتيجيته الجديدة هو أنه لا سبيل إلى التغلب على المسلمين بالحرب المباشرة، وخاصة إذا كانت ذات شعارات دينية معلنة، وسبحان الله، هذه سُنّة الله أن هذه الأمة لايمكن أن تهزم من خلال العدو الخارجي، والقتال المباشر كما جاء في الأثر عن النبي ﷺ، وعليه فيجب تغيير الأمر إلى الحرب بالوكالة من داخل المسلمين أنفسهم أي إثارة الفتن، والاختلافات بينهم ليحارب بعضهم البعض، ونكتفي نحن بالتحريض، ومساعدة الأطراف المتقاتلة حتى تستمر المعارك، والتوترات كلّما خبت فتنة أُوقِدَت أخرى، وهكذا وهذا ما نراه الآن».

ولو أردنا أن نكون بعيدين عن العواطف، وأن ننظر إلى الأمر نظرة عقلانية بحتة فما علينا إلا أن نحوِّل أنظارنا تجاه إسرائيل، والولايات المتحدة ونتساءل: أوليسوا هم المستفيد الأول من قتال العرب بعضهم بعضًا كي يتفرغوا هم لاحتلال أراضينا، ونهب ثرواتها؟

إن المستفيد (من هذه الحروب) هو العدو الذي يبحث عن أن تبقى هذه الأمة في تنافر، وتناحر بين مكوّناتها حتى يحقق هو أهدافه كيفما يريد.

ومن الأمثلة على ذلك -أيضًا- الخلافات العلمية، وما يترتب عليها من شحناء بين الناس، فمما يذكره الشيخ الغزالي في كتابه السنة النبوية: «إن السلطات المستبدة قديمًا، وحديثًا

تسرّها الخلافات العلمية التي لا تمسها! هل الشك ينقض الوضوء أم لا؟ هل رؤية الله في الآخرة ممكنة، أو ممتنعة؟ هل قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي؟

إن حكام الجور يتمنون لو غرق الجمهور في هذه القضايا فلم يخرج! لكنه يشعر بضرر بالغ عندما يقال: هل الدولة لخدمة فرد أم مبدأ؟ لماذا يكون المال دولة بين بعض الناس؟ هل يعيش الناس -كما ولدوا- أحرارًا أم تستعبدهم سياط الفراعنة حينًا، ولقمة الخبز حينًا؟».

وهكذا تجد الحكومات المستبدة دومًا تشجع، وتبارك التوجهات الفكرية التي تُعنَى بظاهر الدين، وتدخل العامة في قضايا غير حيوية لمصلحة الفرد والأمة، فإن حدّثت أصحاب هذه التوجهات عن جور الحكام، أغمضوا أعينهم، وكأنك جئت شيئًا إدًّا، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض شقًّا، وقالوا -وكأنهم يقولون قرآنا، وما هو بقرآن- (طاعة ولي الأمر واجبة، فليس لنا إلا أن نقول سمعًا وطاعة) متناسين آراء مجموعة أخرى من الفقهاء الكبار الذين يرون أن طاعة ولي الأمر منوطة بإقامة العدل.. بل من أصحاب هذا الفكر من يرون أي فعل إيجابي -كمظاهرة، أو غيرها- مظهرًا للخروج، مع أن أفضل الجهاد -في سُنَّة نبينا العدنان- قولة حق في وجه سلطان جائر؛ ألم يقل أبو بكر الصديق في خطبته المشهورة: «أما بعد أيها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله؛ فلا طاعة لي عليكم».. إلا أن هؤلاء يؤولون طاعة الله بإقامة الصلاة، وليس بالضرورة العدل! فهل الظلم من طاعة الله في شيء؟! وهل إقامة الصلاة حركات تُؤَدَّى، وأذان يُؤَذَّن له فقط، فماذا عن إغلاق المساجد،

وملاحقة المصلين بانتظام، ومراقبة خطب الجمعة، وحبس من يخرج عن الخط المرسوم من قبل المسؤولين في الخطبة! وهكذا كان المستفيد الأكبر من غرق العامة في هذه الخلافات حكام يرتعون، ومستعمرون يخربون، ويقتلون.

إذن، فمهما حاول البعض تأجيج الفتن؛ تبقى حقيقة واحدة ألا وهي أنه رغم أن هناك اختلافات سواء في الطائفة، أو المذهب، أو الفكر بين شعوب المنطقة، أو حتى أفراد الشعب الواحد إلا أن العدو الرئيسي، الواضح، الحي، الجاثم فوق أنفاسنا هو الاحتلال الصهيوني، ولا سبيل لحل مشاكلنا إلا بدفع هذا العدو أوّلًا، عملًا بالقاعدة الفقهية التي تقول: «دفع الضرر مقدّم على جلب المنفعة».. ولا يتأتى ذلك إلا بنبذ الخلافات الفرعية لأصحاب الطائفة الواحدة، والمذاهب المختلفة، والتركيز على الأرض المشتركة بين أصحاب الطوائف المختلفة، والمصير الواحد مع التأكيد على أنه لا نفع في الخلاف، والشحناء..

٧- ضع نفسك في مكان الآخرين

كثيرًا ما يُصدِر الواحد منا أحكامًا قاسية على الآخرين بغير النظر إلى الظروف المحيطة بهم والتي لا بد أنها أثّرت على اختياراتهم، وننسى أن اختيارات الإنسان تتدخل بها الكثير من العوامل التي قد نخبرها، أو لا نخبرها.. وإن فكر الواحد بالأمور مجرّدة، وعارية من كل التفاصيل؛ لربما وصل إلى قرار يبدو له الأفضل، لكن بالنظر إلى ما تسمح له به ظروفه، وما تتيحه إليه طاقته، ومسؤولياته يضطر إلى اتخاذ قرار آخر ليس بالضرورة الأفضل، ولكنه الأنسب..

لذلك قبل أن نصدر حكمًا على أمر من الأمور، علينا أن نضع أنفسنا في مكان من نحاكمه، وننظر إن كانت لدينا خيارات أفضل مما اختار.. فبعض الأمور التي قد تبدو منكرة

للوهلة الأولى قد تبدو معقولة إن لم تكن مبررة إذا ما أخذنا في الاعتبار الظروف المحيطة بها..

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ (الرعد: ١٧)، وتشير هذه الآية الكريمة إلى النار الحامية التي تُعرض عليها المعادن بأنواعها، ومنها الذهب، والفضة بقصد إزالة شوائبها، وما خَبُث فيها، وفي أثناء عرضها على تلك النار تطفو على سطحها طبقة تسمى (الخَبَث) أشبه برغوة الصابون التي تطفو على سطح الماء، تحمل كل الشوائب، وتنفصل بها على السطح، ويبقى جوهر المعدن الأصيل الذي ينتفع به الناس، فيصنعون منه أدواتهم، ويستعينون به على قضاء حوائجهم.

وكذلك حين تُوقَدُ نار عقلك بالتفكير في الأمور بأبعادها المختلفة، سيذهب مع هذا الزَّبد كل التحامل الذي أظهرته للوهلة الأولى، لأنك -الآن- في موقف أفضل لتقدير موقف، ومعاناة من حكمت عليه سابقًا.. وقد قال جعفر بن محمد: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذرًا واحدًا إلى سبعين عذر، فإن أصبته، وإلا؛ قل لعل له عذرًا لا أعرفه».

ويقول الرسول ﷺ: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين، والمنذرين ».(رواه البخاري ومسلم)

وإن تعذر عليك أن تتخيل نفسك مكان الآخر، فحاول أن تستمع إلى وجهة نظره، فإن كان شعبًا، أو شخصية عامة فحاول أن تشاهد فيلمًا تسجيليًّا يصف طبيعة حياته، ومعاناته، ثم احكم بنفسك على طريقة تصرفه.. فإنك إن لم تغير رأيك، فلربما قللت من حدتك، وقساوة حكمك؛ والأمثلة على ذلك عديدة لكن أشدها ألـمًا، ووضوحًا هي الأحكام التي يصدرها البعض على المقاومة الفلسطينية المشروعة.. وغالبًا ما تكون هذه الأحكام مقصّرة ومن ثم قاسية؛ ويرجع ذلك إلى النظر إلى المقاومة الفلسطينية في خارج سياق الاحتلال،

وهذا غبن، ووضع للأمور في غير موضعها، لأن الجزء الأساسي من شرعية المقاومة الفلسطينية المسلحة هو واقع الاحتلال المرير، فمَنْ نَظَر إلى المقاومة خارج هذا الإطار لوصفها بالعنيفة، أو الدموية.. ومن المعلوم تاريخيًا أن طبيعة الاحتلال تفرض طبيعة المقاومة، وكلنا يذكر المقاومة الجزائرية الباسلة في مواجهة الاحتلال الفرنسي، وقد كانت مقاومة مسلحة، ولم تتحرر الجزائر إلا بعد أن قدمت مليونًا من الشهداء، وكلنا يذكر المقاومة الليبية في مواجهة الاحتلال الإيطالي، والمقاومة المصرية في مواجهة الاحتلال الإنجليزي، والتي كانت تفجر دوريات جنود الاحتلال في منطقة القناة، بل إن المقاومة الفرنسية نفسها كان لديها قانون يقضي بإعدام كل من يتعاون مع الجستابو الألماني، وحتى الأمريكيون تخلصوا من سيطرة الإنجليز على أميركا الشمالية بالمقاومة المسلحة.. ويضاف إلى ذلك أنه بالرغم من أن جميع أنواع الاحتلال بشعة، ومستنكرة إلا أن الاحتلال الإسرائيلي هو أكثرها دموية، ووحشية، وتشهد بذلك الأرقام والإحصائيات عن عدد المجازر التي قامت بها عصابات إسرائيل، ولاتزال تقوم بها ما تسمى دولة إسرائيل.. وهل ننسى مثلًا مجزرة (صبرا وشاتيلا) بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين بلبنان ١٨/ ٩/ ١٩٨٢ والتي استمرت ثلاثة أيام، وقُدِّر عدد الضحايا فيها بحوالي ٣٥٠٠ شهيدًا فضلًا عن مئات الجرحى، وإن كانت الذاكرة لا تسعفك؛ فلاتزال دماء ضحايا مجزرة غزة ٢٠٠٩ ساخنة، والتي قارب فيها عدد القتلى من الفلسطينيين ١٢٥٨ شهيدًا، و٤٨٥٠ جريحًا (الموسوعة الإلكترونية العربية ar.wikipedia.org)..

هذا مع العلم بأن الاحتلال الإسرائيلي لايكتفي بالقتل الممنهج، ولكنه يجعل الحياة شبه مستحيلة لمن بقي على قيد الحياة، فيفرض الحصار على الدواء، والغذاء، ويقيم جدار فصل عنصري، ويحرم الطلبة من الذهاب إلى جامعاتهم، ومدارسهم، بحيث لا يترك للشعب الفلسطيني متنفسًا.. ومن ثَمَّ لم تعد المقاومة خيارًا فحسب بل صارتِ الحل الوحيد.

وفي ظل هذه الظروف الخانقة، والتضييق الشديد كان لا بد للمقاومة من أن تتخذ أساليب جديدة، ومفاجئة كي تَقَضَّ مضجع إسرائيل (و للعلم فهذا هو هدف المقاومة، حتى وإن لم يذهب الاحتلال فعلى الأقل لاتجعله ينام مِلْءَ جَفْنَيْهِ).. ولأجل كل ذلك، فمن الظلم أن يأتي بعض ممن يجلسون على مكاتبهم في الغرفات المكيفة ليصدروا أحكامًا على شعب فلسطين بدون أن يقاسوا ظروفه، أو حتى يدرسوا سياقه، ومنطلق مقاومته، ذلك لأنه على الرغم من اشتراكنا جميعًا في الحق الضائع، والمصير إلا أن شعب فلسطين هو الذي يعاني الاحتلال، وليس نحن، لذلك فهو خير من يختار وسيلة مقاومة هذا الاحتلال لا نحن.

هناك قول إنجليزي مأثور ألا وهو «إنك لا تتعلم شيئًا حين تتكلّم»، فحين تكون أنت المتحدث لا تعرف شيئًا عمن أمامك، ولكن ليس عليك إلا أن ترتاح قليلًا، وتعطي لمن أمامك فرصة للحديث، وكثيرًا ما يكون الواحد منا قد كوّن وجهة نظر معينة تجاه أمر من الأمور، وفي رغبة منه ألا يتغير، ونظرًا لارتياحه لوجهة النظر هذه التي تفسر له العالم من نظره؛ يرفض أن يستمع إلى وجهة نظر مخالفة، أو أن يستقبل معلومات جديدة لارتياحه بما لديه.

يقول ستيفن كوفي (مؤلف كتاب العادات السبع لأكثر الناس انتاجية): «معظم الناس لايستمعون بغرض الفهم، ولكنهم يستمعون بغرض الرد، فهم إما يتحدثون، أو يستعدون للحديث.. إنهم يقومون بتنقية كل شيء من خلال وجهات نظرهم في الحياة، فيقرأون سيرتهم الذاتية في حياة الآخرين».. ولذلك ولأجل أن نطور لدينا القدرة على التعاطف وفهم الآخرين، ينصح ستيفن بويد (مدرب معتمد ومتحدث مشهور) أن «حاول أن تعيش بقاعدة النصف بالنصف، فلا تَقْضِ أكثر من نصف وقت التواصل مع الآخرين في الحديث أنك تكون قوة معينة من خلال الاستماع، كلما تحدث من أمامك أكثر، كلما حصّلت معلومات

أكثر، وكلما تفهمت أفضل احتياجات المتحدث». ويكفي أن يعيش الواحد منا بهدي خير البشر وأكثرهم رحمة في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه البخاري ومسلم)، وهذه هي قمة التعاطف في التعاملات الإنسانية.

٨-أوجد الوقت للقراءة والاطلاع

عندما سُئل فولتير عمن سيقود الجنس البشري؛ أجاب: «الذين يعرفون كيف يقرأون، ويكتبون».. وأما عن حال العرب مع القراءة فهي حال مؤسفة، ويكفي الجملة المشهورة المنقولة على لسان وزير الدفاع الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧ عندما سُئل عن سبب عدم تغيير خطة هجومه حتى بعد نشرها بالصحف، ألا وهي أن «العرب لا يقرأون»!

ومن الإحصائيات المقلقة إحصائية منظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والتي تذكر أن «متوسط قراءة الطفل في العالم العربي لايتجاوز ٦ دقائق في السنة خارج المنهج الدراسي رغم ما للقراءة، والمطالعة خارج المنهج من أثرٍ كبير على المستوى التعليمي للطالب، ويقرأ كل ٢٠ عربيًّا كتابًا واحدًا بينما يقرأ كل بريطاني ٧ كتب؛ أي ما يعادل ما يقرأه ١٤٠ عربيًّا، ويقرأ كل أمريكي ١١ كتابًا؛ أي ما يعادل ما يقرأه ٢٢٠ عربيًّا»..

وكثيرًا ما قد يتعلل البعض بقلّة الوقت كي يبرر جهله بأمرٍ ما، أو سوء حكمه عليه.. وهذا عذر واهٍ لأنه كما بيّنّا سابقًا أن الإنسان عامة -والمسلم خاصة- مطالب بتقصّي الحقائق، والتعلم؛ لأن الجهل يؤدي إلى غياب الوعي، وما يترتب عليه من ضررٍ يلم بالشخص أولًا، وبالمجتمع من حوله ثانيًا.

السبب الثاني الذي يجعل هذا العذر واهيًا هو أن الادعاء بعدم توافر الوقت هو ادعاءٌ مبالغٌ فيه، وإلا لما وجدنا الوقت لمشاهدة المسلسلات، ومتابعة الأفلام، وبرامج الطهي كما يفعل معظم العرب للأسف! كما أن متابعة الأخبار، ولو مرّة أسبوعيًا لا تأخذ من الوقت

أكثر من ساعة قد نقضيها في نوم يزيد عن حاجتنا، أو في محادثة تافهة نسلي بها أوقاتنا.. وإهدار الوقت أمر خطير، وكما يشير أ.د. (علي وطفة) أن «تنمية الذات الفردية، وإعادة إنتاجها يشكلان أحد أهم المحاور الأساسية في تنمية الطاقات، والفعاليات المجتمعية، فطاقات المجتمع جمع متفاعل، ومتكامل لطاقات أفراده، والهدر في أوقات الفراغ أمرٌ قد يجاوز من حيث الأهمية الهدر في أوقات العمل»؛ أي أن إهدار وقت فرد هو إهدار لوقت المجتمع الجمعي، ومن ثم فهو مسؤول عنه.. ويعزي الدكتور (على وطفة) قلة الإقبال على المطالعة، وضعف الإبداع إلى أن «التلفاز قد قلل من أهمية اللعب عند الأطفال بوصفه أحد أهم النشاطات الفاعلة في عملية نمو الأطفال روحيًّا، وفعليًّا، وقد أدى إلى التأثير السلبي الكبير على أداء الواجبات المدرسية، وجعل من المطالعة، والنشاطات، والفعاليات الأخرى أمورًا ثانوية في حياتهم اليومية».

- **إن الأمر لا يستدعي من الإنسان إلا أن يأخذ نفسه بما يلي:**

١ – أن يبقى على اتصال بالعالم، بمشاهدة -ولو ربع ساعة- أخبار العالم يوميًّا من خلال قناة تلفزيونية، أو إذاعية، أو موقع إلكتروني إخباري معروف بحياديته (بقدر المستطاع).

٢– أن يقرأ يوميًّا قبل النوم، ولو نصف ساعة في كتاب تاريخي، سياسي، أو حتى اجتماعي لإعمال العقل، وتعويده التفكير، وتفنيد الآراء قبل قبولها، ومما ينصح به الدكتور (طارق السويدان – الكاتب، والداعية الإسلامي المعروف) بوضع خطة للقراءة، يقرأ الشخص خلالها كتابين شهريًّا أحدهما في تخصصه، والآخر خارج تخصصه كي يضع قدمه على طريق الثقافة..

٣– تعلّم القرآن، والسنة، والاطلاع على مختلف الثقافات إما بالقراءة، أو حضور الندوات أو مشاهدة الأفلام التسجيلية الهادفة، ولو ساعة واحدة أسبوعيًّا..

٤ - مصاحبة الأصدقاء الملتزمين دينيًّا ذوي الهمة العالية، والفكر المتفتح من المطّلعين..

فإن مارس الواحد منا هذه الأنشطة الأربعة، وصارت جزءًا من روتينه اليومي، ومن ثم الأسبوعي، فحينها يكون قد وقى نفسه خطر أن يَزِلّ في مستنقع ضحالة الرأي المترتب على ضعف الهمة في تقصي الحقائق.

٩- اعرف الحق تعرف الرجال

من المقولات المأثورة عن علي بن أبي طالب ﷺ: «لايُعْرَفُ الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله».. فالحق واحد مهما تعددت الآراء، والإنسان -مهما بلغت درجة حكمته، وبصيرته- عُرضَة للأهواء، وما قد يترتب عليها من زلل، لذلك إذا جعل الإنسان مرجعيته إلى واحد من البشر؛ فقد تحركه أهواؤه فيصير الحق عنده واهنًا، ولكن إن جعل الحق عنده مستمدًا من أصول ثابتة كقرآن، وسنة، ومعرفة بحقائق الكون، والدنيا؛ لصار الحق عنده ثابتًا لاتحركه الأهواء، أو الآراء يمنة، ويسرة.. يقول (معاذ بن جبل) فيما رواه أبو داود «احذروا زيغة الحكيم (أي زلة العالم)، ولايثنيكم ذلك عنه، فإنه لعله يراجع»..

وللأسف وبسبب ما فصلناه سابقًا من عقبات للوصول إلى الحق، من ضعف معرفة، وتقاعس عن أعمال الفكر، وغياب الفطرة السليمة، صار الكثيرون يتخذون شيخًا، أو مفكرًا، أو كاتبًا كمرجعية لهم؛ لأن مايقوله من آراء، أو توجهه الفكري العام يوافق طبائعهم، ويتركون الحق إن جاء على لسان إنسان مخالف له في الفكر، أو التوجه.. فيصير هذا الشيخ، أو المفكر هو عقلهم الذي يفكرون به، وعيونهم التي يرون بها، ولسانهم الذي ينطقون به، فلا يرون إلا ما يرى، ولا ينطقون إلا بما ينطق.. فإن زلَّ هذا الشيخ لا تعمل ضمائرهم لتكتشف الزلل، بل يكتفون فقط بتكراره كالببغاوات الناطقة؛ لأنهم اختاروا الطريق اليسير ألا وهو تعطيل هذه الضمائر، والعقول، وآثروا أن يضعوا ثقتهم العمياء بهذا الإنسان.. والخطير في

الأمر أنه بخلاف القضايا العامة قد يكون لهذا المفكر عداوات شخصية مع إنسان ما، فيترتب على ذلك أن يعادي محبو هذا المفكّر بالتبعية ذاك الإنسان بصرف النظر عن سبب العداوة؛ فيصير الأمر كما يصفه ابن القيّم: «إنّ حبك للشيء يعمي، ويصم عن تأمل قبائحه، ومساويه فلا تراها، ولا تسمعها، وإن كانت فيه».. من ثم صار هذا الأمر من أحد أهم أسباب ضياع الحق، واستشراء الباطل، والجمود الفكري.. ويذهب العقاد في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) إلى التهوين من خطر الحكم المستبد على الضمير الإنساني بالقياس إلى خطر العرف، أو خطر الخديعة من رؤساء الأديان مبررًا ذلك بأن: «الحكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه، ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف، أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من رؤساء الأديان، فهو مشكلة مكان لامشكلة عقل، أو ضمير؛ إما أن ينفضه الإنسان عنه في مكانه، أو يلوذ منه بمكان أمين، أما الحكم المستبد فكثيرًا ما يكون حافزًا للضمير إلى المقاومة محرضًا للعقل على الرفض، والإنكار».. وكي لاينساق الواحد منا وراء أهواء أحد، وكي يكون الحق عنده مصدرُه إعمال العقل، والوجدان لا التقليد الأعمى، يكفي أن نعمل بنصح الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) في قوله: «العاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول: فإن كان حقًّا؛ قبله سواء كان قائله مبطلًا، أو محقًّا... ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب، انتزع الإبريز الخالص من الزيف، والبهرج».. وأن نتعامل مع الحق كما تعامل معه الحافظ الذهبي حين قال عن شيخه الإمام ابن تيمية: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكنَّ الحق أحب إلينا منه».

ومبدأ أن يعرف الإنسان الحق أولًا، ثم يعرف أهله مبدأ مهم في معرفة الحق إلا أنه لايمكن النظر إليه بمعزل عن القواعد السابقة، وخاصة مبدأ (سعة المعرفة، وتعدد المصادر) وإلا استبدل الإنسان حكم هذا الشيخ بحكمه هو، وبذلك ربما يكون قد انتقل من حكم سيِّءٍ إلى حكم أسوأ! وسعة المعرفة من ناحية تجعل الإنسان يكتشف -بسهولة- التناقضات،

ويتساءل عن السياق، أما تعدد المصادر فهو يكشف الشواذ من الآراء، والمستغرب منها خاصة إذا كان هذا الرأي مخالفًا لعدة أشخاص ثقات في هذا المجال، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر فيه.. وهذا ما يوضحه الإمام الغزالي في تعقيبه «إنما يمنع من ساحل البحر الأخرق، دون السباح الحاذق، ويصد عن مس الحية الصبي دون المعزّم البارع».

١٠- استجوب نفسك: من لديك أكبر؟ نفعك أم رضا الله؟

على الرغم من أننا نذكر هذه القاعدة في النهاية إلا أنها قد تكون أهم القواعد السابقة، ذلك أن هناك من الناس من يستطيع أن يلوي الحقائق، بل ويخدع نفسه، ويقنعها بما يريد لمجرد أن يصل إلى قرار معين قد اتخذه سابقًا فيكون بذلك كمن تصفه الآية الكريمة:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣)..

لذلك من الضروري عند تطبيق هذه القواعد توافر أمر لا يمكن قياسه بأدوات القياس، ألا وهو صدق الإنسان مع نفسه.. فلا بد للواحد منا من لحظات خلوة لا يراه فيها إلا الله، يسأل الواحد منا فيها نفسه: ماذا أريد بهذا البحث؟ هل أريد الحق فعلًا، أم أريد دليلًا مقنعًا على أن رأيي هو الصواب؟.. فإن كان الجواب هو الثاني فلا داعي للخوض في المسألة إلا بعد أن يجدد الإنسان نيّته، ويدعو الله مخلصًا أنه إن وجد الحق على غير هواه ليتبعنَّه..

يذكر د/ (راتب النابلسي) في درسه عن (الفكرة والتفكر) كيف أن لحظة تفكر واحدة حولت (نُعيم بن مسعود) من كافر يشرب الخمر إلى مسلم موحد يطلب النصر للمسلمين:

«ونُعيم بن مسعود هذا رجل كان في الجاهلية خليل متعة وشراب، غارق في الشراب - أي شراب الخمر-، وغارق في متعة النساء، وهو من غطفان.. فلمّا بلغته دعوة النبي ﷺ شعر أن هذه الدعوة تحد من شهواته، وتحرمه من ملذاته؛ فحاربها أشد المحاربة، فلما كانت معركة الخندق، وتوجهت غطفان لمحاربة النبي ﷺ، ولأنه أحد وجهاء غطفان خرج مع قبيلته

ليحارب النبي ﷺ، وبالطبع فقد نصبت غطفان الخيام حول المدينة في معركة الخندق.. ويروي (نعيم) قصته بشكلٍ مؤثر؛ فيقول:

«في إحدى ليالي الحصار كنت مستلقيًا في خيمتي، فبدأت أفكّر: يا نعيم لماذا جئت لمحاربة هذا الرجل الصالح؟ هل تحاربه لأنه سفك دمًا حرامًا؟ هل تحاربه لأنه اغتصب مالًا حلالًا؟ هل تحاربه لأنه فعل ما فعل؟ وما فعل شيئًا؛ أيُعقل يا نعيم أن تحارب رجلًا صالحًا؟! يا نعيم أين عقلك؟ أين ذكاؤك؟ هؤلاء الذين حول النبي ماذا فعلوا؟ آمنوا به، وصدقوه، واتبعوا النور الذي أنزل معه.. كيف تحاربهم؟ أيليق بك أن تحاربهم؟»

رجل مستلقٍ في الفراش، أو على أرض الخيمة، وهو يستعد لمحاربة النبي، يجري مع نفسه حوارًا ذاتيًا، مناقشة رائعة جدًّا، هذه المناقشة حملته على أن يقف، ويتسلل إلى معسكر المسلمين، ويدخل على النبي ﷺ ويقول له: يا رسول الله، قال له النبي: نعيم بن مسعود، قال: نعم يا رسول الله، قال له: ما الذي جاء بك؟ قال: جئت مسلمًا، جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله».

وبقية القصة معروفة، ومعلوم كيف خذل (نعيم بن مسعود) اليهود، والكفار عند محاربة المسلمين بعد أن أوقع بينهم..

ولا يكونن الواحد منا كـ(الوليد بن المغيرة) إذ سمع القرآن يتلى فوقع في قلبه، وعرف الحق لوهلة فقال: «والله لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر» وحينها خافت قريش من أن يسلم الوليد، وكان ذا مكانة بين أهله، ولربما يسلم من بعده كثيرون؛ فاتهموه أنه قد صبأ -أي اتَّبع دين محمد- فقال لهم الوليد: «وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه شاعر؛ فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنه كذاب؛ فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنه كاهن؛ فهل رأيتموه تكهّن قط، ولقد رأينا

للكهنة أسجاعًا وتخالجًا؛ فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله -وكان النبي ﷺ يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه-؛ فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال ما هو إلا ساحر!» فنزل فيه قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ١٨ - ٢٥).. وهكذا الإنسان إن فكر طلبًا للحق سيكون دومًا بين أمرين ينازعانه؛ إما حبه للدنيا، أو حبه للآخرة، وأما طلب الحق بغير أن يُخَاف فيه لومة لائم، أو طلب الجاه، والخوف على المكانة.. فإن كانت الدنيا في قلب الواحد منا أكبر رَجَحتِ الكفة باتجاه المصلحة القريبة لا الحق، وهذا ما حدث مع الوليد حيث هدته فطرته إلى الحق أولًا، ثم هداه تفكره، وتدبره إلى المنفعة الشخصية، وطلب رضا الناس.. ومن هنا نخلص إلى ضرورة الصدق مع النفس للوصول إلى الحق..

قضايا من الحياة المعاصرة

"قالوا لي إن المقاومة والعمليات الفدائية خروج على الشرعية!"

المقاومة والعمليات الفدائية

من الأمور التي ثار حولها جدل كثير أمر المقاومة، والعمليات الفدائية ضد الاحتلال، وانقسم الناس فيها إلى أحزاب؛ فمنهم من ينادي بالمهادنة والسلام مع إسرائيل، والمضي في طريق المفاوضات، والرضا بما ينتج عنها مهما كان مجحفًا، ومنهم من يصر على انتهاج طريق المقاومة لمواجهة العدو الصهيوني عملًا بمبدأ «ما أُخِذَ بالقوة لا يُستردُّ بغير القوة» وبين هؤلاء وهؤلاء هناك العديد من الفرق التي تختلف حول أسلوب المقاومة؛ فمنهم من ينادي بالمقاومة السلمية، والتي تعتمد على التظاهرات، والاعتصامات، ومنهم من يوافق على المقاومة المسلحة فقط في صورة جيش في مواجهة جيش، أو سلطة في مقابل سلطة، ويعترض على العمليات الفدائية بدعوى أنها قد تطول المدنيين الإسرائيليين كما يسمونهم..

وفي وَسْط هذا كلّه قد تجد العديد من القضايا الفرعية كتناحر الفصائل الفلسطينية فيما بينها من ناحية على أي أسلوب مقاومة ينتهجون، ومن ناحية أخرى على من ستكون له الكلمة العليا على مستوى الأرض، ومن له الحق في التفاوض باسم شعب فلسطين...إلخ، ثم يجد الواحد منا شبهات كثيرة تُثار حول موضوع فلسطين لصرف الناس عن القضية الأساسية ألا وهي قضية حق الشعب الفلسطيني في الحياة على أرضه التى اغتصبت، ووقف الانتهكات اليومية التي تُمارس في حقه من قبل قوات الاحتلال.. ويدخل الناس في جدالات طويلة حول ما إذا كانت حماس -جناح المقاومة العسكرية- قد أخطأت بطرد ممثلي (فَتْح) -جناح المفاوضات-، وما إذا كانت (فتح) بها عناصر فاسدة، وغيرها من القضايا الفرعية التي قد تفقد الواحد منا القدرة على رؤية لُب القضية بوضوح.. ولكي نستطيع أن نصل إلى الحقيقة فلا بد من أن نستعين بقواعد استنباط الحق كي تنتشلنا من التيه في هذه التفاصيل المتداخلة..

وأول ما نبدأ به هو أن نحدد النقطة موضع التساؤل، وهي -كما يشير العنوان- شرعية المقاومة، والعمليات الفدائية، وهي تنقسم إلى قسمين، الأول هو هل طريق المقاومة هو

الطريق الأمثل لمواجهة العدو الصهيوني من الناحية الدينية، والأخلاقية، والمادية؟ والقسم الثاني منها هو: هل العمليات الفدائية أسلوب شرعي لمقاومة الاحتلال؟ ونستعين في ذلك بما سبق ذكره من قواعد استنباط الحق..

١- التخلص من الخلافات والبحث عن جوهر الموضوع

ومرة أخرى نقول إن أول خطوة في الوصول إلى الحق هي التخلص من التفاصيل الزائدة، والتي قد تكون مهمة، ولكن ربما في سياق آخر.. أما الآن فالسؤال هو ما هو لب المشكلة؟

والإجابة بديهية ألا وهي أن شعب فلسطين محتل، وحقه ضائع، وأنه يقاسي يوميًّا أبشع أنواع التنكيل فيما تبقى له من فتات أرض فلسطين.. ذلك هو لب القضية الذي لايختلف عليه اثنان، والحقيقة الواقعة اليومية المريرة هي حقيقة الاحتلال.. لذلك لايجب النظر إلى قضية المقاومة، أو العمليات الفدائية بأي حال من الأحوال بمعزل عن هذه الحقيقة..

٢- تأصيل المبادئ

الخطوة الثانية هي تأصيل المبادئ، فإن كنا نتحدث عن الاحتلال، فما هي المبادئ التي أرستها الشريعة ممثلة في قرآن وسنة، أو الإنسانية بصورة عامة لمواجهة هذا الأمر؟

الأصل هو أنه إن وجد احتلال، أو ظلم فالواجب هو دفعه، كنوع من دفع الفساد في الأرض.. فمن سنن الله في الكون سنة التدافع لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقوله في موضع آخر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠) والدفع هو المقاومة، فلا يحتل إنسان أرضي، ويهدم بيتي، ثم أتركه لينشر الفساد؛ بل أدفعه تطبيقًا لسنة الله في هذا الكون..

وهناك أمر مباشر للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم، ويخرجونهم من ديارهم، وهذا وصف ينطبق على الاحتلال الإسرائيلي بكل أشكاله، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ ﴾ (البقرة: ١٩٠ - ١٩١)

وقوله: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة: ٨ - ٩)، والعالم كله يعلم كيف طُرد الفلسطينيون من أرضهم، وشُرِّدُوا بين البلاد، وكيف قُتّلوا في مجازرَ إسرائيلية بشعة، وكيف هُدِّمت مساجدهم، أو تحولت إلى معابدَ يهوديةٍ، بل بلغ الجبروت بالإسرائيليين أنهم يحفرون الآن تحت المسجد الأقصى -الأمر الذي يهدده بالتصدع- بدعوى أنه بُنِيَ فوق ما يُسمَّى بهيكل سليمان.. فأي ظلم بعد هذا الظلم، وأي إفساد بعد هذا الإفساد، وأي دعوى تلك التي تشككك في ضرورة المقاومة بعد هذا كله!

ومن الدعاوى، أو الشبهات التي قد تُثَار -أيضًا- بعد كل هذه الأدلة هو: اختلال موازين القوى، وأنه لا قِبَل للشعب الفلسطيني الأعزل بمواجهة آلة الحرب الصهيونية الممولة من أميركا مالًا، وسلاحًا.. وهذا قول المرجفين، أو الذين لايوقنون بقدرة الله -عز وجل- على نصر المسلمين، وإن كانوا ضعفاء، فمثلهم كمثل من قالوا ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٤٩) في حين قال المؤمنون منهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣).. والمرجفون كذلك مَنْ ينسون -أو يتناسون- قول الله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

وينسون كذلك كيف نصر الله المؤمنين ببدر وكانوا حوالي ٣١٣ مقاتلًا في مقابل أكثر من ألف من الكفار، والمشركين؛ أي ما يزيد عن ثلاثة أضعاف عدد المسلمين! فأسباب النصر الأساسية ليست العتاد، والسلاح فحسب، ويقول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، ويقول سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢)، بل إن بعض الفقهاء يذهب إلى أن العدل أحد أسباب النصر، فينصر الله الدولة العادلة -وإن كانت كافرة- على الدولة الظالمة -وإن كانت مؤمنة-..

والله ﷻ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وهذا يعني أن الله لايطالبنا بما لانستطيع، ولكن يطالبنا بما في وسعنا فعله.. لذلك لا يبقى إلا أن نؤمن أن النصر من عند الله بعد الأخذ بأسباب النصر..

وقد أورد المفكر الإسلامي (إبراهيم العسعس) -في مقاله (جهاد المقاومة، أم مقاومة الجهاد؟)- أدلة العلماء على ضرورة دفع الاحتلال، فيقول: «جهادُ الدفع، فلا يُشترط له ما يُشترط لجهاد المبادَأة والطلب، فلا يلزم له وجودُ قيادةٍ عامة، ولا غيرها من الشروط، وهذه أقوال بعض أهل العلم الدالة على ذلك: قال ابن قدامة ﷺ: «فإنْ عُدِم الإمامُ لم يُؤخِّرِ الجهاد؛ لأنَّ مصلحته تفوت بتأخيره» (المغني: ١/ ٣٧٤)؛ وقال ابن تيمية ﷺ: «وأما جهاد الدفع فهو أشدُّ أنواع دفعِ الصائل عن الحُرمة والدين، فواجب إجماعًا، فالعدو الصائل الذي يُفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يُشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان»» (الاختيارات الفقهية: ٣٩).

وردًّا على الخوف من التهلكة، والفتنة يقول ابن تيمية ﷺ: «الفتنة أكبر من القتل؛ أي أن القتل وإن كان فيه شر ومفسدة ففي فتنة الكفار من الشر، والفساد ما هو أكبر منه» (الفتاوى: ٨/ ٣٥٥).

وقال ابن قدامة رحمه الله: «إذا جاء العدو صار الجهاد عليهم فرض عين، فوجب على الجميع، فلم يَجُزْ لأحد التخلف عنه» (المغني: ٩/ ١٧٩).

وقال ابن القيّم رحمه الله: «ولا يُشترَطُ في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضِعْفَيْ المسلمين فما دون، فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، فكان الجهاد واجبًا عليهم لأنّه حينئذٍ جهادُ ضرورةٍ ودفعٍ لا جهادَ اختيار، وجهاد الدفع يقصده كلُّ أحد ..»، والذي يشير إليه ابنُ القيم رحمه الله مهم جدًّا، فالاحتلال أزمة، والأزمات لها ظروفها الخاصة، فقوانينها تختلف عن تلك في الأوقات الطبيعية.

لقد اتفق العلماء على أنَّ الجهاد في هذه الحالة فرضُ عين، مُستدلين بما نزل في غزوة تبوك عندما حشد الروم على تخوم الجزيرة لغزو المدينة، فاستنفر اللهُ ﷻ المسلمين: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٤١).

إنَّ جهادَ المقاومة قضيةٌ لا مجال للجدال فيها، فبه يُحافَظ على هُوِيَّة الأمة، وثقافتها وأرضها، وهو علامة على حياتها، وخيارِها في أن تكون قطيعًا، أو أمةً من الأحرار، وليس لأحدٍ الحقُّ في أن يقول لأحدٍ كُن عبدًا، لا تُقاوم من يعتدي عليك حتى أنظرَ لك في المسألة! أو لاتقاوم ضنًّا بنفسك أن تُلقيَها في التهلكة، ولهذا يقول ابن تيمية: «ولا يُترَكُ الجهادُ الواجبُ لأجل من يُقتَل شهيدًا، فإنَّ المسلمين إذا قاتلوا الكفار فمن قُتِلَ من المسلمين يكون شهيدًا» (الفتاوى: ٥٤٧).

٣- سعة المعرفة وتعدد المصادر

ولكي نقيم الأمر فلا بد من أن يكون لدينا معلومات كافية عنه، ولأجل أن نقيم خيار المقاومة فلا مانع من مراجعة نتائج هذه المقاومة على أرض الواقع.. ولننظر إلى الحقائق التالية:

إن هذا القانون الإلهي الخاص بنصرة الضعفاء تؤيِّده الأحداث على أرض الواقع، فمنذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية التي وقف فيها الشعب الفلسطيني الأعزل الأشم أمام طغيان الصهاينة انخفض معدل الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، وقال تقرير لمجلس (الإحصاء المركزي الإسرائيلي): «إن انخفاضًا بنسبة ٢٢٪ قد طرأ على عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا إلى إسرائيل عام ٢٠٠٠»؛ وقالت وزارة الإسكان الإسرائيلية: «إن مبيعاتها من الشقق في مستوطنات الضفة الغربية، وقطاع غزة قد انخفضت منذ اندلاع انتفاضة الأقصى بنسبة ٥٢٪، ونقلت صحيفة (يديعوت أحرنوت) عن الوزارة أن مجمل ما باعته الوزارة من شقق في المستوطنات لم يتجاوز ١٠٦ شقة».

وشأن المقاومة الفلسطينية هو شأن جميع أنواع حركات المقاومة، والتحرر في العالم، فهي لا تُؤْتِي ثمارها بين يوم وليلة، ولكن بإصرار ومثابرة الشعوب فإنها تؤتي أُكُلَهَا بعد حين..

ونادرًا ما تكون القوة متساوية بين المعتدي والمقاوم، بل كانت المقاومة دومًا جهدًا شعبيًّا في مواجهة الآلة الاستعمارية.. فمثلًا المقاومة الجزائرية قدمت مليونَ شهيد قبل أن تنال الجزائر استقلالها، وتتخلص من الاحتلال الفرنسي الغاصب، واستمر هذا النضال -صَدِّق أو لا تصدق- من عام ١٨٣٠ وحتى نالت الجزائر استقلالها في يوليو ١٩٦٢، أي أكثر من قرن وربع! والمقاومة الهندية للاحتلال البريطاني بدأت منذ عام ١٨٥٧ وبلغت أوجها بقيادة المهاتما غاندي من عام ١٩٣٠ وحتى نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٧.. وفي مصر كان النضال طويلًا ضد أشكال مختلفة من الاستعمار بدءًا بالحملة الفرنسية، ومرورًا بأسرة محمد علي، وانتهاءً بالاستعمار الإنجليزي في عام ١٨٨٢.. وقد شهدت هذه الفترات شتى أنواع المقاومة؛ منها ثورات القاهرة الأولى، والثانية، والثورة العرابية مرورًا بالثورات الفكرية التي قادها شيوخ الأزهر كالأفغاني، ومحمد عبده، والمفكرين، والمحامين المدافعين عن القضية الوطنية أمثال مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، كما تعددت المظاهرات المطالبة بالاستقلال مثل ثورة ١٩١٩، وقد تخلل ذلك كله صور باسلة من المقاومة الشعبية استهدفت

الجنود الإنجليز، ومن يتعامل معهم من التجار.. وعلى الرغم من إعلان مصر استقلالها عام ١٩٣٦ إلا أن جلاء الإنجليز عن مصر تأخر حتى الخمسينيات من القرن الماضي..

إن من حيل الباطل أن يجردك من مصادر معلوماتك، أن يحجب عنك الحقائق حتى يتركك تعتقد أنه لا خيار، ولا سبيل إلا الذي يعرضه عليك، لكن ببحثٍ بسيطٍ كالذي قدمناه نجد أن الشعوب لا تنال استقلالها، وحرّيتها إلا بالنضال، والمقاومة؛ وفوق هذا وذاك بالمثابرة عليهما.. ومن المعلوم أنه من أهم حيل الباطل حجب المعلومات عنك: فحين لا نعلم هذه الحقائق عن تاريخ المقاومة في العالم، وما تتطلّبه من صبر ومثابرة، خارت قوانا عن الثبات، وضاع الأمل، وهذا منتهى غاية العدو؛ فالحرب نفسية قبل كل شيء.. يقول مارتن لوثر كينج قائد الأميركان الأفارقة في حركة الحقوق المدنية بالستينيات: «إن المعركة بين أيدينا، والطريق أمامنا ليس ممهدًا على الإطلاق، وليس هناك طرق سريعة تقودنا بسهولة، وحتمية إلى حلول عاجلة، ولكن يجب أن نستمر».

وحين نقيم من الناحية الأخرى ما حققه طريق المفاوضات على أرض الواقع نجد أن هذه المفاوضات ما استطاعت منذ بدئها عام ١٩٧٤ تحقيق أي مطلب من مطالبها سواء بقيام الدولة الفلسطينية، أو عودة اللاجئين، أو حتى استرجاع حدود ١٩٦٧ (وكأننا نسلم بفقدان ما سُلب منا من حدود قبل ١٩٦٧).. هذا مع تصاعد وتيرة العمليات العسكرية، ووحشيّتها باستمرار، أي أن وجود المفاوضات كعدمه، لم يغير من معاناة الفلسطينيين شيئًا إن لم يكن قد زادها بتقديم تنازل تلو الآخر في حقوق هذا الشعب الأعزل؛ ولمن يقول إن المقاومة المسلّحة كانت تعطي ذريعة لإسرائيل بعدم التجاوب في المفاوضات، فهناك عشرات الحوادث التي قامت بها إسرائيل في أوقات هُدنة، ووقف لإطلاق النار، ناهيك عن عمليات القتل الوحشية، والمجازر -التي حدثت بطريق الخطأ كما يدَّعون-.. فأي ذنب جنى مخيم صبرا وشاتيلا، أو آلاف الأطفال -حتى الرضع منهم- والنساء الحوامل، والمرضى، والجرحى ممن أصيبوا، وتركوا ليلفظوا أنفاسهم بالطريق، ومنعت عنهم سيارات الإسعاف!

٤- السياق: الاحتلال

ومن الأمور الخطيرة التي نجد الناس يقعون فيها باستمرار هي تقييم المقاومة عامة، والمقاومة المسلحة خاصة خارج سياق الاحتلال، وهذا غبنٌ شديد! فحين ننظر إلى مقتل إنسان دون أن نعرف الظروف المحيطة بمقتله، لا بد وأننا سنستبشع الأمر لكن إن عرفنا سياق الحادثة، وأن هذا الإنسان قد قُتل بعد أن انتَهَكَ حرمة بيت من قتله، وأرهب زوجته، وأطفاله إن لم يكن هدم بيت هذا الأخير فوق رأسه، ورؤوس من يحب، فحينها يعلو فعل القتل هذا من أسفل السافلين إلى أعلى عليِّين؛ لأنه إن لم يفعل فقد صار في مصافّ الجبناء المتخاذلين الذين يستبيحون أعراضهم بأنفسهم..

كما أنه من ينظر إلى المقاومة الفلسطينية بمعزلٍ عن خصوصية الاحتلال الإسرائيلي يكون ظالمًا كذلك، فالاحتلال الإسرائيلي له طبيعة خاصة عنيفة؛ لأنه احتلال إحلالي، وليس استيطانيًّا فحسب؛ أي أنه يقول بلسان حاله إما أنا أو أنت على الأرض.. الأمر الذي يجعل يهود إسرائيل يسرفون في قتل الفلسطينيين، وليس تهجيرهم فقط، بالإضافة إلى هدم بيوتهم، واستبدالها بمستوطنات إسرائيلية (راجع المجازر الإسرائيلية في فصل بيع الفلسطينيين لأرضهم).. بل إن الأمر لم يقتصر على ذلك، ففي المناطق التي حوصر فيها الفلسطينيون أقاموا حولهم جدارًا عازلًا غير إنساني، وجعلوهم يعيشون كالسجناء، فلا يملكون حرية التنقُّل، ولا التبادل التجاري، أو حتى التداوي! فإن جاء من يعيب بعد هذا كله على الفلسطينيين انتهاج المقاومة سبيلًا لاستعادة الحق، يكون مجحفًا؛ لأن طبيعة الاحتلال تفرض طبيعة المقاومة، واحتلال من هذا النوع لا يجدي معه إلا أن تَقَضَّ المقاومة مضجعه بأن تضربه في كل موطن مُوجع، لا أن تتركه ينعم هانئ البال في أراضي الفلسطينيين، وممتلكاتهم مستبيحًا أرواحهم، وأعراضهم..

٥- من المستفيد

وكما أسلفنا من قبل، فإنه من الأمور التي تساعد على استشراف الحق: البحث عن المستفيد الحقيقي من كل رأى من الآراء المعروضة، فإن كان العدو هو المستفيد بالدرجة الأكبر من الرأي الذي تبنيت، فاعلم أن الحق قد جانبك غالبًا..

وإذا ما نظرنا إلى المستفيد الأكبر من إنهاء المقاومة المسلحة؛ لكانت الإجابة البديهية هي الاحتلال.. فبانتهاء المقاومة المسلحة ينعم الإسرائيليون في سلام في أراضي فلسطين المحتلة لايخافون هجومًا، أو إغارة، في حين تبقى الحال على ما هي عليه إن لم يكن هناك المزيد من التنكيل، والأحوال المعيشية السيئة للشعب الفلسطيني..

وقد يقول قائل إن المقاومة المسلحة تضر بصورة الفلسطينيين أمام المجتمع الدولي، وتؤكّد الصورة التي رسمها العالم عن العرب بأنهم قتلة متوحّشون.. والرد على هذا بسيط ألا وهو أنه لو نظرنا إلى بشاعة ما ترتكبه إسرائيل؛ لوجدناه يتعدّى بمراحل ما تقوم به المقاومة، إلا أن ذات المجتمع الدولي -الذي نخاف على صورتنا أمامه- يغض الطرف عن كل أفاعيل إسرائيل، فما من عقوبة واحدة فُرضت على إسرائيل في حين تُفرض العقوبات، والحصار على الشعوب العربية، والإسلامية كليًّا، والعراق، وسوريا، وكذلك إيران.. إذن فإسرائيل ستظل الضحية دومًا في أعين الغرب لاعتبارات أخرى غير الحق، وأولها قوة إسرائيل، وقوة سيطرتها على الإعلام، والعديد من مراكز القوى بالعالم، وفي عالم لا يفهم إلا لغة القوة.. أن يموت الواحد منا مدافعًا عن الحق خير له من أن يموت ذليلًا، ولم يحصل بعدُ على شبر واحد من حقه الضائع..

٦- ضع نفسك مكان الآخرين

يقول البعض إن العمليات الفدائية لا يجب اللجوء إليها كخيار -وإن كانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة المقاومة المسلحة- لأنها في نظرهم غير مبررة أخلاقيًّا، ولا دينيًّا.. ولكن هذا أمر مردود عليه، ولا يجب النظر إليه -كما سبق أن ذكرنا- أبدًا بمعزل عن طبيعة الاحتلال، والوضع الذي يقاسيه الفلسطينيون.. فإن نظرنا إلى الخيارات المعروضة للمقاومة لوجدنا أن الفلسطينيين محاصرون من كل جهة لايستطيعون دخولًا، أو خروجًا في أراضيهم بغير عبور نقاط تفتيش إسرائيلية يقاسون فيها ألوانًا من التعسُّف، والتنكيل.. ويوم عادي كالذهاب للدراسة، أو العمل، أو حتى شراء احتياجاتهم يمثّل معاناة يومية مع جنود

الاحتلال.. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن أجنحة المقاومة العسكرية لا تجد تمويلًا خارجيًّا إما بسبب تخلي الدول العربية الإسلامية عنها، أو للحصار الحديدي المفروض من قِبل إسرائيل على مداخل، ومخارج فلسطين. وقد قررنا من قبل أنه لا سبيل لمواجهة الاحتلال إلا بالمقاومة، لذلك كان لا بد للفلسطينيين أن يفكّروا في أساليبَ مفاجئة، وجديدة على العدو الصهيوني يتغلّبون بها على كل هذه العقبات كي يقضُّوا مضجعه.. هذا بالإضافة إلى أن كل مواطن إسرائيلي يحتل أرض فلسطين هو محتلٌّ غاصب، وهو جندي احتياط سواء كان رجلًا، أو امرأة، وليس بأي حال من الأحوال ما يمكن أن نسميه مدنيًّا مسالمًا، وقد أمَرَنا الله في غير موضع بأن نقاتل من يقاتلنا، ونخرجَ من أخرجونا من ديارنا.. ويوضح الشيخ القرضاوي رأيه في المقاومة المسلحة، والعمليات الاستشهادية قائلًا: «من حق الفلسطينيين أن يدافعوا عن أرضهم، وعن ديارهم التي أُخرِجوا منها بغير حق.. فالاستعمار الصهيوني من أسوأ أنواع الاستعمار وابشعه، إذ إنه استعمار استيطاني إحلالي.. فالاستعمار الفرنسي في الجزائر كان استعمارًا استيطانيًّا، لكنَّه لم يكن إحلاليًّا، ولكن هؤلاء الإسرائيليين الصهاينة استعمارهم استعمار إحلالي؛ أي أنهم يريدون أن يبيدوا الشعب الفلسطيني، أو يخرجوه من ديارهم ليحلوا محله.. فمن حق الفلسطينيين أن يقاوموا هذا الاستعمار الغاصب بكل ما يملكون من وسائل، وأساليب، فهذا حقٌّ مشروع أقرته الشرائع السماوية، والقوانين الدولية، والقيم الأخلاقية، كلها تقر حق الإنسان في الدفاع عن أرضه، ومقدساته بكل ما يملك من قوة.. قد يحدث أن يصاب بعض الأطفال، والمسنين، والنساء في مثل هذه العمليات، فهذا أمر غير مقصود.. ولكن يجب أن نعلم جميعًا أن المجتمع الإسرائيلي كله مجتمع عسكري رجالًا، ونساء، فلا يقال لمثل هذا المجتمع إنه مجتمع مدني، وإن المصابين من المدنيين الأبرياء فهم ليسوا مدنيين، ولا أبرياء. فإسرائيل تجيش مجتمعها، فالمستوطنون كلهم مسلحون، لذلك أنا أقول إن هذا ليس قتلًا لمدنيين، بل هو قتل لجنود، وغزاة، ومجندين.» ويرد الشيخ القرضاوي كذلك على من يصفون العمليات الاستشهادية بأنها انتحارية قائلًا: «هذه تسمية خاطئة؛ لأنها

حقيقة عمليات استشهادية؛ لأن الشخص يضحي بنفسه من أجل القضية التي يجاهد في سبيلها، أما المنتحر فهو إنسان فاشل في تجارة، أو امتحان، أو حب...إلخ، ولكن الشخص الذي يفجّر نفسه من أجل قتل الأعداء، وإصابتهم، وإدخال الرعب في نفوسهم فهو عند الله شهيد، لأنه فجَّر نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، كما في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧)، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٧٤).. والفقهاء من قديم أجازوا المجازفة بالنفس؛ بمعنى أن الذي يجازف بنفسه يجب أن يعلم أنه سيقتل إذا كانت وراء ذلك فائدة، نكاية بالعدو، وإدخال الرعب في نفسه، فهذا جائز شرعًا. والأعداء يدركون أن المسلم يزلزل الأرض جاهدًا في سبيل الحق، دفاعًا عن الأرض، والمقدسات.»

ويقول البعض إن من يقوم بهذه العمليات كأنه يلقي بيديه إلى التهلكة، ولقد رد الشيخ القرضاوي على ذلك -أيضًا- حين أورد بعض أقوال العلماء في هذا الأمر قائلًا: «عن أسلم بن أبي عمران قال: غزونا القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه! لا إله إلا الله! يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر دينه الاسلام، فقلنا: هلم نقيم في أموالنا، ونصلحها.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: ١٩٥)، والإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا، ونصلحها، وندع الجهاد.» ؛ وفي موضع آخر يستدل الشيخ القرضاوي على جواز العمليات الاستشهادية بقول ابن تيمية في فتواه المشهورة في قتال التتار مستدلًا بما رَوى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ من قصة أصحاب الأخدود، وفيها: أن الغلام أمر بقتل نفسه، لأجل مصلحة ظهور الدين (حين طلب إليهم أن يرموه بالسهم

ويقولوا: باسم الله رب الغلام)؛ قال: لهذا جوَّز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه، إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين»

وهكذا يلاحظ القارئ أنه بتطبيق بعضٍ من قواعد الوصول إلى الحق يمكن للإنسان - بالإخلاص، وبشيء من البحث والتفكير - أن يصل إلى حكم ترتاح له نفسه، ويطمئن له ضميره لمجرد أنه لم يسارع بالحكم، بل درس الأمر مليًّا؛ ومن ثَمَّ أنصف..

وماذا عن المقاطعة؟

«قــالوا : إنهــا لا تجــدي بــل تــضر الاقتــصاد الــوطني»

المقاطعة

المقاطعة الاقتصادية من الأمور التي ثار حولها كذلك جدلٌ كثيرٌ في العالم العربي، والإسلامي خصوصًا بعد آخر انتفاضة عام ٢٠٠٠م.

وقد طُرحت كأحد الحلول للتعبير عن الرفض الدولي، وبالأخص الشعبي لسياسات أميركا وإسرائيل.. ولا يخفى علينا أن طرح المقاطعة في هذا الوقت له أبعاد نفسية، وأخلاقية إلى جانب أبعاده الاقتصادية، وذلك للاختلاف الواضح بين سياسات الدول، ومطالب الشعوب.. ففي الوقت الذي تقوم فيه دول كمصر، والأردن، والسعودية بعقد الاتفاقات الاقتصادية، وتطبيع العلاقات مع الدولة الصهيونية؛ نجد شعوبها في حالة من الغليان إزاء ما يحدث في فلسطين من مجازر.. وغالبًا ما يتم تنفيس هذا الغضب في شكل مظاهرات شعبية، ومقالات صحفية، وحوارات فضائية إلى آخره.. وبالرغم من الدعم المعنوي الذي قد تقدمه هذه الأساليب إلى الشعب الفلسطيني، إلا أنها ما زالت بغير أثرٍ مادي ملموس على أرض الواقع.. ولذلك اقترح البعض اللجوء إلى المقاطعة الاقتصادية على أساس أن التجربة أثبتت أن الدول العظمى على مستوى السياسة الدولية لا تتأثر إلا بالقوتين العسكرية، والاقتصادية أما فيما عدا ذلك فهم يضربون عُرضَ الحائط بكل أشكال الشجب، والتنديد التي لا يملك العرب سواها للأسف..

وبطبيعة الحال اختلف الناس حول أمر المقاطعة الاقتصادية من حيث جدواها، وأبعادها الأخلاقية، بل وذهب البعض إلى بحث حلها، وحرمانيتها من وجهة نظر الدين! فيرى من يؤيدون المقاطعة الاقتصادية أنها وسيلة ناجحة للضغط على الدول المعتدية لوقف عدوانهم، وذلك بمقاطعة معظم بضائعهم، وخصوصًا الرفاهيات منها.. ويرون أنه إن طُبِّق هذا على مدى واسع وطويل سيؤثر بالتبعية على اقتصاد هذه الدول، ومن ثم ستضطر إلى

الاستجابة لمطالب الشعوب التي تقف وراء هذه المقاطعة.. أما من لا يؤيدونها فهم أقسام عدة؛ فمنهم من يرى أنه لا جدوى من المقاطعة الاقتصادية كليَّة لأنه من الصعب أن تجد القاعدة الشعبية الكافية التي تجعلها مؤثرة، ذلك أن العرب، والمسلمين قد أظهروا -للأسف- على مدى السنين الماضية خذلانًا واضحًا لقضايا الأمة إما لسرعة نسيانهم، أو لغفلتهم وانشغالهم بمشكلات حياتهم اليومية.. في حين يرى فريقٌ آخر من معارضيها أن المقاطعة الاقتصادية إذا نجحت في إغلاق المحلّات الأجنبية؛ فإنها ستنتهي بالإضرار بالاقتصاد العربي لا الأجنبي؛ لأنها -على حسب قولهم- ستؤدي إلى (قطع عيش)، أو تسريح أيد عاملة هي أولًا وأخيرًا عربية، بالإضافة إلى أن هذا سيتسبب على حد قولهم في فقدان الاستثمارات، والخبرة الأجنبية التي قد نحتاج إلى محاكاتها، والتعلّم منها..

وسنحاول -من خلال السطور القادمة- أن نفند كلًّا من هذه الأقوال على ضوء ما ذكرناه من قواعد، والتخلّص من التفاصيل الزائدة، والبحث عن الأصل.

يذكر المعارضون للمقاطعة الاقتصادية تفاصيل كثيرة كما ذكرنا كدعوى أنها غير مجدية، وأنها غير منطقية إلى غير ذلك من أسباب لا تنتهي قد يتقوّلها الواحد منا ليبرر عدم رغبته في الاستغناء.. ولو تفرغ الإنسان للرد على كل حجة لما وجد الوقت للتفكير في الغرض الأساسي من المقاطعة، ولربما تاه وسط التفاصيل.. لذلك أول خطوة للوصول إلى الحق هي تنحية هذه التفاصيل على الأقل في البداية، ثم على الإنسان أن يجلس مع نفسه فيسألها ما المقصد الأساسي من أن أقاطع؟ وحينها سيجد أن الإجابة بسيطة، وواضحة لا لبس فيها ألا وهي أنه لايريد أن يدفع -ولو قرشًا واحدًا- من نقوده لدعم اقتصاد دولة تضطهد إخوانه، وتقتلهم بوحشية، بل وربما ذهبت هذه النقود رأسًا لشراء ذات الأسلحة التي يُقتلون بها! وهذا هو ما تهدينا إليه فطرتنا السليمة، ولكننا لو فكّرنا كذلك في الأمر من وجهة نظر

الشريعة؛ لوجدنا أن قيام الواحد منا بشراء سلعٍ قد تساهم في ظلم إخوانه لا يتفق مع الأصول الداعية إلى أن يكون المسلمون جسدًا واحدًا كقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى». (رواه البخاريُّ ومسلم)

فكيف بنا نساهم في قتلهم، ولو حتى بأقل القليل.. وجاء رجل خيَّاط إلى سفيان الثوري فقال: إني رجل أخيط ثياب السلطان، هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط! ونفهم من ذلك أن الشراء من الظلمة هو ظلمٌ في حد ذاته..

ويقول الشيخ (عبد الله بن جبرين) عندما سُئل عن مقاطعة المنتجات الدنماركية على خلفية الرسومات المسيئة للرسول: «الذي يقول إن المقاطعة لا تجوز، قد أخطأ؛ وذلك لأننا إذا تعاملنا معهم، وانتفعنا بمنتجاتهم كان ذلك بمنزلة التولّي الذي نهى الله عنه لعموم الكفار في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ (المائدة: ٥٧)؛ أي لا تتولهم، وفي الآية الأخرى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١)، ومن التولي أن نشجع منتجاتهم، ونعطيهم ثمنها أموالًا طائلة، إننا ننتفع بمنتجاتهم أيًّا كانت، ولو كانت (بسيطة)، يعني كالألبان مثلًا، أو ما يشتق منها، أو الأكسية، أو المصنوعات؛ لأن المسلمين إذا اتفقوا على ذلك ضعف اقتصادهم، وضعف إنتاجهم، والغالب أنهم يسوقون منتجاتهم للبلاد الإسلامية إلى المملكة السعودية، ودول الخليج، والشام، واليمن، ومصر...وغيرها، فإذا قاطعناهم كان ذلك تنكيلًا لهم حتى يعترفوا، إما أن يتوبوا، ويجعلوا بدل الذم مدحًا، وإما أن يكفوا عنا هذا الأذى، وهذا الاستهزاء؛ لأنهم أصحاب مصالح، فيقولون: مصلحتنا تتوقف على تسويق منتجاتنا، فإذا بارت، وكسدت، فسدت قوتنا

وضعفت إمكاناتنا، من أين نسوق هذه المنتجات التي ننتفع بها؟! وتكون هي أموالنا، واقتصادنا، فإذا اتفق المسلمون على مقاطعة هذه المنتجات كان ذلك تنكيلًا لهم، وتنكيلًا - أيضًا- لغيرهم من الدول الأخرى».

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي في فتواه بمقاطعة البضائع الإسرائيلية، والأميركية: «ها نحن نرى اليوم إخواننا، وأبناءنا في أرض فلسطين المباركة يبذلون الدماء بسخاء.. فعلينا -نحن المسلمين- في كل مكان أن نعاونهم بكل ما نستطيع من قوة؛ ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ (الأنفال: ٧٢) ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٢).

ومن وسائل هذه المعاونة: مقاطعة بضائع العدو مقاطعة تامة، فإن كل ريال، أو درهم، أو قرش، أو فلس، نشتري به سلعهم يتحوّل في النهاية إلى رصاصة تطلق في صدور إخواننا.. لذا وجب علينا ألا نعينهم على إخواننا بشراء بضائعهم؛ لأنها إعانة على الإثم، والعدوان؛ فالشراء منهم يقويهم، وواجبنا أن نعمل على إضعافهم ما استطعنا.. فإذا كان إضعافهم لا يتم إلا بالمقاطعة، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. والبضائع الأميركية مثل الإسرائيلية في حرمة شرائها، والترويج لها.. فلولا التأييد المطلق، والانحياز الكامل للكيان الصهيوني الغاصب ما استمرت إسرائيل تمارس عدوانها على أهل المنطقة، ولكنها تصول، وتعربد ما شاءت بالمال الأميركي، والسلاح الأميركي، والفيتو الأميركي.. ولقد قال عليّ رضي الله عنه: «ثلاثة عدوك؛ عدوك، وصديق عدوك، وعدو صديقك».

إذن؛ فالأمر الذي لا خلاف عليه -مهما كثرت التفاصيل- هو أن الواحد منا لا يجب أن يسمح لماله أن يموِّل ظُلْمًا مهما قَلَّ..

١- القياس

وإن أردنا أن نطبق القياس لوجدنا حوادث كثيرة في التاريخ استعملت فيها المقاطعة الاقتصادية كوسيلة للضغط على الأعداء.. نذكر منها حادثة (ثمامة بن أثال) سيد قبيلة بني حنيفة، وكانوا يمدون مكة بالحبوب والغذاء، فحين أسلم ثمامة، ذهب إلى مكة للعمرة، وقال حينها لوجهاء قريش: «لا وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ» إلى أن أصاب القحط مكة فكتبوا إلى رسول الله: «إنك تأمر بصلة الرحم»؛ فحينها طلب النبي ﷺ من ثمامة أن يوقف المقاطعة.. المهم في الأمر أن النبي ﷺ كان مقرًّا لثمامة على فعله حتى كتبت له قريش، ولو كان هذا الأمر مخالفًا لنهاه النبي ﷺ من البداية..

٢- سعة المعرفة وتعدد المصادر

ما إن يصل الواحد منا إلى الأصل والقناعة التي تدفعه إلى تأييد المقاطعة، فالخطوة التالية هي التثبت، ويأتي ذلك من خلال تفنيد الحجج التي سبق أن ذكرناها، وأجلّنا مناقشتها حتى نعلم الأصول.. ومن أول الحجج التي يسوقها بعض معارضي المقاطعة هي عدم جدواها اقتصاديًّا، وإننا نخسر بها أكثر مما نكسب.. والمشكلة في هذا القول أنه يُقَيِّم المقاطعة بالنتائج القصيرة المدى، ويقيس على ضعف همة المسلمين حاليًا، في حين أن نتائج المقاطعة لا يمكن تقييمها إلا بعد إيمان الناس بها على مستوى واسع، ومثابرتهم عليها على المدى البعيد، حينها يمكن أن نرى لها نتائج مادية ملموسة على أرض الواقع، ومن ثم نستطيع تقييمها.. والحجة الثانية أن المقاطعة قد تؤدي إلى إغلاق المتاجر، والشركات الأجنبية، الأمر الذي سيؤثر على سوق العمل في بلادنا العربية أكثر مما سيضر الشركات الأجنبية الفردية.. وهذا القول في حقيقة الأمر مثله مثل القول السابق قصير النظر، حيث إنه ينظر إلى النتيجة المباشرة التي يمكن أن تترتب على إغلاق هذه الشركات، ولا ينظر إلى ما سيترتب على ذلك على المدى

البعيد حيث سيحتاج السوق إلى بديل، وحينها سيأتي البديل الوطني، أو العربي ليسد الفراغ الذي خلفته السلعة الأجنبية، ويزداد اعتمادنا على أنفسنا -وهو شيء محمود بطبيعة الحال- ومن ثم ينتعش السوق الوطني، ويستوعب ذات الأيدي العاملة التي تباكى عليها هؤلاء.. ومن المعروف أن العديد من المتاجر، والصناعات الوطنية أغلقت بعد تبني الحكومات اتجاه العولمة، لأن خبرة هذه الصناعات الوطنية، وإمكاناتها لا تسمح بمنافسة المتاجر، والسلاسل العالمية المقابلة لها..

والجدير بالذكر أنه من التجارب الناجحة في المقاطعة تجربة الهند مع الاحتلال البريطاني، حيث إن انجلترا منعت الهنود من استخراج الملح، وأجبرتهم على استيراد الملح البريطاني لمصلحة التجار الإنجليز؛ فقام الهنود بقيادة غاندي بمسيرة الملح الشهيرة إلى شاطئ البحر لاستخراج الملح بأنفسهم، وقد انضمت إلى هذه المسيرة أعداد غفيرة من الهنود، واستمرت لعدة أسابيع متواصلة.. كما دعا غاندي إلى تشجيع الصناعات الوطنية كصناعة الغزل والنسيج، وجعل من نفسه قدوة بأنه كان يغزل ثيابه بيديه، بل وتطوّرت المقاطعة الاقتصادية إلى مقاطعة الموظفين وظائفهم في المصالح الإنجليزية، بل وحتى المحامين قاطعوا المحاكم التي تسير وفقًا للقوانين الإنجليزية.. ولم يتوقف الأمر على الهند بل إن الأميركيين أنفسهم قاطعوا الإنجليز الذين كانت لهم السيطرة على المستعمرات الأميركية قبل استقلال أميركا.. وحدث ذلك حين فرضت انجلترا ضريبة عالية على الشاي، فقام الثوّار الأميركان بإغراق حاويات الشاي الإنجليزية في ميناء بوسطن فيما عُرف بحفلة الشاي اعتراضًا منهم على سياسة انجلترا التعسّفية.. ونهاية فأقرب مثال لنجاح المقاطعة هو مقاطعة الدول الإسلامية للدنمارك على خلفية الرسوم المسيئة للرسول الكريم، والتي -بصرف النظر عن مناسبتها للموقف أم لا- قد نجحت في الضغط على الدنمارك كي تعير القضية الاهتمام

الكافي، وتتجنب تكرار حوادث مماثلة في المستقبل.. وهذه المقاطعة كانت دليلًا على أنه إذا توحّدت المقاصد، واجتمع قلب الأمة على أمرٍ وثابرُوا عليه تمكّنوا من تحصيل نتائج إيجابية لعل أقلها لفت أنظار العالم إلى قدرة العالم الإسلامي على التحرّك المنظّم، وإن كان في أمور المقدسات على الأقل، فربما بمرور الأيام، وبازدياد الوعي بقضايا الأمة نشهد تحركًا مماثلًا مؤثرًا لأجل هذه القضايا..

الأمر الآخر الذي يلتبس على كثيرين هو علاقة التجارة بسياسة الدول، فيتساءلون عن الذنب الذي جنته تلك الشركات، وسلاسل المحلات كي نقاطعها في حين أن الحكومات هي التي تمارس ما نرفضه من سياسات.. ولكي نرد على هذا علينا أن نعلم أن هذه الشركات تدفع أموالًا طائلة لذات الحكومات الظالمة في صورة ضرائب، بل إن اللوبي الصهيوني -الذي لا يخفى على أحد وجوده بأمريكا- والذي يتمثل في كبار رجال الأعمال اليهود بالولايات المتحدة، هو الذي يتولى توجيه السياسة الأمريكية من خلال دعم حملات الانتخابات الرئاسية، وتوجيهها إلى ما ينفع إسرائيل.. ومن المعروف أن كل رئيس أمريكي يقوم -خلال حملته الانتخابية- بإلقاء خطاب أمام منظمة الأيباك AIPAC (لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية) يعلن فيه ولاءه، ومساندته لإسرائيل على طول الخط.. فلا ننسى -كما أشرت سابقًا- كيف خاطب أوباما العالم الإسلامي من مصر في يونيو ٢٠٠٩ بخطاب معسول مستشهدًا فيه بالآيات القرآنية، والإنجيل، ثم كيف سمعنا بعدها بأيام خطابه أمام هذه المنظمة، والذي خلع فيه كل الأقنعة، وأكّد فيه على نفس ثوابت العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية متمثّلة في دعم الدولة العبرية، ومتعهّدًا بتوقيع مذكّرة تفاهم مع إسرائيل تقضي بدعمها بثلاثين مليون دولار، وأنه غير مستعد للقيام بأي تنازلات بشأن أمن إسرائيل، ثم

ندد بمن لايريدون الاعتراف بوجود إسرائيل، وربط بينهم وبين من ينكرون محارق الهولكوست، وأضاف أن القدس ستبقى عاصمة إسرائيل، ويجب أن تبقى موحدة!

وبجانب الضرائب التي تدفعها الشركات لحكومات الدول الظالمة، فإن بعض هذه الشركات يتبرع مباشرة لإسرائيل لأجل محاربة المسلمين، وقد رأينا كيف أن سلسلة مطاعم ماكدونالدز تتبرع سنويًا لدعم إسرائيل، وكذلك سلاسل محلات القهوة (ستار بوكس) وغيرها.. وهكذا يتضح لنا أن الخطوط الفاصلة بين السياسة الدولية، والاقتصاد لم تعد واضحة -كما يتصوّر البعض- إن لم تكن موجودة أصلًا..

وحينها قد ينظر البعض إلى مالكي بعض المحلات التجارية الأجنبية عن طريق الفرانشيز -وهو نوع من شراء العلامة التجارية للشركة العالمية مع الإبقاء على سياسات الشركة الكبرى إلا أن الإدارة تكون وطنية- فيجدهم من أهل البلد فيسوغ لنفسه ألا يقاطع هذا المحل، أو تلك الشركة بدعوى أن ملّاكها وطنيون.. وهذا مردود عليه ببساطة بأن هذه العلامة التجارية ليست مجانية، وإنما يدفع صاحب المحل نسبة استغلال لهذه العلامة للشركة الأم في مقابل الإبقاء عليها؛ لأنها في نظره الشيء الذي يثق فيه زبائنه، وأنهم لأجل هذه العلامة يأتون.. فإن قاطعنا هذه المتاجر لوجود ذات العلامة لتوقّف صاحب المحل هذا عن استغلالها، ولتحوّل المحل إلى محل وطني.. يقول الشيخ يوسف القرضاوي في ذلك: «وإذا كان شراء المستهلك للبضائع اليهودية، والأمريكية حرامًا وإثمًا، فإن شراء التجار لها ليربحوا من ورائها، وأخذهم بتوكيلات شركائهم أشد حرمة، وأعظم إثمًا، وإن تخفت تحت أسماء يعلمون أنها مزورة، وأنها إسرائيلية الصنع يقينًا».

وفي نهاية هذه النقطة يكفي أن نعلم أن النرويج -وهي بلد غير عربي، وغير مسلم- قد قررت مقاطعة شركة إلكترونيات إسرائيلية تُدعَى (Elbit) بسبب إصرار إسرائيل على إقامة

جدار الفصل العنصري.. كما قرر مجموعة من الأكاديميين الفرنسيين، والإنجليز مقاطعة المعاهد الإسرائيلية التي تشارك في الاحتلال، وطالبوا بتوقيع سياسة عقوبات على إسرائيل.. ألا يدفعنا هذا أن نعيد النظر في تهاوننا في حق إخواننا الذين نضن عليهم بكبح جماح نفوسنا، والامتناع عن شراء مشروبات، وأطعمة هي في الواقع مضرة على المدى الطويل، تضامنًا مع إخوتنا المجاهدين، ونحن ذوو تاريخ، ولغة، وعقيدة، بل ومصير مشترك!

٣- فتش عن المستفيد

إذا ما سألنا أنفسنا مَنِ المستفيد بالدرجة الأولى من دعاوى عدم المقاطعة؟ لوجدنا أنها أولًا وآخرًا الدولة الظالمة.. أما الخاسر الأول فهو الدول العربية التي ستعاني من تدهور صناعاتها الوطنية مقابل ازدهار التجارة في المنتجات المستوردة.. أما على مستوى الأفراد فالخاسر هو أنفسنا التي فقدت القدرة على ترتيب أولوياتها ففضلت إشباع رغباتها أمام كوب من مشروب غازي، أو شطيرة طعام سريع على مجرد التفكير في احتمالية أن تستخدم أموالنا في قتل إخواننا..

٤- استجوب نفسك: أ نفعك أكبر أم رضا الله؟

واطلب الآن من كل من ساق الحجج ضد المقاطعة، واتخذ منها معركة شخصية، وسوّغ موقفه هذا بأهداف نبيلة كخوفه من قطع أرزاق العاملين بالشركات الأجنبية، وفقدان الخبرة الأجنبية وما إلى ذلك، أن يسأل نفسه: أحين ذهب إلى المحل الأجنبي دون الوطني لشراء هذا الـ(ساندويتش)، أو ذلك المشروب، هل دارت في ذهنه كل هذه الأهداف النبيلة فقرر أن يضحي بأمواله في هذا المحل، أو ذاك كي لا يؤذي العمالة العربية به، أم أن ما حركه هو جوعه، وضعف مقاومته أمام جاذبية إعلانات سلسلة المحلات، أو المطاعم تلك؟ أطلب منه أن يسأل نفسه، ويصدقها الجواب، وألا يعطينا الجواب فهذا أمر في النهاية بينه وبين الله..

ونهاية قد يتساءل البعض: وما البديل؟ البديل هو الصناعة الوطنية، ولا يجب أن نتوقع أن تقوم هذه الصناعة بين يوم وليلة؛ فما المقاطعة إلا أحد محفّزاتها، ولكنها ليست المحفز الوحيد.. وحتي يتواجد هذا البديل فهناك عشرات البدائل من دول أخرى لا تشترك بطريق مباشر في قتل إخواننا ممن لا يعادون المسلمين.. وفي النهاية ليس على الواحد منا إلا أن يتحرى حين يشتري هذه المنتجات؛ فإن لم يجد بديلًا فعليه أن يسأل نفسه إن كانت من الرفاهيات أم لا، فإن كانت زجاجة مياه غازية، أو طعام سريع...إلخ؛ فلماذا لا يحتسب، ويتركها فيكسب ثوابين؛ مرة لأنه لم يساند دولة الظلم، ومرة لأنه آثر إخوته على نفسه.. فإن لم تكن بضاعة رفاهية -كالدواء مثلًا- ولا بديل لها؛ فحسب الواحد منا أنه تحرّى، وكان صادقًا مع نفسه بأنه لو وجد البديل لاشتراه..

«قالوا لي: إن حرب الشيعة مقدمة على حرب اليهود؛ لأن اليهود لا يُخاف فتنتهم!»



السُّنة والشيعة

من بين الشبهات التي أعيدت إثارتها من جديد في هذا الزمان أمر الخلاف بين السنة، والشيعة، والذي بدأ يُثار مؤخرًا خاصة بعد الحرب الأميركية على العراق.. وربما كان ذلك لأن الشيعة لأول مرة في العراق قد بدا صوتهم مسموعًا بعد سنين من حكم صدام حسين الذي لم يكن منصفًا لهم كلية.. فبدأنا نعرف، ونتساءل عن الخلاف بين السنة والشيعة؛ لأن موقف أهل الشيعة من الاحتلال كان غير متوقع، حيث رحبت بعض المرجعيات الشيعية بالقدوم الأميركي، ولعل ذلك كان ردة فعل غير محسوبة على سنين من إحساسهم بالقمع في ظل الحكم البعثي خاصة بعد حرب العراق الطويلة مع إيران..

وتلا ذلك حرب إسرائيل على لبنان في يوليو ٢٠٠٦، والتي قاتل فيها حزب الله (الشيعي) إسرائيل ببسالة عجيبة، وتمكن من هزيمتهم بما أظهره جنوده، وقيادته من ثبات.. وهنا عادت التساؤلات، حيث بات واضحًا أن الشيعة ذوو شوكة.. وفي ذات الوقت بدأت إيران تطور منشآتها النووية، وظهرت على السطح علامات تساؤل عما إذا كانت إيران تطور سلاحًا نوويًا أم لا.. وفي ظل هذا كله ظهر تساؤل آخر وهو: هل نؤيد الشيعة لأنهم مسلمون أم نخشاهم لاختلافنا الطائفي، وغموض نواياهم؟ فانقسم الناس إلى فريقين: فريق يدعو إلى نبذ الطائفية، والوحدة في وجه الطغيان الصهيو- أميركي، وفريق يصر على إحياء الخلافات الطائفية، ويصف المشروع الإيراني بالصفوي التوسعي، ومن هذا الفريق من يخافون مما يسمى بـ«خطر التشيع»، ويصورونه كأنه في مثل خطر المشروع الصهيوني، أو حتى أخطر منه..

وللأسف فقد اختلط الأمر على الكثيرين الذين انساقوا وراء الدعاوى الطائفية، وفقدوا القدرة على رؤية الأولويات واضحة.. والمعضلة في الأمر أن كلا الفريقين قد يملك

جزءًا من الحق إذا ما نظرت إلى الأمر خارج السياق التاريخي، وخارج إطار الأحداث، ولكن ما إن نضع الأمور في سياقها، ونزنها في ظل ما يجري من صراعات على أرض الواقع حتى تتضح الأمور، ونتبين العدو الحقيقي فنستطيع أن نركز جهودنا على صده لا التشتت في صراعات جانبية لا طائل منها.. ولكي تتضح الحقيقة نحاول أن نتبع خطوات الوصول إلى الحق:

١- التخلص من التفاصيل الزائدة والوصول إلى اللب

لعل من أكثر المواضيع التي كثرت حولها التفاصيل هو أمر السُّنة، والشيعة حيث يصرّ البعض على إقحام تفاصيل الخلاف العقدي عند التحدث عن أمور استراتيجية كأمن المنطقة، والخطر الذي يتهددها.. ولكي نصل إلى لب الموضوع لا بد وأن نسأل أنفسنا ما هو الخطر الحقيقي الذي يتهدد الأمة؟ ومم نحن خائفين؟ وعلام هذا الجدل الدائر؟

ولكي نحاول الإجابة على هذه التساؤلات بافتراض توافر حسن النوايا في الطرفين؛ فإن المنطلق الذي يجب أن يكون محركًا لأي منهما هو حماية الأمة الإسلامية أرضًا، وعرضًا، ودفع كل صور العدوان عسكريًّا كان، أو اقتصاديًّا أو حتى ثقافيًّا.. فإن وحَّدنا هذا المقصد فيمكننا حينها أن ننظر إلى الأخطار المحدقة بالمنطقة، ما هي؟ وأيها يمثل خطرًا أكبر؟

والخطر الذي لا يختلف عليه أي من الفريقين هو الخطر الصهيو- أميركي التوسعي في المنطقة، والذي تطوّر بعد أكثر من ستين عامًا على احتلال فلسطين ليبتلع أفغانستان، والعراق.. حيث لم تتوقف خلال هذه الفترة القلاقل، والمذابح، والمؤامرات التي تدبّرها أميركا، وتنفّذها إسرائيل، أو يدبرها اللوبي الصهيوني في الحكومة الأميركية كي تنفّذها أيضًا إسرائيل، أو أي من عملائها العرب حكّامًا، ومحكومين.. كما شهدت هذه الفترة محاولات عدوان كثيرة كالعدوان الصهيوني-الأميركي على لبنان عامي ١٩٨٢ و٢٠٠٦ ، وعلى العراق

في حرب الخليج، وما تلاها من حصار لأطفال العراق، وعلى الصومال حين دخلتها القوات الأميركية، وخاضت حينها الفصائل الصومالية المسلحة بقيادة (فرح عيديد) مقاومة مسلَّحةً شرسة انتهت بانسحاب القوات الأميركية من البلاد.. هذا غير الحصارات الاقتصادية، ومحاولات ليِّ أَذْرُعِ الشعوب لأجل التطبيع مع إسرائيل إما باتفاقيات مجحفة تارة، أو بالغزو الثقافي، ومحاولات نشر المخدرات، والجنس بين الشباب العربي تارة أخرى، الأمر الذي ترتب عليه انحطاط أخلاقي، وثقافي في فئة الشباب العربي لم تظهر بوادر الخروج منه إلا مؤخرًا على خلفية صحوة دينية تشهدها الأمة مجددًا والحمد لله..

فإذا نظرنا إلى كل هذا لوجدنا أن لب القضية الذي يحاول البعض صرف أنظارنا عنه، ومصدر الخطر الرئيسي الذي سبب معظم مآسي المنطقة ليس هو إيران بالدرجة الأولى، ولا حزب الله، ولا أي من الطوائف الشيعية بقدر ما هو العدو الواضح الصريح الجاثم فوق أنفاسنا ما يزيد عن نصف القرن الآن ألا وهو إسرائيل، ومن ورائها أميركا.. وكل ما عدا ذلك ما هو إلا تكهنات، ومحاولات لصرف انتباهنا عن القضية الأساسية ألا وهي حتمية مقاومة هذين الخطرين..

- **مطامع شيعية؟**

وما أن نصل إلى هذا اللب والمقصد، فمن الممكن حينها أن نبدأ في تفنيد الأمور الفرعية المطروحة.. وأول هذه الأمور من وجهة نظر استراتيجية هو الادعاء بأن الشيعة عامة، وإيران خاصة لديهم ما يسمونه بالمشروع الصفوي الذين يسعون فيه إلى فرض نفوذهم في المنطقة من خلال حيازة القوة العسكرية، والاقتصادية، بل ويقول بعض المغالين من أصحاب هذا الرأي أن من أهداف الشيعة البعيدة احتلال الحجاز! ولو نظرنا إلى هذا القول، وافترضنا أنه صحيح فلن نجد على أرض الواقع ما يعضده، فحتى ما يستندون إليه من أن إيران قد صار لها نفوذ

قوي في العراق لا يبرر كل هذا الخوف، في الوقت الذي نجد فيه أن الحقيقة الثابتة التي لا جدال فيها: أن أميركا هي التي تحتل بالفعل العراق، وليس إيران، وكون إيران لها نفوذ فهو أمر غير مستغرب بالنظر إلى نسبة الشيعة بالعراق، والموقع الجغرافي لإيران بالنسبة للعراق، وتاريخ الصراع بين البلدين.. وأما فيما عدا العراق فلا يعدو الأمر إلا أن يكون مخاوف، وتكهّنات بنوايا الشيعة لا يبررها شيء على أرض الواقع.. هذا غير أن إيران دولة قوية، ومن الطبيعي أن يكون لها أهداف استراتيجية، واقتصادية، ومشروع؛ سَمِّه إيرانيًّا، سَمِّه صفويًّا، سَمِّه ما شئت؛ ولكن العيب كل العيب على من ليس له مشروع، ثم يشكو ممن لديه مشروع، فأين مشاريعنا كأهل السنة في المقابل؟ أم أنها مشاريع أميركا، وإسرائيل التي يتعارض معها المشروع الإيراني، ومن ثم كانت كل هذه الضجة!

إننا إذا ما سلمنا بوجود مطامع شيعية، فما هي الأولوية، هل الأولوية هي الدخول في صراع طائفي نتحارب فيه على خلافات عقدية في الوقت الذي تبتلع فيه القوى الاستعمارية الأميركية، والإسرائيلية عشرات الكيلومترات من أراضينا مع مضي كل لحظة زمن، وهل تكون الأولوية لتعميق الخلافات المذهبية، أم أن الأولوية هي لرفع الذل، والمهانة ممثلة في الحصار الذي تفرضه إسرائيل، وأميركا على إخواننا بفلسطين، والعراق؟!

إن الحقيقة الوحيدة التي لا جدال فيها، ولا تكهنات هي أننا محتلون، ومهانون، وهذا هو اللب الذي يجب أن نقيس عليه كل قول، ونرتب على أساسه كل أولويَّاتنا..

- **فتنة طائفية**

وهناك من ينظر إلى الأمر من وجهة نظر عقدية فيدعي أن الشيعة يحاولون نشر مذهبهم بين السنة، بل ويذهب البعض إلى أن قوة إيران، وحزب الله هي فتنة للمسلمين السنة بسبب ضعف السنة، وقوة الشيعة! وهذا قول مردود عليه بأنه حتى وإن كان هذا صحيحًا، فإن تشيع فرد من السنة لا يشترط بالضرورة رده لقوة الشيعة، بل بالأحرى لتقصير منا نحن أهل السنة، هذا بالإضافة إلى أن من يخسره السنة إلى الشيعة لم يكن بمكسب لهم على أية حال.. فالرسول ﷺ في صلح الحديبية مثلًا لم يعترض على شرط مفاده أن قريشًا ليس عليها رد من يرتد إليهم من المسلمين، وذلك في ظني لعلمه أن الإيمان مكسب للفرد، وكفر الفرد هو خسران للفرد لا الجماعة، بل إنه مكسب للجماعة أن تتخلص ممن هو ضعيف الإيمان، وذلك بالقياس مع الفارق؛ لأن الشيعة ليسوا بكفرة، بل هم مذهب كبقية المذاهب، ودعنا من المتطرفين الذين لا ينبغي أن نأخذ عموم القوم بجريرتهم.. الأمر الآخر هو أنه -كما ذكرنا- من العيب أن نقول إن قوة حزب الله، وإيران فتنة للسُّنة؛ لأنه إن فُتِن أهل السنة فذلك لضعف السنة، لا لقوة الشيعة، فإن فُتن بعض السنة بمشروع الشيعة فذلك لأنه لا مشروع لنا. والأحرى بنا -بدلًا من أن نتفرغ لإلقاء الاتهامات على الشيعة- أن نحاول -نحن السنة- أن نتبنى مشروعًا مماثلًا يضاهي المشروع الإيراني دقة، واتقانًا، وحينها لن يكون لدينا سبب للخوف..

٢- ابحث عن الأصل

إننا إذا ما سلمنا أن شيعة إيران لديهم مطامع توسعية فإن الشيعة ليسوا متواجدين في إيران والعراق فحسب، بل هم منتشرون في كافة أنحاء الوطن العربي، والإسلامي: في لبنان،

وسوريا، والبحرين، واليمن، والمغرب، والجزائر، وباكستان...إلخ؛ فهل يعني هذا أن كل الطائفة الشيعية لها نفس الأطماع، ومن ثم لا بد أن نناصبهم العداء! إذا كان السنة أنفسهم مختلفون اختلاف ألوان الطيف، فمنهم السلفيون، والوهابيون، ومنهم المعتدلون، ومنهم المتحررون، ومنهم الجهاديون، فلماذا نستكثر الاختلاف على أهل الشيعة؟! فإن كنا لا نقبل على الغرب أن يضعنا جميعًا في سلة واحدة مع ممثلي فكر القاعدة؛ فلماذا نرضى أن نفعل ذلك بالشيعة؟!

يصف الله ﷻ أهل الكتاب بقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)، وقيل في تفسير هذه الآية -كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس- أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وغيرهم؛ أي: لايستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾؛ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾؛ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه متبعة نبي الله، «فهي» (قائمة) يعني مستقيمة (تفسير ابن كثير).. ويقول الله تعالى -أيضًا- في وصف أهل الكتاب: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران: ٧٥)... ومن طبائع البشر الاختلاف.. وإلا فإن علينا أن نناصب كل المسيحيين، واليهود العداء لأن إسرائيل وبعض الدول المسيحية قد اعتدوا علينا، فنقاتل دولة كالنرويج مثلًا بالرغم من أن لها مواقفَ مشرّفة في مقاطعة إسرائيل لم تجرؤ عليها أي دولة إسلامية، وأن نناصب العداء بعض المنصفين من اليهود الذين يدافعون عن الحق الفلسطيني

كما لم يدافع عنه بعض المسلمين.. وبذلك نكون في خلاف واضح مع توجيه الله تعالى لنا بأن ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨)، وهذا توجيه ربَّاني في التعامل مع غير المسلمين فما بالكم بمن يقولون لا إله إلا الله! يقول الشيخ عائض القرني في مقاله (يا عقلاء السنة، والشيعة - المنشور بتاريخ ١٨ مارس ٢٠٠٨ بصحيفة الشرق الأوسط): «ما دمنا لم نستطع حل الخلاف بين السنة والشيعة، وقد مضت عليه عشرات القرون، فعلينا أن نعترف بأن الخلاف حاصل، وأن الواجب علينا ألَّا نطور هذا الخلاف إلى صراع دموي، فكفانا جراحًا وتمزقًا، فعندنا -نحن أمة الإسلام- من المصائب ما يكفينا، والصهيونيّة العالمية تتربص بنا، وتخطط لاجتثاثنا، ما فائدة إعادة خطب الشتم، والتجريح، والتحريض، والاستعداء، وذكر المثالب، والمعائب عند الطائفتين؟ ما هو النفع المأمول من السعي لسفك الدم السنّي، أو الشيعي؟».

وللشيخ الغزالي كلمات من ذهب في هذا الأمر إذ يقول في كتابه (دفاع عن العقيدة، والشريعة): «إن من أنكر الأمور افتعال الأسباب لتفريق الكلمة، وتمزيق الأمة.. ربما اختلفت وجهات النظر في قضية ما، وانشعب الناس حولها مذاهب.. لكن حيث لا تختلف الأفهام، ولا تتعدد الأنظار، كيف يستبيح بعض الناس لأنفسهم أن يخلقوا الفرقة خلقًا؟!.

وأن يقحموها على الواقع إقحامًا، لا لشيء إلَّا لرؤية الناس أحزابًا متناحرة، وطوائف متدابرة، إنني آسف لأن بعض من يرسلون الكلام على عواهنه.

لا.. بل بعض من يسوقون التهم جزافًا غير مبالين بعواقبها دخلوا في ميدان الفكر الإسلامي بهذه الأخلاق المعلولة فأساءوا إلى الإسلام وأمته شرّ إساءة... الواقع أن الذين يرغبون في تقسيم الأمة طوائف متعادية لما لم يجدوا لهذا التقسيم سببًا معقولًا لجأوا إلى افتعال أسباب الفرقة، فاتسع لهم ميدان الكذب حين ضاق ميدان الصدق.

لست أنفي أن هناك خلافات فقهية، ونظرية بين الشيعة والسنة، بعضها قريب الغور، وبعضها بعيد الغور، بيد أن هذه الخلافات لا تستلزم معشار الجفاء الذي وقع بين الفريقين، وقد نشب خلاف فقهي، ونظري بين مذاهب السنة نفسها، بل بين أتباع المذهب الواحد منها، ومع ذلك فقد حال العقلاء دون تحول هذا الخلاف إلى خصام بارد أو ساخن ..»

ونضيف؛ إنه لمن العجب أن ندعو للحوار مع غير المسلمين في قضايا كقضايا سب الرسول الكريم من قبل الغرب في حين أننا ندعو إلى إهدار دم من ينتمي إلى طائفة قام بعض جهلائها بسب صحابي..

وأعجب من ذلك من خرج بفتوى على المسلمين وقت العدوان الإسرائيلي الدموي على لبنان عام ٢٠٠٦ بأنه لا يجوز الدعاء لحزب الله لأنهم شيعة! وهذا أمر مستنكر لأنه لم يدع إلى عدم توصيل أموال لهم، أو إغاثتهم ولو حتى بالدواء، بل دعا إلى أن نمنع عنهم ما هو أقل ألا وهو أضعف الإيمان وهو الدعاء لهم! أي قسوة تلك! إن الإسلام يأمرنا بنصرة المظلوم، ولو كان الظالم أخاك، ألا يقول الرسول ﷺ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَو مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ». (أخرجه أحمد والبُخَارِي)

فكيف إن كان الظالم عدوًّا فتّاكًا بك، والمظلوم مسلمًا موحدًا بالله! لو كانت دولة غير مسلمة، بل وكافرة، ولكنها مظلومة لدعونا برفع الظلم عنها، لأن المسلم إنسان عادل لايقبل الظلم.. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -كما سبق ذكره- في المجلد الثاني من فتاواه: «إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة» فلا نكونن ظالمين بدعمنا للصهاينة، وغضّ الطرف عما يقع بإخواننا! فهل فرقت نيران إسرائيل بين سني، وشيعي، ومسيحي؟!

لا بالطبع.. ولكن القوى الماكرة هي التى تؤجج هذا الصراع الطائفي، وتُزكي نار الفتنة لإلهاء الناس عن لب القضية، وبالتالي خدمة مصلحة المعتدي بالدرجة الأولى!

٣- من المستفيد؟

ولو فكّرنا من المستفيدون من تأجيج فتنة كهذه؟ لوجدنا أنهما بالضرورة أميركا، وإسرائيل.. ويفعلون ذلك لشغل الشعوب العربية في خلافات جانبية، وقضايا فرعية تملآن بها عقول الناس الفارغة، فما يعود بها متسع لتهتم بقضايا الأمة المحورية، وتخلو لهم الساحة حينها لسلب الأراضي، وارتكاب المذابح، وتغيير المناهج الدراسية، كل ذلك ونحن مازلنا نتناقش في خلافات تاريخية وطائفية، بعضها لم يعد له وجود.. في حين أنه يتم تحت أنوفنا تغيير واقعنا.. إن أميركا وإسرائيل هما المستفيدتان الأوليان من إزكاء نار الفتن وضرب شعوب المنطقة بعضها ببعض فلا يتبقى من يقف بوجههم، أو يصد عدوانهم..

أما عن الخائفين من إيران، فعلينا أن نسأل لماذا هم خائفون؟ أخائفون لأن إيران هددت مصالح أميركا التي تحمي عروشهم! فإن تخلت أميركا عنهم ما عاد لهم من نصير؟

ولو نظرنا إلى الدول الرئيسة الحريصة على تأجيج هذه الفتنة لوجدنا أنها السعودية، ومصر، والأردن، ولو أعملنا فكرنا قليلًا لوجدنا أن هذه الدول هي نفسها التي استضافت، وباركت مرور القوات الأميركية بأراضيها، ومنشآتها البرية، والبحرية كي تُضرب من أراضيها دول إسلامية مجاورة، ثم يأتون بعد ذلك، ويدافعون عن عقيدة السنة، ويتهمون الشيعة بنشر التشيع! أفمن استباح أرض المسلمين، وتحالف مع العدو جدير بأن يدافع عن عقيدة السنة، أم أنه حق يريدون به باطلًا؟ ولقد كشفت صحيفة (هآرتز) الإسرائيلية مؤخرًا في مقال بتاريخ ١٩-٦-٢٠١٠ أن مصر قد سمحت بعبور ١٢ ناقلة حربية أميركية وواحدة إسرائيلية على الأقل بميناء قناة السويس، في الوقت الذي تغلق فيه المعابر، وتسد المنافذ

على الشعب الفلسطيني المحاصر بغزة.. وبصرف النظر عن الأمر المشين في سماح مصر بعبور سفن حرب معادية في موانيها، بل وحمايتها من قبل جنود مصريين حتى تعبر في سلام، فلنا أن نسائل أنفسنا؛ لماذا تبعث أميركا بـ١٢ سفينة حرب دفعة واحدة إلا إن كانت تستعد لهجوم محتمل على إيران.. وإن الواحد منا ليحزن حين يرى أن أميركا، وإسرائيل قد نجحتا خلال الخمس سنين الأخيرة في توجيه عداء الدول، والشعوب العربية تجاه إيران باللعب على النعرات الطائفية، وضيق الأفق لدى العامة، ومن يسوسهم من الحكام، وهكذا صارت مطمئنة من أنها إن ضربت إيران فلن تدافع عنها شعوب المنطقة لأن يهود إسرائيل قد صاروا -للأسف- أقرب إلينا من الشيعة المسلمين على حسب قول البعض، وبذلك استطاعت أميركا، وإسرائيل استخدامنا كأداة لتنفيذ مخططاتها لتقسيم المنطقة.. وإن الواحد منا ليحزن حين يرى أناس كثيرين معتبري الرأي يسقطون في ذات الفخ، ويتركون أنفسهم ليصبحوا جزءًا من هذا المخطط الماكر غير عالمين أن دورنا آتٍ..

٤- ابحث عن السياق

وقد نسلم فعلًا بالاختلاف العقدي، وبضرورة بيانه عندما تدعو الضرورة إلى ذلك، ولكن السؤال هو: متى، وأين، وكيف؟

فالغريب أننا ما سمعنا هذه الدعاوى الطائفية بعنف إلا في الوقت الذي كانت تتعرض فيه الأمة لأشد المحن، في الوقت الذي كانت تتقطع فيه أوصال الأطفال في لبنان، وتدوي فيه صرخات الثكالى بغزة! الأمر الذي يدعوك إلى التساؤل عن سر إطلاق هذه الدعاوى، والتركيز عليها في هذا الوقت بالذات.. إن السياق هنا مهم، وقيل إنه «لكل مقام مقال»..

فحين تكون الأمة في خطر لا بد وأن نَنْفِرَ جميعًا للذَّود عنها، وأن ننبذ كل قول، أو فعل قد يؤدي إلى فرقة وفتنة.. وهكذا فإن أردنا أن نقيّم إحدى دعاوى الخلاف بين السنة والشيعة

فعلينا ألا ننظر فقط إلى محتواها، بل أن ننظر إلى سياقها، متى قيلت، وتحت أي ظروف، ومن قائلها، وما تاريخه؟ فكل هذه أمور يجب ألَّا نغفل عنها، حتى لا نكون سذَّجًا نتوجه حيثما أرادنا العدو: فإن أرادنا متشرذمين متفرقين كنا، وإن أرادنا متوحدين لخدمة هدف له كنا كذلك..

والحديث في هذا الأمر يطول إن فنَّدنا دعاوى تكفير الشيعة، ولكننا لسنا بصدد هذا، ولكننا بصدد ما يترتب على هذه الدعاوى من مواقف، ويكفي أن نستشهد بقول الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الشائق (سؤال عبثي: إيران أخطر أم إسرائيل؟) حيث يرد على هذا السؤال بقوله: «إن إيران دولة مسلمة، وجارة مهمة لها وزنها المعتبر، وبكل المعايير، والحسابات الاستراتيجية، فإنه لا بديل عن التوصل إلى صيغة للتعايش الآمن معها، تكفل الاحترام المتبادل بين الطرفين العربي والإيراني، بما يعزز الثقة، ويشيع الاطمئنان بينهما؛ وحتى إذا تخللت صفحات التاريخ أية حسابات، أو ضغائن بينهما، فإن التعايش مطلوب بأمر الجغرافيا، ذلك أن إيران ليست كيانًا وافدًا مثل إسرائيل، ولا هي زائر عارض مثل الولايات المتحدة في العراق، وإنما هي تتمدد على التخوم العربية منذ آلاف السنين، وإذا لم تكن عونًا للعرب في تصدّيهم للغارات الإسرائيلية، والأمريكية، فهي تشكّل عند الحد الأدنى عمقًا استراتيجيًّا لهم، يستقوون بها وتستقوي بهم». (٥٤)

وهكذا بدلًا من أن نعمق هوة الخلاف فعلينا أن نبحث عن أرض مشتركة بحيث لا نخسر حليفًا استراتيجيًّا هامًّا كإيران، وحزب الله خاصة في وجود عدو مشترك ومصير مشترك، وفي ذات الوقت -وحفاظًا على العقيدة السليمة- يمكننا أن نعمل على تعليم أبنائنا عقيدة أهل السنة والجماعة بدون تكفير وزرع الكراهية للشيعة، مع تكريس مبدأ التعايش والتعاون على تحقيق أهداف مشتركة بدون الحاجة إلى الذوبان.. وليكن الواحد منا كما أمرنا

الرسول ﷺ في قوله: «لا يَكُنْ أحَدُكُمْ إِمَّعَة، يقول: أنا مع الناس، إن أحْسَنَ الناسُ أحسنتُ، وإن أساءوا أسأتُ، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحْسِنُوا، وإن أساءوا ألَّا تظلِمُوا» (أخرجه الترمذي)؛ ويقول ابن مسعود -وهو من صحابة رسول الله ﷺ: «لا يتبعن أحدكم دينه رجلًا، إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر..»؛ فإن فكر كل منا قبل أن يتبنى رأيًا يعمق الخلاف الطائفي بغير النظر إلى عواقبه، فيعرف الخلفيات، ويبحث عن السياق قبل أن يقتنع به، ثم يروِّج له، لما أصبحنا لقمة سائغة في يد الأعداء يوجهوننا حيثما شاءوا..

«وصوّروا الاحتلال تحريراً والاستعمار إعماراً»..



تبرير بقاء قوات الاحتلال في العراق وأفغانستان

أحد الأقوال التي كثر ترديدها على ألسنة الكثيرين -منهم الأميركيون، ومنهم العرب- أن أمر العراق وأفغانستان سينتهي إلى الفوضى إذا انسحبت منها قوات الاحتلال الآن.. ومع أن بعض هؤلاء يعترف أن دخول القوات الأميركية في الأساس كان اعتداءً صارخًا على سيادة الدول، وخطأً بكل المقاييس إلا أنهم يطالبون ببقاء الحال على ما هي عليه كي لا تدب الفوضى بالبلاد على حد قولهم.. وهذه شبهة لا بد من ردها لأنها تتعلق بمصائر الأمم، وفكر أجيال يجب ألَّا نزرع فيها هذا الشكل من الخنوع، والرضا بالوضع المخطئ..

١- التخلص من الفرعيات والبحث عن اللب

وكما أسلفنا فإن من أشهر حيل الباطل الإلهاء بالتفاصيل الكثيرة، حتى يختلط عليك الأمر فلا تستطيع أن تحدد نقطة الخلاف، ومن ثم لا تستطيع أن تفندها على أساس منطقي.. وفي هذه الحالة بالذات يُكثر أصحاب هذا الرأي من التفاصيل في محاولة لإلهاء الرأي العام عن لب القضية.. فإذا ما أخذنا العراق كمثال، فإن من هذه التفاصيل أن قوات الاحتلال هي الشيء الوحيد الذي يحفظ الاستقرار بالعراق، وذلك لأنها لا تمثل طائفة بعينها، ومن ثم فإنها قد تمثل نقطة الالتقاء الوحيدة بين الطوائف، ومما يقولون -أيضًا- إن وجود أميركا ضروري طالما أن أعمال إعمار العراق مستمرة.. وكل هذه الحجج مردود عليها بقليل من التفكير، والتأمل في وضع العراق الحالي تحت الاحتلال...

فإذا ما نظرنا إلى مقولة أن بقاء قوات الاحتلال سيحول دون حلول الفوضى، فإنه قول غريب بالنظر إلى أن العراق يعاني أشد حالات الفوضى تحت نيران الاحتلال.. فقد شهدت العراق منذ دخول القوات الأميركية ازديادًا مطردًا في الهجمات المسلحة، منها عمليات مقاومة موجهة تحديدًا ضد قوات الاحتلال، وعمليات أخرى مشبوهة المصدر تطال المدنيين

العراقيين بالأسواق، والأماكن المكتظة، والتي أظهرت بعض التحقيقات صلتها بالاحتلال نفسه من خلال تعاقده مع شركات أمن أميركية خاصة تستخدم جنودًا مرتزقة، في محاولة منه لتشويه صورة المقاومة.. ناهيك عن عدد لا نهائي من العمليات العسكرية الأميركية التي قتلت الأطفال، والنساء، والشيوخ بغير تمييز، إما بقصف وحشي، أو عمليات منظمة، واقتحام للبيوت، وتنكيل بالشعب العراقي في كافة نشاطاته اليومية.. كما تأججت الصراعات الطائفية خلال هذه الفترة بين السنة والشيعة بنسبة غير معهودة سابقًا (لم تحدث أبدًا تحت الحكم البعثي) وعمليات القتل على الهوية، والهجرة العرقية على أساس طائفي.. ولقد ذكر تقرير صادر عن وزارة الخارجية الأميركية أن عدد الهجمات التي تصنف (إرهابية) في العراق ارتفعت ٩ أضعاف: من ٢٢ عملية في العام ٢٠٠٣ إلى ١٩٨ في العام ٢٠٠٤ وأكثرمن ٢٠٠ في العام ٢٠٠٥، وارتفع عدد الهجمات (الانتحارية) إلى ٥٠ في الشهر الواحد في الأشهر الخمسة الأولى من العام ٢٠٠٥، في حين أنها كانت تبلغ ٢٠ عملية في العام ٢٠٠٣ و٤٨ في العام ٢٠٠٤ (٥٥) ...

يقول الكاتب ستيف شابمان في صحيفة (بالتيمور صن) إنه: «إذا كانت المقاومة هي رد فعل للوجود الأميركي؛ إذن فإن إبقاء القوات الأميركية هو بمثابة مقاومة النار بالكيروسين» (٠.. فعن أي استقرار يتحدثون؟! وأي فوضى أكثر من هذه ستحل بالعراق؟! إن معظم الهجمات والقلاقل لها سبب واحد ألا وهو وجود الاحتلال، فإن انتفى وجود هذا الجسم الغريب كان هناك أمل أكبر في توحيد الجهود لإعادة بناء العراق..

ثانيًا: فإن الحقيقة التي لايمكن التغافل عنها هي أنه حتى وإن كانت أميركا تمثل نوعًا من السلطة، والسيطرة؛ فإن ذلك لا ينفي عنها صفة الاحتلال، والأصل في الاحتلال

مقاومته ودفعه -راجع فصل المقاومة- وإلا فهل نصلح الخطأ بخطأ أكبر بأن نطالب القوات الدخيلة بالبقاء؟!

وإذا ما تركنا الأمور على حالها، ولم نحدد موعدًا لخروج قوات الاحتلال، وربطنا الأمر بشيء لايمكن قياسه كبلوغ الاستقرار وعدم الفوضى، فمن بيده أن يحدد أن العراق قد (استقر) وأنه قد آن الأوان لخروج قوات الاحتلال، هل هي أميركا؟! إن نظرة بسيطة إلى تاريخ أي دولة محتلة يشير إلى أنها دائمًا ما تخرج بإرادة الشعوب لا إرادة المحتل ذاته.. الأمر الآخر أننا إذا ما تحركنا من التاريخ إلى الواقع لوجدنا أن أميركا تغذي من حين لآخر الصراعات الطائفية من خلال وقوفها وراء العمليات العسكرية المشبوهة، وتجنيدها للمرتزقة ليقوموا بأعمال التخريب مقللة بذلك من عدد القتلى في صفوف الجنود الأميركيين كي تستعيد مساندة الرأي العام الأميركي لما تسمية بالحرب على الإرهاب.. لكل ذلك كان خروج قوات الاحتلال من خلال المقاومة أمرًا حتميًّا لا يمكن إنكاره..

- من المستفيد؟

وما إن وصلنا إلى الأصل وهو حقيقة أن القوات الأميركية قوات محتلة، ومن ثم فالأصل مقاومتها لا مهادنتها، نبدأ في التيقن من قناعتنا هذه بأن نقيم من المستفيد من القول بأن بقاء القوات الأميركية يحقق الاستقرار فى العراق؟ هل هي العراق أم أميركا؟

إن بقاء أميركا في العراق يضمن لها الضخ المستمر لبترول العراق -الذي يمثل ثالث أكبر احتياطي نفط في العالم- وسيطرة أميركا على سوق البترول في العالم، إذ من المعروف كيف احتكرت شركات أميركية عقود البترول بالعراق كهاليبرتون (التي كان نائب رئيسها خلال حرب العراق للصدفة هو ديك تشيني نائب الرئيس جورج بوش الابن!)، ناهيك عن

أن «سعر البرميل كان سيبقى في حدود ٤٠ دولارًا لولا غزو العراق، مما يعني أن الحرب رفعت سعر النفط ثلاث مرات بعدما وصل إلى رقم قياسي جديد بلغ ١٣٥ دولارًا».

كما استطاعت أميركا أن تمرر قوانين احتكار لعقود البترول التي تسري لما يقارب ٣٠ عامًا.. فمثلًا من القوانين غير المسبوقة -والتي تم تمريرها بأيدي الحكومة العراقية المعينة من قبل الاحتلال- ما أشارت إليه صحيفة الإندبندنت في مقال بعنوان (الدم والنفط) من أن قانونًا جديدًا سيعطي الحكومة العراقية الملكية القانونية إلا أنه يتيح لها إعطاء نسبة من أرباحها النفطية للشركات المسؤولة عن استخراج وإدارة المنشآت النفطية الأمر الذي يتعارض بالضرورة مع ادعاء أميركا أن أرباح نفط العراق ستذهب إلى الشعب العراقي، وجهود إعادة الإعمار.

ويقول (باتريك سيل) في مقاله المنشور بجريدة الحياة بتاريخ ٢٤-٦-٢٠٠٥: «إن العراق يشكل غنيمة ضخمة، فاحتياطيه النفطي يعادل الاحتياطي السعودي، وإعادة إعماره تقدر بعشرات البلايين من الدولارات تعود إلى الشركات الأميركية، في حين أن موقعه الاستراتيجي يجعل منه مركزًا مثاليًا لتوجيه القوة العسكرية الأميركية نحو الخليج الغني بالنفط، وما وراءه من مساحات شاسعة، فالاستيلاء على العراق وتحويله إلى دولة عميلة كان هدفًا مغريًا»

كما أن بقاء الاحتلال بالعراق يضمن له استمرار استنزاف موارد العراق، بل إن الأموال التي تعهّدت أميركا باستعمالها لإعادة إعمار العراق هي أموال العراقيين نفسها التي يعلم الله وحده إن كانت ستذهب إلى إعمار العراق أو إلى تخريبها؛ إما بتمويل عمليات عسكرية أو تدريب كوادر أمنية ولاؤها للمحتل، لقمع الشعب العراقي بأيدي الشعب العراقي موسعة بذلك الهوة الطائفية..

إن المقاومة العراقية تمثل استنزافًا مستمرًا لأموال وأرواح قوات الاحتلال، الأمر الذي قد يجبرها في النهاية على الرحيل خصوصًا بعد ضغط الرأي العام الأميركي المتزايد ضد الحرب، حيث أظهر أحد استطلاعات (جالوب) لعام ٢٠٠٥ «أن ٥٧ في المئة من الأميركيين يعتقدون أن الحرب لا تستحق كل هذه الجهود والتضحيات».. ويقول (باتريك سيل): «إن حرب العراق كانت في الواقع نتاج طموحات أميركية، وإسرائيلية متوازية، ولقد تحققت الأهداف الإسرائيلية إذ أصبح العراق ضعيفًا، وسيبقى كذلك طوال جيل كامل على الأقل.

وأما أهداف أميركا من الحرب فما زالت بعيدة المنال، فإذا غادرت العراق ذهبت جهودها عبثًا، وأما إذا بقيت فإن الثمن بالأرواح والمال سيزداد لا محالة دونما أي ضمان في تحقيق منافع سياسية، أو اقتصادية، أو استراتيجية في نهاية المطاف.» (٥)، لذلك كان الحل الرئيسي لإجلاء قوات الاحتلال هو استمرار المقاومة، وخلق بيئة غير نافعة، وغير صالحة لبقائه..

- **استجوب نفسك**

وفي النهاية، اسأل نفسك لماذا تبنيت رأيًا دون آخر؟ هل لأن القول بأن بقاء قوات الاحتلال بدعوى إصلاح ما خرَّبته يعفيك من المسؤولية الأخلاقية بضرورة معاونة إخوانك على رفض الاحتلال؟ هل لإحساسك بالذنب أنك تخاذلت عن نصرتهم في الوقت الذي تطالعك فيه أشلاؤهم الممزقة في أخبار كل صباح؟ فإن كانت نفسك تبغي الراحة على حساب الحق؛ فراجع نفسك، ولن يطالبك أحد بشيء أكثر من قولة الحق، وذلك أضعف الإيمان..

«وصوّر مشايخ السلطة معاهدة كامب ديفيد وكأنها فتح مبين!»



معاهدة كامب ديفيد، وصلح الحديبية

من الأمور التي ثار حولها مناقشات كثيرة، والتي غالبًا ما تتحول إلى جدل مرير هو موضوع كامب ديفيد (١٩٧٩) أو معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وما نحن بصدد بحثه الآن هو ما قد يذهب إليه البعض من أجل تسويغها بأن يشبهوها بصلح الحديبية الذي أبرمه الرسول ﷺ مع قريش، وذلك لإضفاء الشرعية الدينية عليها.. ولستُ هنا بصدد الدخول في ذات الجدل لأنه موضوع طويل، وتفاصيله كثيرة، ولكنني بصدد تفنيد هذا التشبيه الذي لو طبّقنا قواعد استنباط الحق عليه؛ لوجدناه تشبيهًا به مغالطة كبيرة..

السياق

كما ذكرنا، فإن من حيل الباطل الشهيرة إخراج الأمور عن سياقها، وهذا التشبيه لمعاهدة كامب ديفيد بصلح الحديبية ما هو إلا استخدام لهذه الحيلة.. فكما سبق أن ذكرنا في فصل القياس، إن صلح الحديبية يجب ألَّا ننظر إليه خارج سياقه، وسياقه متعدد الجوانب: ما بين ميزان القوة ورجحانه تجاه المسلمين حينها، وتأييد الوحي للرسول الكريم، وبين مدة الصلح، وشروطه، وما تبعه من فتح لمكة، ونصر للمسلمين، وهذه النقطة الأخيرة بالذات لها أهمية كبرى.. فلماذا ينظر البعض إلى الصلح بمعزل عن فتح مكة، مع أن فتح مكة كان نتيجة طبيعية لفترة قضاها المسلمون في لمّ شملهم، ونشر رسالتهم، وتوطيد حكمهم؟! وقد زاد خلال هذه الفترة من الصلح عدد المسلمين من ١٤٠٠ إلى ١٠٠٠٠.. يقول الأديب (محمد حسين هيكل) في كتابه (حياة محمد): «إن التاريخ أثبت أن تلك المعاهدة كانت نتاج حكمة سياسية، وبُعد نظر عميقين، وأنها أتت بعواقبَ عظيمة الفائدة للإسلام وللجزيرة العربية بشكلٍ عام؛ فقد كانت المرة الأولى التي تعترف فيها قريش بالنبي محمد كندٍّ لها، لا كمتمرد نبذته قبيلته، وكانت تلك المرة الأولى التي تعترف مكة بالدولة الإسلامية الصاعدة في الجزيرة العربية، كما أن

الموافقة المكّية على حق المسلمين بزيارة الحرم، وبالحج كانت -بالدرجة نفسها- اعترافًا من قِبَلها بالإسلام كديانة قائمة، ومعترف بها في الجزيرة العربية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن السلام الذي تبع المعاهدة في السنتين التاليتين لها أعطى المسلمين السلام، والأمان الضروريين على جبهتهم الجنوبية دون خوفٍ من غزوٍ تقوم به قريش، وساهم هذا السلام في انتشار الإسلام؛ حتى قريش -العدو الأكثر محاربة للإسلام، وأكبر مناوئ له- اعترفت في تلك المعاهدة بالإسلام وأهله، فقبلت بذلك ما كانت ترفضه أبدًا من قبل.

وانتشر الإسلام بعد المعاهدة بصورة أسرع وأوسع مما انتشر قبلها، وبينما كان عدد الذين صاحبوا سيدنا محمدًا إلى الحديبية حوالي ١٤٠٠ مسلم، فإن عدد الذين صاحبوه في غزوه لمكة بعد سنتين من الحديبية بلغ أكثر من عشرة آلاف.»

إذن فصلح الحديبية كان نصرًا، وفتحًا مبينًا كما بيَّنتِ الآية الكريمة التي نزلت في الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١)، وذلك لما ترتب عليه من عزة المسلمين بعدها..

وإذا ما نظرنا في المقابل إلى معاهدة كامب ديفيد، وما ترتب عليها، نجد أنه بالرغم من أنها قد اشترت بضع سنين من السلام مع إسرائيل إلا أنه قد ترتب عليها نتائجُ مؤسفة كثيرة لعل أولها هو عزل مصر عن العالم العربي، والتسبب في نقضها لمعاهداتها مع أشقّائها العرب، الأمر الذي جعل إسرائيل تطلق يديها في فلسطين، ولبنان، ذلك بعكس ما ترتب عليه صلح الحديبية من وحدة بين المسلمين..

والجدير بالذكر أنه ما إن نقضت أحد القبائل الموالية لقريش الصلح وهي (بنو بكر) بإغارتها على قبيلة خزاعة الموالية للمسلمين لم يتردد الرسول ﷺ في إبطال المعاهدة، والاستعداد لفتح مكة.. وكم من مرة نقضت إسرائيل اتفاقياتها مع العرب والمسلمين بغير أن يحرك المسلمون ساكنًا، ولقد قامت إسرائيل في أكثر من واقعة بقتل جنود شرطة مصريين على الحدود بين مصر وإسرائيل، كما أنها منذ اندلاع انتفاضة الأقصى وهي في خرق مستمر للمسافة المحددة في الوثيقة لتواجد الجيش، حيث يوجد جنود إسرائيليون بكثافةٍ بداخل هذه المنطقة المحظورة..

وكل هذا لا يتعدى قشورًا من هذه الاتفاقية، فدعوى أن مصر استعادت سيادتها على أرض سيناء بموجب هذه الاتفاقية هي دعوى مردود عليها بأنها سيادة صورية، حيث تنص بنود هذه الاتفاقية على تحديد عدد أفراد الجيش المصري بسيناء، وبموجب هذا فقد قسمت سيناء إلى ثلاث مناطق، الأولى لا يُسمح فيها إلا بتواجد ٢٢ ألف جندي مشاة، وهذه المنطقة هي غرب سيناء؛ والثانية لا يُسمح فيها إلا بتواجد ٤٠٠٠ جندي من حرس الحدود؛ والثالثة بشرق سيناء لا يُسمح فيها بتواجد جندي واحد، ويسمح فقط لقوات الشرطة بالتواجد.. مع العلم بأن إسرائيل تبعد أربعة كيلومترات فقط عن رفح المصرية..

وكما ذكرنا أنه إن كان صلح الحديبية كدأب أي اتفاقية محدود بفترة زمنية، فإن اتفاقية كامب ديفيد لم تحدد بمدة معينة، وكأنها اتفاقية سلام مفتوحة لا فترة هدنة كما كان الحال في صلح الحديبية، الأمر الذي جعل إسرائيل تطلق يدها في شعوب المنطقة مع تحييد الرادع المُمَثَّل في مصر سابقًا، مع انتهاكها في أكثر من مناسبة سيادة أرض سيناء.

ولا يتوقف الأمر على الأرض والسياسة بل يتعداهم إلى الاقتصاد، والمجتمع كما يشرح الدكتور (راغب السرجاني) في مقال مفصل بعنوان (كامب ديفيد، ثلاثون عامًا من السلام):

«حدثت بعد معاهدة السلام كارثة التطبيع، وكارثة التعامل الاقتصادي مع الكيان الصهيوني، وفُتحت مكاتبُ التمثيل التجاري مع اليهود في أكثر من دولة عربية، وكان أخطر التعاملات الاقتصادية مع مصر والأردن؛ فأما مصر فقد صدَّرت -للأسف الشديد- الغاز المصري إلى الكيان الصهيوني، وكان ذلك في عام ٢٠٠٥م، وبشكل سرِّي مفاجئ، وقضت الاتفاقية بتصدير ١.٧ مليار متر مكعب سنويًّا من الغاز الطبيعي لمدة ٢٠ عامًا كاملة، وبسعر يتراوح بين ٧٠ سنتًا و١.٥ دولار لمليون وحدة حرارية، بينما السعر الطبيعي للغاز المصري يصل إلى خمسة دولارات، ويصل سعر التكلفة إلى ٢.٦٥ دولار! وهذا يعني أن اليهود يأخذون الغاز بخسارة اقتصادية على مصر، وحتى لو كان هناك ربحٌ، فتمويل الكيان الصهيوني بالطاقة أمر لا يُتخيَّل، وبرغم الاحتجاجات الكثيرة، وبرغم حكم محكمة القضاء الإداري المصرية بوقف قرار الحكومة بتصدير الغاز إلى اليهود، إلا أن ضخ الغاز ما زال مستمرًّا!

واشترطت أميركا في اتفاقية الكويز الشهيرة في سنة ٢٠٠٤م، أن تكون الصادرات المصرية إلى أميركا تحتوي على أحد المكوِّنات الإسرائيلية حتى تُعفى من الجمارك، وهو إغراء اقتصادي يدفع في اتجاه زيادة العلاقات الاقتصادية مع اليهود.

ولا يخفى على أحدٍ أن المصانع اليهودية تنتج موادَّ تحتاج إلى سوق للتسويق، وأن العالم العربي سوق كبير سوف يخدم المستثمرين اليهود بشكل ملموس، أما الفائدة التي ستعود على العالم العربي فمحدودة؛ فالكيان الصهيوني دولة من عشرات الدول البديلة في العالم، والتي من الممكن أن نصدِّر لها موادَّنا الخام.

والمشكلة الكبرى أن الأمر لم يَعُدْ يقتصر على الحكومة، بل سُمح لرجال الأعمال الكبار أن يتعاملوا مع الكيان الصهيوني، سواء بالاستيراد أو بالتصدير، ولعل الجميع يعرف التعاملات التجارية التي أدت إلى شراء الأسمنت المصري لبناء الجدار العازل في فلسطين المحتلة.» (٠

وإبرام العهود مع غير المسلمين أمر غير مرفوض إسلاميًّا، ولكنه مرهون بشروط، وهذه الشروط يلخصها الكاتب (هشام منور) وهو كاتب، وباحث فلسطيني، وعضو الهيئة التعليمية بكلية الشريعة، جامعة دمشق قائلًا: «إن أول هذه الشروط يوجب أن يتولى عقد اتفاقية على درجة من الخطورة كهذه إمام المسلمين أو نائبه، ومعلوم أن المقصود بذلك هو الخليفة الأعلى للمسلمين، أو من يخلُفه وينوب عنه في ذلك.. بيد أن هذه الحال أيضًا مقيدة بكون المتولي لهذا العقد جماعة من ولاة المسلمين عند بعض الفقهاء، وجميع الولاة دون استثناء عند جمهور الفقهاء، بما يضمن اتفاق كلمتهم، وعدم تعرض فئة من المسلمين للأذى والضرر نتيجة عقد صلح دائم مع عدو لجميع المسلمين لا لفئة منهم، الأمر الذي لم يتحقق في اتفاقيات الصلح المعقودة مع الصهاينة الغاصبين.

ثاني هذه الشروط، أن يكون الدافع لعقد مثل هذه المعاهدة مع العدو ضرورةً مُلجِئة، وهي الحال التي يترتب على فقدانها هلاك وفساد عظيم في الدنيا أو الدين، كخشية الهلاك، والاستئصال لكافة المسلمين إذا رفضوا المصالحة، أو ضياع أجزاء جديدة من أراضيهم لايستطيعون الدفاع عنها مطلقًا، فإذا كانت المهادنة تؤدي إلى الخطر ذاته -وهو ما يحدث اليوم- فلا يجوز اللجوء إليها، بل الواجب يحتم الجهاد، وتحمّل كافة المشاق في سبيل ذلك، فإن وجدت ضرورة ملحّة لذلك وجب أن يكون التصرف في حدود ما أجأت إليه، ولا يجوز تجاوز ذلك بالمزيد من التنازلات غير المبررة.

فأين الضرورة الملجئة بحيثياتها المتقدمة لدى من دعا إلى معاهدة سلام مع العدو، وهل التزم العاقدون لها بحدود الضرورة (المزعومة) أم أنهم تجاوزوها، فارضين بذلك تنازلات مؤلمة وفظيعة على الأمة جمعاء؟!

ثالث هذه الشروط أن يكون للمسلمين مصلحة معتبرة في هذه المعاهدة تبرر الإقدام عليها؛ أما الشرط الرابع وهو شرط شكلي -حسب التعبيرات القانونية- فيبحث في كتابة هذه الاتفاقات، والإشهاد عليها لتكون واضحة لا لبس فيها، ولا مجال لاحتمالية تفسيرها، وما نراه في الوقوف على كل بند من بنود تلك الاتفاقات، والاختلاف فيه يثبت أن من صاغها لم يقصد سوى صياغة شروط ضبابية عائمة تؤجل الهامَّ من قضاياها إلى مرحلة لاحقة، ولا يستبين منها سوى تلك البنود التي تلزم العرب بحفظ أمن الصهاينة، وتثبيت كيانهم، بل والمحافظة عليه.

الشرط الخامس لصحة هذه الاتفاقات شرعًا ينص على ضرورة خلوِّه من الشروط الفاسدة التي لاتنسجم مع مصالح المسلمين؛ أولًا تتفق مع تعاليم الشريعة الغراء، ويكفي لإثبات مخالفة هذا الشرط أن نعلم ما تنص عليه هذه الاتفاقات صراحة من ضرورة الاعتراف بالصهاينة، وكيانهم المصطنع، وبشرعية احتلاله للأراضي المغتصبة عام ١٩٤٨، وملكيتهم لها إلى الأبد»(٠ .

فإذا ما نظرنا إلى المعاهدة المصرية الإسرائيلية في ضوء هذه الشروط لوجدناها مناقضة لمعظمها إن لم يكن كلها، فلم يكن الرئيس المصري -السادات حينها- ممثِّلًا بأي حال للشعوب العربية ناهيك عن الشعب المصري ذاته، ونذكر جميعًا عاصفة الانتقادات الرهيبة التي تعرض لها السادات حين هم بإجراء محادثات السلام.

ويذكر هنا أن وزيرين من وزراء خارجية مصر قد استقالا في فترة قصير جدًّا، وأن أحدهم استقال في فترة لا تتعدى الست دقائق وهو (محمود رياض).

ثانيًا لم تكن هناك حاجة ملحة لتقديم كل هذه التنازلات، وخاصة تلك التي تتعلق بالاعتراف بإسرائيل ووسيادة مصر على سيناء، والتطبيع الاقتصادي، وبنود تصدير الغاز.. بل إن الضرر الذي نتج عنها نلمسه في حياتنا اليومية، حيث ظهر جيل كامل من الشباب العربي غير المرتبط بقضية فلسطين، والمشبع بثقافة السلام الخانع، ناهيك عن الضرر الاقتصادي الناتج عن استنزاف غاز مصر بأقل الأسعار، حيث يقول خبير البترول (إبراهيم زهران): «إن الاتفاقية تهدد الاحتياطي المصري من الغاز، حيث إنه جرى التعاقد مع إسرائيل على تصدير ١٨ تريليون قدم مكعب، بينما تمتلك مصر ٢٨ تريليونًا، وليس ٧٥... ما يعني أنه سيتبقى لمصر أقل من نصف مخزونها، وهو أمر يهدد خطط التنمية»؛ ويضيف: «إن مصر تبيع الغاز لإسرائيل بـ٧٥ سنتا إلى دولار للمليون وحدة حرارية بريطانية، وهو سعر يقل تسع مرات عن سعر السوق، لأنه بإمكانها تصديره لأي مكان بالسعر العالمي الذي يقترب من ١٢ إلى ١٤ دولارًا» (٠)

أما فيما يخص (أن تكون هذه الاتفاقيات واضحة لا لبس فيها) فهذا أمر لا نجده في اتفاقية كامب ديفيد، فمن المعروف أن بنود كامب ديفيد المعلنة ليست هي كل البنود، وإنما هناك ملاحق سرية لاتفاقات غير معلنة قد أشار إليها أكثر من مرة الأستاذ (محمد حسنين هيكل) في كتبه وأحاديثه التلفزيونية.. ومن هذه البنود تخفيض عدد جنود الجيش المصري من ٦٥٠ ألف إلى ٢٥٠ ألف فقط، وهناك تكهنات أنها تتضمن كذلك إلزاما لمصر بشراء السلاح من أميركا فقط، الأمر الذي يقطع أي محاولة لهجوم محتمل على إسرائيل لأن أميركا تحمي

إسرائيل! ونستنتج مما سبق أن قياس كامب ديفيد إلى صلح الحديبية هو قياس مخطئ سواء من الناحية الشرعية، أو المادية..

قد يقول قائل إنه إذا ما عرف الجميع موازين الحق لما اختلف الناس، ولكن هيهات.. وإلا لاستطاع الأنبياء -وهم خيرة البشر- أن يرفعوا الاختلاف.. يقول الإمام الغزالي ﷺ: «اختلاف الخلق حكم ضروري أزلي، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨ - ١١٩)».

- **فكيف السبيل إذن؟**

كي نستطيع أن نصل إلى دائرة مشتركة من التفاهم لا بد وأن نعترف باختلاف الناس، واختلاف طبائعهم، وباختلاف ما يناسبهم من أساليب الحوار.. ويرشدنا القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ويقول الإمام الغزالي في شرح هذه الآية الكريمة: «إن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم، وبالموعظة قوم، وبالمجادلة قوم، فإن الحكمة إن غُذِّي بها أهل الموعظة أضرت بهم، كما تضر الطفلَ الرضيع التغذيةُ بلحم الطير، وإنَّ المجادلة إن استُعمِلت مع أهل الحكمة اشمأزُّوا.. وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بطريق الأحسن كما نطق القرآن؛ كان كمن غذَّى البدوي بخبز البُرِّ وهو لم يألف إلا التمر».. ثم يضرب الغزالي نموذجًا في أدب الحوار بإبراهيم الخليل حين حاجج النمرود؛ فقال له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فرد عليه النمرود فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ لأن عقله القاصر أراه أن القتل إماتة، فلم يحاججه إبراهيم في إثبات عجزه عن إحياء الموتى، بل حوَّل أسلوبه فورًا إلى ما يوافق فهم النمرود فقال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾

وعلى الواحد منا أن يترك الجدل إن وجده قد تحول إلى لجاج ومراء عملًا بتوجيه الرسول ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَهُوَ مَازِحٌ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَتْ سَرِيرَتُهُ». (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ)

وما المراء إلا تبديد لطاقة العقل والبدن، وقد نُهِيَ المؤمنون عن الخوض في لغو الحديث.. ويلاحظ الدكتور (طارق السويدان) ثلاث علامات لتحول الحوار إلى جدل ألا وهي:

- رفع الصوت
- تكرار الحجج
- رفض البدهيَّات أو المسلمات

فعندما يلاحظ الواحد منا هذه العلامات لا بد له من أن يترك هذا الحوار لأنه قد صار جدلًا.. ويكفي أن يقتدي الواحد منا بالإمام الشافعي إذ يقول: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، وبذلك يجرد الواحد منا نيته لأجل الحق..

خاتمة

إن مخالفة هوى النفس، والرجوع إلى المصادر السليمة، والتزام العدل هو خير معين للإنسان على التفكير السليم، واتخاذ الموقف المناسب حيال القضايا التي تعرض له في الحياة؛ وخير مصدر هو شريعة خالق هذا الكون، وخير كتاب نستقي منه المبادئ والأصول هو كتاب الله -عز وجل-، وسنة رسوله الكريم ﷺ.. ثم قد يأتي قائل فيقول: ولكن حتى تأويل الآيات قد يتبع هوى الفرد، وأقول: إن هذا وارد، والأمثلة في الواقع، والتاريخ متعددة .

ولكن -وكما ورد في فصول هذا الكتاب- إن اتَّبعنا أسلوب الاستقصاء، ودراسة السياق الذي حدثت فيه الحوادث المختلفة؛ لاستطعنا أن نضع الأمور في نصابها لمن خاف أن يتبع الهوى مع اختلاط الأمور، وكثرة المتشابهات.. فإن كنت هذا الشخص فتأكّد أنك إن اخلصت النية لله -عز وجل-؛ لأَرَكَ الله الحق مهما كانت العوائقُ، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، ويقول الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣)..

ولو ناجيت ربك مخلصًا قائلًا: ربي، إن أريد إلا الحق، ولأتركنَّ ما أنا عليه لو علمته باطلًا، ولو كان مع هوى نفسي.. لرزقك الله بصيرة، ونورًا، ولفعلت الصواب، فما يريد الله منا إلا الإخلاص.. والإخلاص هو عين التوحيد فلا يصلح عمل بدونه.. ثم يأتي بعد ذلك الثبات على ما علمت من الحق، ويوجز الدكتور (عبد الله قادري الأهدل) قواعد ستة للثبات على الحق، نذكر منها: الصبر الدائم، والتوكّل على الله، والاعتماد عليه، وإحسان الظن به، وبنصره، وقوة الصلة بالله، وطاعته بأداء الفرائض من صلاة وصيام، وزكاة، وحج، وعمرة..وغيرها، والإكثار من ذكر الله الشامل، من القرآن الكريم، والأذكار الواردة عن

الرسول ﷺ، واتخاذ الأسباب المادية التي أمر الله بها، والموازنة بين المصالح والمفاسد في تعاطي المعاملة مع العدو.

الأمر الثاني أشار إليه الإمام الغزالي في قوله: «ان الخلق ما كُلِّفوا الصواب عند الله، فإن ذلك غير مقدور، ولا تكليف بما لا يطاق، بل كُلفوا بما يظنونه صوابًا، كما لم يُكلفوا الصلاة بثوب طاهر قطعًا بل بثوب يظنون أنه طاهر».. ولهذا اختلف أئمة الفقه، فكل منهم يفتي بما يرى وفق ما وَصَلَهُ من أصول، فمنهم من وصله حديث، وآخر لم يصله، ومنهم من قواه، ومنهم من ضعفه، ومن رحمة الله أن الصحابة قد تفرقوا في الأرض، ومن ثم صار لكل أهل منطقة علم أخذوه عن صحابي، ومن ثم كان الاختلاف، وهكذا كان تكامل الحق لا تنافره.. واختلاف الأئمة لم يكن إلا في الفروع لا الأصول لأنهم التزموا جميعًا مقاصد الشريعة في فتاواهم حتى ولو كان دليلهم عقليًّا..

الأمر الآخر في طلب الإخلاص في طلب الحق هو ضرورة الإكثار من الاستغفار حتى ينقي الإنسان قلبه من الشوائب كما ينصح شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله قائلًا: «إنه ليقف في خاطري في المسألة، أو الشيء، أو الحالة التي تشكل على فأستغفر الله تعالى ألف مرة، أو أكثر، أو أقل حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل، وقد أكون إذ ذاك في المسجد، أو المدرسة، أو السوق، ولا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي»، ونهاية فإن آمنت أن الله حق، وابتغيت الحق فما يمنع أن يريك الله الحق؟!.. وأختم بأن علينا أن نتذكر أنه بين أن يبصر الإنسان الحق، أو لا يبصره أن يترك الذنوب مصداقًا لقول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نورٌ ... ونور الله لا يُهدى لعاص

المصادر

١ - ورنر ايرهارد ومايكل جنسن. النزاهة: حيثما تبدأ القيادة. نظام جديد للنزاهة.

(Integrity: where leadership begins. A new model of integrity).

٢ - سلسلة أبحاث عن التفاوض، والمؤسسات، والأسواق. كلية هارفارد للإدارة.

بحث رقم: ٠٣ - ٠٧.

٣- الدكتور محمود محمد بابللي. (مفهوم الحق في الإسلام). مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دارالعلوم ديوبند، الهند . ذوالحجة ١٤٢٧هـ. العدد: ١٢، السنة: ٣٠

٤ - محمد راتب النابلسي. شرح مدارج السالكين: مقدمة. موقع محمد راتب النابلسي.

www.nabulsi.com/text/07tarbia/2madarg/madar001-
http://010/madar01.doc

٥ - ابن تيمية (كتاب الهدية في مواعظ الإمام ابن تيمية) ص ٦٤ - ٧١.

٦- عباس محمود العقاد. (التفكير فريضة إسلامية). منشورات المكتبة العصرية. صيدا - بيروت.

٧- حمد بن إبراهيم العثمان. الصوارف عن الحق. مكتبة دار الإمام أحمد.

٨- يوسف القرضاوي. (محاضرة بعنوان «طوبى للغرباء»). موقع القرضاوي.

http://www.qaradawi.net/site/topics/article.asp?cu_no=2&item_no=5589&version=1&template_id=108&parent_id=15

٩ - محمد الغزالي. خلق المسلم. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠ - محمد الغزالي. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث. دار الشروق.

١١ - ابن تيمية. رفع الملام. ص ١١٤.

١٢ - محمد الأمين الشنقيطي. أضواء البيان: ٧/ ٣٥٧.

١٣ - محمود مشوح. تفسير سورة ق. موقع أدباء الشام.

http://www.odabasham.net/print.php?sid=6857&cat

١٤- المحلى ج ٧ ص٢٥، ٢٥٥ مسألة رقم ٨٩٣ الطبعة السابقة، مسألة رقم ٨٩٤

١٥- د. أحمد بن عبدالرحمن الرشيد. الفرق بين الجدال والمراء . موقع شبكة النور الإسلامية.
http://www.nor1way.com/mktba/play-780.html

١٦- د.محمد راتب النابلسي. شرح مدارج السالكين: الفكرة أي (التفكر).
www.nabulsi.com/text/07tarbia/2madarg/mad-048.php

١٧- علي وطفة. بحث بعنوان (توظيف وقت الفراغ عند الشباب في سوريا: دراسة مقارنة بين طلاب المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية). كلية التربية - جامعة الكويت.
http://www.watfa.net/LOIS.232.pdf .

١٨- نورمان سوليمن. (الإعلام الأميركي وثقب الذاكرة) أبريل ٢٠٠٩.
http://www.consortiumnews.com/2009/041009a.htmlUS Media and the Memory Hol.

١٩- تيسا موريس سوزوكي. الماضي بداخلنا: الإعلام، الذاكرة، التاريخ.
The Past Within Us: Media, Memory, History .
دار نشر Verso. أكتوبر ٢٠٠٥.

٢٠- موقع (لو علم الأميركيون).
http://www.ifamericansknew.org

٢١- د. خالد الخالدي (بيع الفلسطينيين أرضهم لليهود حقيقة أم خيال). موقع المركز الفلسطيني للإعلام.
http://palestine-info.info/arabic/qadhya/baya.htm

٢٢- عبد الكريم بن حميدة (حركة الاستيطان الصهيوني وسبل المواجهة). مجلة دنيا الرأي الإلكترونية.
http://pulpit.alwatanvoice.com/content-161222.html

٢٣- الأرض كيف ضاعت؟. حلقة من برنامج (أرشيفهم وتاريخنا). موقع قناة الجزيرة
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/F7EF331D-1648-47D4-93AD-510C065570DC.htm

٢٤- رانية مرجية (الذاكرة الفلسطينية .. مسلسل متواصل من المجازر الإسرائيلية وأمل متجدد باسترداد الحقوق المسلوبة)، مجلة التجديد العربي الإلكترونية. ٣٠ يونيو ٢٠٠٧.

٢٥- الإمام أبو حامد الغزالي (المنقذ من الضلال). ص ٥، ص ٢١. نشر موقع الفلسفة الإسلامية.

www.ghazali.org/works/munqid.doc

٢٦- الشيخ يوسف القرضاوي (الفتوحات الإسلامية.. حقائق وشبهات). موقع القرضاوي: ١٩-٢-٢٠٠٨.

http://www.qaradawi.net/site/topics/article.asp?cu_no=2&item_no=5803&version=1&template_id=130&parent_id=17

٢٧- عباس محمود العقاد (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) صـ220،219.

٢٨- الإمام أبو حامد الغزالي (القسطاس المستقيم) ص ٦٧، ٥٠.

٢٩- فيليب سلاتر (رسالة إلى إسرائيل: حان الوقت أن تتوقفي عن لعب دور الضحية).

A message to Israel: Time to Stop Playing the Victim Role .

مجلة الهايفنجتن بوست الإلكترونية.

http://www.huffingtonpost.com/philip-slater/a-message-to-israel-time_b_155978.html

٣٠- محمد روزي باقي (أصولنا في تفسير القرآن الكريم) موقع حبل الله

http://www.hablullah.com/?cat=94

٣٠- د. فاديغا موسى (أصول فقه الإمام مالك- أدلته العقلية) دار التدمرية – الرياض.

٣١- الإمام أبو حامد الغزالي (المستصفى) (٢/ ٤٨٢)

٣٢- ابن عثيمين (الأصول من علم الأصول).

www.ibnothaimeen.com/all/books/article_17747.shtml

٣٣- جامع الأصول ٤/ ٤٦٧

٣٤- محمد سليم العوا (في النظام السياسي للدولة الإسلامية). ص ١٩٣. دار الشروق:٢٠٠٦

٣٥- منهج السياق القرآني.. موقع إسلام ويب.

http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=141393

٣٦- المحكمة، موسوعة المفاهيم، وزارة الأوقاف بمصر.

http://www.islamic-council.com/mafaheemux/25/16.asp

٣٧- الرابطة المحمدية للعلماء تفتح باب الاجتهاد في إشكالية السياق. الرابطة المحمدية للعلماء.

http://www.arrabita.ma/contenu.aspx?C=83

٣٨- ديفيد بريشو ومارك جوسلين (الذاكرة السياسية: آثار التأثير الإعلامي والثقة في الحكومة).

Political Memory: The Effects of Media Exposure and Trust in Government

٣٩- ورقة بحثية مقدمة في الملتقى السنوي للرابطة الأميركية للعلوم السياسية. بوسطن ماستشوتيس. أغسطس ٢٠٠٩.

http://www.allacademic.com/meta/p66258_index.html

٤٠- لماذا نتذكر الأحداث الصادمة أفضل؟ مجلة لايف سينس. ٢٦ يوليو ٢٠٠٥

http://www.livescience.com/health/050726_memory_study.html

٤١- علي محيي الدين القره داغي.. (معربا عن أسفه لما يجري في اليمن.. القره داغي: الأمة تتعرض لشتى الحروب والفتن للنيل من تماسكها ووحدتها). جريدة الشرق القطرية. ٢٣ يناير ٢٠١٠.

http://www.alsharq.com/articles/more.php?id=178524&date=2010-01-23

٤٢- كذلك يضرب الله الحق والباطل. الشبكة الإسلامية.

http://www.imanhearts.com/articles.php?action=show&id=361

٤٣- ستيفن د. بويد (ضع نفسك في مكان الآخرين)

http://www.isa.org/~sarni/put_yourself.htm – Put Yourself in Someone Else's Shoes

٤٤- غياب الطفولة، وعوالم الكتاب، شبكة النبأ المعلوماتية

http://www.annabaa.org/nbanews/67/570.htm

٤٥-محمد راتب النابلسي. شرح مدارج السالكين، الفكرة أي التفكر.

http://www.nabulsi.com/text/07tarbia/2madarg/mad-048.php

٤٦- إبراهيم العسعس (جهاد المقاومة، أم مقاومة الجهاد؟!).

http://www.alasr.ws/index.cfm?method=home.con&contentID=8715

٤٧- محمد الصالح- مها عبد الهادي- سمير سعيد (الانتفاضة توقف هجرة اليهود إلى إسرائيل).

http://www.islamonline.net/arabic/news/2001-04/04/article1.shtml ٢٠٠١-٤-٣.

٤٨-محمد الصالح. (٥٢٪ انخفاض في مبيعات شقق المستوطنات بسبب الانتفاضة)

http://www.islamonline.net/Arabic/news/2001-03/13/article1.shtml#ixzz0eZA0iEed

٤٩- حوار إمام محمد إمام (الشيخ القرضاوي: استهداف المدنين الإسرائيليين جزء من مقاومة الاحتلال ومجاهدته). جريدة الشرق الأوسط: ١٢ ديسمبر ٢٠٠١.

٥٠- الشيخ يوسف القرضاوي. فتاوى معاصرة ص ٥٠٤-٥٠٥، ص ٥٠٩، ص ٤٩٨-٤٩٩، ص ٥٠١.

٥١- مقاطعة مَن سب رسول الله .. شبهة ورد. موقع إسلام أون لاين.

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?pagename=IslamOnline-Arabic-

Ask_Scholar/FatwaA/FatwaA&cid=1140693909168#ixzz0fMTYeBHT

٥٢- محمد الغزالي (دفاع عن العقيدة والشريعة) ص ٢٦٤ – ٢٦٥. دار الكتب الحديثة بالقاهرة. الطبعة الرابعة عام ١٩٧٥ م

٥٣- جاك خوري (تقرير: ناقلات حربية أميركية، وإسرائيلية تعبر قناة السويس باتجاه البحر الأحمر). صحيفة هآرتز الاسرائيلية.١٩-٦-٢٠١٠

٥٤- فهمي هويدي (سؤال عبثي: إيران أخطر أم إسرائيل؟). موقع الجزيرة نت، ركن المعرفة.

http://www.aawsat.com/leader.asp?section=3&issueno=10361&article=414620

٥٥- علي حسين باكير (الانسحاب الأميركي من العراق.. الدوافع والانعكاسات). موقع الجزيرة نت، ركن المعرفة: التحليلات.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/240674E5-2F2E-4DA5-AB19-B4C3D81A379C.htm

٥٦- ستيف تشابمان. (لوقف العمليات الانتحارية، أرجعوا القوات الوطن).

To Stop Suicide Bombings, Bring Troops Home .

صحيفة بالتيمور صن: ٦ يونيو ٢٠٠٥.

٥٧- ممدوح سلامة، خبير شئون النفط لصحيفة الإندبندنت البريطانية. (خبير نفطي: غزو العراق تسبب بمضاعفة أسعار النفط). موقع الجزيرة الإخباري.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/4C5E89F6-4EE2-44B3-81FD-E8319FAE8496.htm

٥٨- (الدم والنفط). صحيفة الإندبندنت ٧ يناير ٢٠٠٧.

http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/blood-and-oil-how-the-west-will-profit-from-iraqs-most-precious-commodity-431119.html

٥٩- باتريك سيل (هل يمكن لأميركا أن تغادر العراق؟). الحياة اللندنية: ٢٣ يونيو ٢٠٠٥.

٦٠- محمد أبو النصر . (حول وجوه الاختلاف بين صلح الحديبية وكامب ديفيد). موقع الصوت العربي الحر.

http://www.freearabvoice.org/arabi/maqalat/HodaybeyahAndCampDavid.htm

٦١- راغب السرجاني (كامب ديفيد وثلاثون عامًا من السلام).موقع قصة الإسلام.

http://www.islamstory.com

٦٢- هشام منور (المعاهدات في الإسلام من منظور فقهي). موقع الوحدة الإسلامية.

http://www.alwihdah.com/view.php?cat=1&id=1697

٦٣- مصريون يدعون لمقاضاة الحكومة لتصديرها الغاز لإسرائيل. موقع الجزيرة.

http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=1090122

٦٤- د . عبد الله قادري الأهدل (قواعد الثبات على الحق). موقع صيد الفوائد.

http://www.saaid.net/Doat/ahdal/143.htm

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
أين الحق؟	١١
لماذا نتبع الحق؟	١٥
عقبات أمام الوصول إلى الحق	٣١
خطوات الوصول إلى الحق	٨١
المقاومة والعلميات الفدائية	١٣١
المقاطعة	١٤٥
السنة والشيعة	١٥٧
تبرير بقاء قوات الاحتلال في العراق وأفغانستان	١٧١
معاهدة كامب ديفيد وصلح الحديبية	١٧٩
أدب الحوار	١٨٧
الخاتمة	١٨٩
المصادر	١٩١
الفهرس	١٩٩